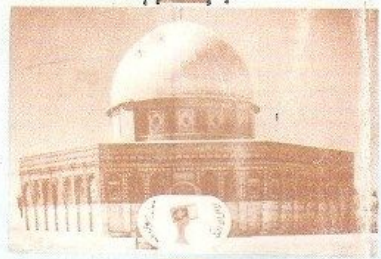

معالم في الطريق

إلى

تحرير فلسطين

د. إبراهيم المقادمة

"عندما نعيش لذواتنا فحسب، تبدو لنا الحياة قصيرة ضئيلة، تبدأ من حيث بدأنا نعي، وتنتهي بانتهاء عمرنا المحدود !..

أما عندما نعيش لغيرنا، أي عندما نعيش لفكرة، فإن الحياة تبدو طويلة عميقة، تبدأ من حيث بدأت الإنسانية وتمتد بعد مفارقتنا لوجه هذه الأرض" - سيد قطب

دعواتكم ..

تقديم وإهداء

من خلال الواقع المؤلم الذي نعيشه ويعيشه المسلمون منذ سقطت أمهم الرءوم - الخلافة - . من خلال الضياع الذي تعيشه الأمة الإسلامية ، ضياع الهوية ، ثم ضياع الحرية ثم ضياع فلسطين .

من خلال المحاولات الجادة التي تتفاعل في قلب هذه الأمة العظيمة دليلا على حيويتها وقابليتها العظيمة للتجدد . من خلال هذه المحاولات التي تؤذن بالميلاد الإسلامي العظيم من خلال انتفاضة أهلنا في الأرض المحتلة في فلسطين التي كان للحركة الإسلامية شرف تفجيرها وتأجيجها لتؤذن بميلاد فجر جديد يعود فيه لهذه الأمة وجهها المشرق .

بين هذا الواقع المؤلم وتلك الآمال المشرقة يسافر المرء عبر الذاكرة ، يقطع المراحل ، يتابع أقدام أولئك العظام الذين انطلقوا من جزيرة العرب يحملون راية الحق والهداية ، يؤذنون ببداية مرحلة جديدة في تاريخ الإنسانية ستظل على مر العصور أسطورة يطل عليها الإنسان ليعرف كم تكون الحياة جميلة حين ترتبط بهداية الله .

نسافر عبر الذاكرة نتابع البراق حاملا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رابطا بذلك بين هذين المسجدين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها برباط لا ينفصم يسرح بنا القلب مع جيش الإسلام القادم من قلب الصحراء في اتجاه فلسطين بقيادة الشهداء العظام ، زيد بن حارثة ، وجعفر ابن أبي طالب - الطيار - وعبد الله بن رواحة . نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مسافرا في الحر يقطع المفاوز ، في ساعة عسرة من المسلمين، موليا وجهه قبل الشام ، ويتوقف عند تبوك لما بالمؤمنين من الإجهاد . هذا أسامة بن زيد القائد الشاب آخذ بعنان فرسه مجاهدا في سبيل الله ، قادما إلى البلقاء امتثالا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وثأرا لشهداء المسلمين . ومنذرا بعهد جديد .

تقف النفس إجلالا، يمتلىء القلب مهابة، للخليفة العظيم أبي بكر الصديق وهو

يرسل جيوشا أربعة لفتح بلاد الشام ، ثم يأمر خالد بن الوليد ليوافيهم من العراق حتى تكتمل عدة المسلمين . هذا هو خالد - سيف الله المسلول - يقطع الصحراء بدون ماء لتكون أعجب مغامرة - محسوبة - في التاريخ ، فيأتيه نبأ عزله عن القيادة وهو في أوج عظمته وحب الجنود له وتيمنهم به ، فيأتي بالرسالة إلى القائد الجديد أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح بفحواها ويسمع له ويطيع ويكمل المعركة حتى لا يفاجأ المسلمون . بنفسي أنت يا خالد ، وفداؤك كل طلاب الزعامات . أي عظمة هذه ، أي قمة يصل إليها هؤلاء الرجال إنها عظمة الإسلام حين تفاعل في قلوبهم ، وتربية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين آتت ثمارها ، هذا أبو عبيدة بن الجراح بجيوشه لفتح الرحمة ، لا للتدمير والهمجية وحين يطلب منه السكان أن يأتي عمر بن الخطاب ليتسلم المدينة ، لا تأخذه العزة بالإثم ، يرسل إلى عمر لكي يتم الفتح على يديه ، عمر وما أدراك ما عمر ، يسير على بعير يعتقبه هو وغلامه مئات الأميال ليدخل عاصمة الدنيا بثيابه المرقعة يمسح الغبار بثيابه عن مكان الصخرة ، والمسجد الأقصى . يؤمن أصحاب المدينة على عقائدهم ومعابدهم ليدلل على أهلية المسلمين للسيادة على الأرض المقدسة .

هذا يزيد بن أبي سفيان يفتح قيسارية عاصمة هرقل في بلاد الشام ويتمم فتح شمال فلسطين ، - هل يعرف هذا أطفال فلسطين أم أنهم لا يزالون يرددون ما يريده أعداء الصحابة،أعداء الإسلام .

هؤلاء هم ألوف الفاتحين في عمواس على مشارف القدس يستشهدون بالطاعون ، أبو عبيدة (أمين الأمة) ، معاذ بن جبل (فقيه الإسلام) ويزيد بن أبي سفيان ومئات الصحابة يروون بدمائهم الطاهرة هذا الثرى الطهور - أي تاريخ هذا وأين نحن من هذا التاريخ .

بين هذا الماضي المجيد وبين هذا الواقع المؤلم وعبر آلام المخاض المؤذن بميلاد جديد للفجر المسلم . أهدي هذه الرسالة إلى الجيل الجديد من أبناء الحركة الإسلامية علها تكون خطوة على طريق الوعي لدورهم المنتظر لإعادة سيرة هؤلاء الأسلاف العظام ، الذين يزدان بذكرهم الزمان ويشرق وجه التاريخ سائلا الله القبول والسداد .

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، أما بعد .

فان القضية الفلسطينية منذ ظهورها ومقدماتها في أواخر القرن التاسع عشر وظهورها عمليا أمام الجميع على إثر وعد بلفور في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧م لم تعالج معالجة حقيقية لا على المستوى النظري والفكري ولا على المستوى السياسي والعملي والعسكري ، فكل المعالجات إما كانت مشوهة منحرفة أو كانت قاصرة عن الإحاطة بجميع جوانبها في الوقت الذي كانت تبرز فيه بعض التصورات والمفاهيم الجديدة ، كانت تنقصها الخبرة العملية لمواجهة المؤامرة بحجمها الحقيقي مما جعل بعض الحركات الناضجة فكريا تجهض في مهدها نتيجةً للظروف والتحديات التي كانت أكبر حجما من هذه المعالجة .

لقد مضى خمسون عاما بين أول مؤتمر صهيوني يعقد لإقامة الدولة اليهودية في فلسطين وبين الإعلان عن قيام الدولة اليهودية ١٨٩٧ - ١٩٤٧ . ولقد مضى أيضا أكثر من أربعين عاما على إقامة هذه الدولة والملاحظ من خلال هذه الفترة أن هناك تقدما مضطردا في جانب العدو الصهيوني من تخطيط وإمكانيات وتنفيذ انتقل فيه اليهود من أقلية بسيطة في فلسطين لا تشكل ٥ ٪ من السكان إلى هجرة مستمرة جعلت اليهود يزاحمون المسلمين في فلسطين ، ثم إلى حرب لطرد الفلسطينيين وإقامة الدولة اليهودية . ثم نمو هذه الدولة وتهديدها لكل الدول المجاورة ، حتى أنها آخذة في النمو لتكون من الدول العظمى ولتنفيذ حلم الصهيونية الكبير في إقامة دولة إسرائيل من الفرات إلى النيل والانطلاق إلى السيطرة على مقدرات العالم كما هي مخططات بروتوكولات حكماء صهيون .

وفي المقابل نجد تراجعا خطيرا في الجانب الفلسطيني والعربي والإسلامي سواء على المستوى الفكري أو المستوى العملي .

فعلى المستوى الفكري والنظري بدأ المسلمون برفض هجرة اليهود إلى فلسطين ثم حاولوا وقف الهجرة فلم يستطيعوا حتى قامت دولة إسرائيل فبدأوا برفض وجود الدولة اليهودية وظلوا فترة يطلقون عليها اسم الكيان المسخ أو الدولة المسخ . حتى كانت هزيمة ١٩٦٧م فبدأوا بعدها يتعاملون مع الأمر الواقع وينظرون إلى إسرائيل كدولة لا يستطيعون مقاومتها وبدأت المطالبة بازالة آثار العدوان ، وذهبت أدراج الرياح مقولات تحرير فلسطين من النهر إلى البحر ، وتقلصت إلى المطالبة بدولة علمانية يعيش فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون على السواء ثم المطالبة بدولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ثم إقامة دولة فلسطين على أي شبر يتم تحريره من أرض فلسطين ، ثم أصبحت قمة المطالبة هي المطالبة بحق تقرير المصير ، ثم الاعتراف رسميا باسرائيل من قبل رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ، ثم القبول بالحكم الإداري الذاتي المؤقت مع تأجيل بحث مسألة القدس والمستوطنات .. والبقية تأتي .

وعلى مستوى النفسية العربية صار التحول في النظرة إلى اليهودي من إنسان جبان نذل ، نستطيع أن ندوس على رقبته في كل وقت كما كان الحال في السابق إلى إنسان ذي خطر ، نرفضه ونكرهه ونقاومه ، إلى إنسان أسطوري لا نستطيع مواجهته ، إلى إنسان لابد لنا من صداقته حتى نحافظ على أرواحنا .

ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى عدوا له ما من صداقته بُدّ

هذا التراجع المستمر في الناحية الفكرية والنفسية رافق دون شك الهزائم العسكرية المتلاحقة التي عانى منها العرب .

وبعد هذه المعاناة المريرة والفشل الذريع الذي تميزت به المواجهة العربية لابد لنا من وقفة صادقة مع النفس نراجع فيها كل معادلة الصراع بأطرافها المشتركة فيها وأبعادها وطرق مواجهتها .

إن الحركة الإسلامية هي المرشحة للقيام بهذا الدور بل هي المرشحة الوحيدة بعد أن فشلت كل الطروحات السابقة .

إنها المرشحة الوحيدة بحكم الاعتبارات التالية :

(١) إنها الوحيدة التي تملك عقيدة تستطيع من خلال بعثها وإحيائها في النفوس أن تواجه كل تحديات المرحلة وتستطيع تخطي كل حواجز اليأس والتخاذل والتقاعس والأنانية وأن تبعث روحاً جديدة في هذه الأمة ، هذه الروح التي أثبت التاريخ أنها حين انبعثت في هذه الأمة لأول مرة ، انطلقت فاتحة في مشارق الأرض ومغاربها . وحين فقدت الأمة هذه الروح،رجعت إلى سالف عهدها من الذل والتمزق حتى غزاها الصليبيون واحتلوا قلب العالم الإسلامي . وحين انبعثت هذه العقيدة ثانيةً بعد خفوت ضوئها كانت التجربة واضحة تماماً حتى استطاع العالم الإسلامي التخلص من المحتلين . إن هذا الرصيد العقائدي والتاريخي يجعل العقيدة الإسلامية هي العقيدة الوحيدة التي تستطيع المواجهة .

(٢) إن الحركة الإسلامية هي الوحيدة القادرة على ترجمة نظرياتها ومقولاتها إلى أعمال،حين تخلص نفوس أصحابها لفكرتهم وعقيدتهم وينصهرون تماما مع مبادئهم ويتخلص أصحابها من كل منافع وقتية أو دنيوية عاجلة ينظرون إليها،يتخلصون من كل روابط الأرض وينطلقون إلى ما عند الله من جنات النعيم . كيف لا والقرآن يحذر المؤمنين من إطلاق الشعارات التي لا تملك رصيدا من الواقع «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون.إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص» (الصف ٢ - ٤) . ومن هنا استقى الإمام الشهيد حسن البنا مقولته الشهيرة «دعوا أعمالكم تتكلم عنكم» .

(٣) إن الحركة الإسلامية هي الوحيدة القادرة على التخطيط لمواجهة التحديات الجسام الملقاة على عاتق الأمة معتمدة على الله ثم على إمكانياتها الذاتية بعيداً عن التبعية لهذه الجهة أو تلك . بما تملك من إمكانيات عقلية وعمق جماهيري في كل أنحاء العالم الإسلامي . وهذا يجعلها في مأمن من الوقوع في المطبات التي وقعت فيها الحركات السابقة حين خذلها الذين اعتمدت عليهم وثبت خطأ نظرية هذا الاعتماد .

(٤) إن الحركة الإسلامية هي الوحيدة التي تتعارض جذريا مع الاحتلال اليهودي ولا يمكن أن تتعايش معه في أي مرحلة من مراحل صراعها مما يجعلها قادرة على خوض

المعركة حتى نهايتها ويحميها من الوقوف في منتصف الطريق «لتجدن أشد الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا» (المائدة ٨٢) .

(٥) الحركة الإسلامية هي الوحيدة القادرة على الصبر وتقديم التضحيات بدون انقطاع حتى النصر النهائي مهما طال الطريق وعظمت التكاليف . لأنها تزن بميزان الله عز وجل «ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصبٌ ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون» (التوبة ١٢٠ - ١٢١) .

(٦) الحركة الإسلامية هي الموعودة من الله تعالى بالنصر والتمكين وقهر اليهود .

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا» (النور ٥٥) .

«يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» (محمد ٧) .

«ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز» (الحج ٤٠) .

«فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً» (الإسراء ٥) .

«فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا» (الإسراء ٧) .

وقال صلى الله عليه وسلم : «لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر والشجر يا مسلم هذا يهودي ورائي تعال فاقتله» رواه مسلم (باب الفتن) .

إذن فعلى الحركة الإسلامية أن تتقدم لتأخذ دورها كاملا في مواجهة أعدائها متسلحة في جهادها بالخصائص التالية :

(١) عليها أن تحدد رؤية واضحة لطبيعة المعركة فتحدد :

أ - ما هي ؟

ب - من هم أعداؤها .

ج - ما هي طبيعة الصراع بينها وبين هؤلاء الأعداء .

(٢) أن تكون مرتبطة باستمرار بعقيدتها وتاريخها ولا تخضع في تصوراتها وتوجهاتها لأهواء آنية ولا تجري وراء سراب وأوهام . فانها إلى النصر طالما كانت متمسكة بعقيدتها سليمة من كل انحراف وبمبادئها بعيدة عن كل زيغ .

(٣) إخلاص توجهها وعملها لله سبحانه وتعالى حتى ينزل عليها نصر الله وتستحق الاستخلاف وميراث الأرض .

(٤) التخطيط الدقيق والشامل وبعيد المراحل بعيداً عن الارتجال والحركات الانفعالية المتسرعة .

(٥) العمل المستمر والصبر المتواصل والجهاد الطويل لبلوغ هذه الأهداف .

(٦) وحدة العمل الإسلامي وعدم بعثرة الجهود الإسلامية في صراعات داخلية أثبتت كل تجارب التاريخ أنها السبب في الهزيمة «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» (الأنفال ٤٦) .

ولكن قبل البدء في دراسة القضية الفلسطينية يجب أن نوضح نقطة هامة وهي الإجابة عن هذا السؤال . هل تتبنى الحركة الإسلامية القضية الفلسطينية كمدخل للدعوة إلى الإسلام أم تتبنى الإسلام أساساً وحين يصير الناس مسلمين فانهم سوف يتصدون لحمل قضاياهم وفي مقدمتها قضية فلسطين ؟ .

بدأ المسلمون معركتهم التحريرية ليس في الجزيرة العربية وحدها ولكن لتحرير الأرض كل الأرض من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد . يراجع فصل «طبيعة المنهج القرآني» من معالم في الطريق لسيد قطب .

لقد مرت الأمة الإسلامية في السابق بفترات طمع فيها الأعداء بأرض الإسلام كالصليبيين والتتار ، فما كان للمسلمين من نجاح بطردهم إلا بالعودة إلى رُوح الإسلام الحقيقية بعد الوعي الإسلامي الجديد وبعث الروح الإسلامية الذي تمثل في صلاح الدين الأيوبي في مواجهة الصليبيين وتمثل في المماليك في مواجهة التتار حيث

أطلقت الصيحة التاريخية الخالدة في كلا العهدين . صرخ المسلمون في مواجهة الخليفة الضعيف يستصرخونه لنجدة المسلمين في الشام «واإسلاماه» و«وادين محمداه» وعلت صيحة «واإسلاماه» ثانية على لسان المماليك في عين جالوت .

إذن لابد من العودة إلى الإسلام وإنشاء جيل مسلم يتولى حل القضايا الإسلامية . وحين فكر قادة حركة فتح في ركوب الموجة الإسلامية من أجل تحرير فلسطين وجدنا أنهم فشلوا في النهاية في أن يحتفظوا بفكرهم الإسلامي حين ضغطتهم الظروف . يقول أحد الشباب المسلم : سألت كمال عدوان ما الذي جعلك تنتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين - وكان عضواً في جماعة الإخوان المسلمين كما هو حال الكثيرين من قادة فتح - فأجاب : «لأنها الحركة الوحيدة القادرة على تحرير فلسطين» . كان الهدف إذن تحرير فلسطين وكانت الوسيلة هي الإسلام . ولكن هذه الوسيلة تغيرت طبقا لظروف المواجهة فمنهم من أصبح يسارياً لحاجته إلى موسكو ومنهم من أصبح علمانياً لأنه وجد أن هذا هو الطريق الممكن ، خصوصاً بعد أن تعرض الإخوان المسلمون للتنكيل على يد النظام الناصري . ومنهم من حافظ على بعض العلاقة بالإسلام كالصلاة ولكنه نسي الإسلام الحقيقي الكامل بل أصبح الكثيرون منهم معادين للإسلام . وبمعنى آخر ضاع الإسلام حين لم يكن هدفاً . كان هدف هؤلاء الزعماء هو تحرير فلسطين وليس الانتماء للإسلام ولذلك وجدنا هؤلاء القادة يحافظون على رؤيتهم لهدفهم وهو تحرير فلسطين وأضاعوا الإسلام في الطريق .

ولذلك يجب أن يكون واضحاً كل الوضوح منذ البداية أن الإسلام هو الهدف والغاية وليس الوسيلة . نحن نريد الإسلام والإسلام هو الطريق الصحيح إلى الله ، إنه المقصود بحد ذاته وإعلاء شأن الإسلام مقصود بحد ذاته فان حققناه فقد حزنا كل شيء . أرضينا الله سبحانه وتعالى وفزنا في الدنيا والآخرة وحررنا الأرض وأقمنا مجتمع العدالة الإنسانية . وإن خسرناه فقد خسرنا كل شيء حتى لو حررنا الأرض وهذا أمر مستحيل بدون الإسلام . يجب أن يكون الإسلام هو الهدف غير القابل للمساومة مهما كانت الظروف . وإذا حصل أي تشوه في هذه الصورة لدى بعض شباب الحركة الإسلامية في أي ظرف فعلى الحركة أن تعيد تقويم نفسها من جديد ليظل لها سمتها الإسلامي الخالص ووجهها الإسلامي النقي .

الباب الأول

الجذور

لمحة تاريخية : لابد لنا من استعراض العناصر المشاركة في الصراع ومعرفة طبيعة كل عنصر وأهدافه من الدخول في هذا الصراع حتى يكون واضحاً لدينا أسلوب التعامل مع كل هذه العناصر . ولابد لنا من معرفة طبيعة هذا الصراع حتى نعد له عدته ونتسلح بأدواته ونعد أنفسنا إعداداً يكافىء تحدياته لأن معرفة طبيعة المعركة وتحديدها هي أول الطريق إلى النصر .

وعندما نحدد العناصر المشتركة في الصراع لابد لنا أن نذكر بالتحديد :

١- اليهودية العالمية وتنظيمها الحركي المتمثل في «المنظمة الصهيونية» .

٢- الصليبية العالمية على اختلاف توجهاتها ونخص بالذكر بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية .

٣- الشيوعية العالمية ممثلة في الاتحاد السوفيتي .

٤- المسلمين بما فيهم أهل فلسطين نفسها .

ولابد لنا من دراسة كل فريق من هذه الفرق على حدة،ندرس فيها دوافعه للصراع وصفاته ودوره فيه . ولنبدأ باليهود وننتهي بالمسلمين الذين عليهم نعول في تحويل مسار القضية من الهزائم المتلاحقة إلى النصر الحاسم بإذن الله .

الفصل الأول

اليهود

يرجع ادعاء اليهود في فلسطين إلى ما جاء في التوراة أن الله وعد إبراهيم عليه السلام وأعطاه الأرض المباركة «فلسطين» له ولنسله إلى الأبد .

ونحن نؤمن بما جاء في القرآن الكريم أن اليهود حرفوا التوراة واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا وخذلوا أنبياءهم بل عصوهم وقتلوهم ، ولم يرد في القرآن الكريم ذكر لهذا الوعد ، ولو كان صحيحا فلماذا يقصرونه على ذرية إسحاق دون إسماعيل وهما ولدا إبراهيم عليه السلام وإلا فأين الوعد الإسماعيلي بأرض غيرها ؟ وبأي حق يمنحهم الله ذلك الوعد وقد فعلوا ما فعلوا بأنبيائه وآياته ، وعد الله لا ينال الظالمين أبدا . إلا أنهم يفترون على الله وعلى أنبيائه الكذب وهم يعلمون !! وقد أنكر القرآن الكريم على اليهود ادعاءهم الباطل أن إبراهيم كان يهوديا بل اعتبر أنهم لم يكونوا يهوداً إلا من بعد أن أنزلت التوراة على موسى «ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلماً وما كان من المشركين» (آل عمران ٦٧) بل إن الله سبحانه وتعالى وتعالى عاب عليهم هذا الادعاء ومجادلتهم بالباطل فقال : «يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلى من بعده أفلا تعقلون» (آل عمران ٦٥) ولذلك فان القرآن الكريم لا يعتبر اليهود يهوداً إلا من بعد التوراة أي بعد موسى عليه السلام . وقد كان لموقفهم المخزي من موسى عليه السلام حين أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة فقالوا قولتهم الجبانة «قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون ، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، قالوا يا موسى إنا لن ندخلها ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا مهنا قاعدون» (المائدة ٢٢ - ٢٤) .

كان لهذا الموقف الجبان جزاء من الله أن حرمهم من دخول الأرض المقدسة وفرض عليهم التيه في صحراء سيناء ولسنا بصدد مناقشة الحق التاريخي في

فلسطين هل هو لليهود أم للعرب أم لغيرهم فنحن كمسلمين نعلن وبكل قناعة أننا نحن المسلمين الورثة الحقيقيون للجيل الأول من المسلمين الذي استوطنوا في فلسطين وغيرها «إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين» (آل عمران ٦٨) . فنحن الوارثون الحقيقيون بشهادة القرآن الكريم بل نفى الله سبحانه وتعالى أي صلة يمكن أن يدعيها هؤلاء اليهود الذين حرفوا التوراة وزيفوا دين الله - بينهم وبين إبراهيم عليه السلام أو أي نبي من الأنبياء الذين إما كذبوهم وإما قتلوهم «وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين» (البقرة ٢٤) فعهد الله لا يمكن أن ينال هؤلاء اليهود الذي ظلموا أنفسهم وخالفوا أنبياءهم ، وبعبارة أخرى إن الله سبحانه وتعالى لا يعترف بهذا الانتساب ولا يجعل رابطة الدم هي رابطة التوارث بين المؤمنين وغيرهم وإنما هي رابطة الإيمان،والإيمان وحده هو الأساس «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير» (الحجرات ١٣) .

وحتى يعقوب عليه السلام الذي سمى اليهود دولتهم على اسمه (إسرائيل) كان حريصا أن يطمئن على إسلام أبنائه من بعده لتظل النسبة بينه وبينهم «أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون» (البقرة ١٣٣) .

لما فسق اليهود وانحرفوا عن منهج الله عز وجل سلط الله عليهم من هم دونهم من المشركين فسلط الله عليهم نبوخذ نصر البابلي الذي دمر الهيكل وقتل الكثير من اليهود وسبى نساءهم إلى بابل وتشتت اليهود في كل بقاع الأرض ثم عادوا وأسسوا دولة في فلسطين التي كان هلاكها على يد الامبراطور الروماني تيتوس إذ دمر الهيكل مرة ثانية وشرد اليهود في شتى بقاع العالم .

عاش اليهود في كل بلد من بلدان العالم تقريبا وحاولوا بكل الوسائل المحافظة على شخصيتهم خوفا من الذوبان والاندماج في المجتمعات التي عاشوا فيها فزيفوا كثيرا من النصوص في التوراة وأضافوا الكثير حتى يظلوا مرتبطين بأرض فلسطين وبالقدس وإليك بعض الوسائل التي لجأوا إليها :

(١) ادعوا بأنهم شعب الله المختار حتى يشعر أبناؤهم أنهم من جنس آخر غير أولئك الأمميين فيجب عليهم أن يحافظوا على جنسهم وعلى تفوقهم بألا يتزوجوا من غير اليهود «وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق» (المائدة ١٨) .

وادعوا بأنهم لن يدخلوا النار إلا أياماً معدودة وأن النار هي لغيرهم من الأمميين ففضحهم القرآن الكريم «وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون» (البقرة ٨٠) . بل فضح الله ادعاءهم الباطل بتحدٍ واضح «قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين» (البقرة ٩٤ - ٩٥) . فعلى هذه النشئة الفاسدة نشأت أجيال اليهود وهي تعتقد أنها أهل الجنة لمجرد كونها يهودية مهما عملت وأفسدت ، أليسوا أبناء الله وأحباؤه ؟! فلماذا يندمجون في المجتمعات الجديدة حتى يخسروا آخرتهم ؟!

(٢) اخترعوا قصة الوعد الكاذب بأن إبراهيم قد وعده الله أرض فلسطين له ولنسله إلى الأبد وادعوا أن نسله من إسحق فقط . ورفضوا هذا الحق المدعى عن إسماعيل . وادعوا أن اليهود مهما طال الزمن سيعودون إليها ، وظلوا يحلمون بهذه العودة ويسجلون الأناشيد والقصائد ثم مع الزمن تصبح هذه الأوهام جزءا من التوراة ومن تعاليم الدين .

(٣) ادعوا بأن الأمم الأخرى من غير اليهود هي أمم دونهم،خلقهم الله ليكونوا خدما لليهود واخترعوا فكرة الدين العنصري فبدلاً من أن يكون الدين إيماناً وقناعة وعملاً جعلوه نسبا ودما ، لقد عرف عبر التاريخ انتماء الإنسان المؤمن إلى فكرته ومبدئه ومقاتلته لوالده وولده من أجل هذه الفكرة وهذا المبدأ وأن الإنسان يدخل في الدين بكلمة التوحيد ليعلن عن اعتقاده بهذا الدين ويخرج منه أيضا بترك ما دخل فيه .. أما عند اليهود فالدين دين مرتبط بالدم ينتقل من الآباء إلى الأبناء حتى ولو كان هؤلاء الأبناء كفرة ملحدين - أليس يهوديا ابن يهودي ؟! إذن هو من أهل الجنة - ولو عمل ما هم عمل . ولذلك فانهم يقبلون بهذا التقسيم ، يهودي متدين وآخر غير متدين .

والكل راضٍ عن وضعه ومطمئن أنه من أهل الجنة وأما من لم يكن ابنا ليهودية فليس يهودياً ولو آمن بكل معتقدات التوراة . وهذه المسألة لا تزال مشكلة خطيرة تهدد المجتمع الإسرائيلي . ليعتنق هؤلاء ما يشاءون من الدين اليهودي ، لا نعترف بأنهم يهود إلا بأن يكونوا من أمهات يهودية والمسألة لا تزال قيد البحث والنقاش في الكنيست ، وآخر دليل قضية الفلاشا وهم اليهود السود القادمون من الحبشة فلا يزالون يعانون من عدم اعتراف اليهود بهم واحتقارهم مع أنهم يعتنقون الدين اليهودي ويخدمون في الجيش .

(٤) عاش اليهود في كل بلد نزلوا فيه في أحياء منعزلة عن بقية الناس وكانت في العالم الإسلامي تسمى حارة اليهود وفي أوربا كانت تسمى الجيتو حتى يضمنوا لأبنائهم تربية خاصة تمنعهم من الاختلاط بالآخرين وحتى يستطيعوا أن يقوموا بمؤامراتهم بعيداً عن اطلاع عيون الدولة التي يعيشون فيها وحتى يمنعوا أهل البلد من السكن بينهم . كانت هذه المعازل «الحارات والجيتوات» تتميز بانتشار القاذورات والأوساخ على الرغم من غنى اليهود الدائم وانتشار الأمراض الأخلاقية وأشهرها الزنا حتى لا يفكر إنسان شريف في السكن بينهم وكانت هذه المعازل تشتهر بالتجارة والتعامل بالربا وبالذات تجارة الذهب حتى صار اليهودي في كل ناحية من أنحاء العالم رمزا للإنسان الجشع المجرم المرابي الذي لا يدخر وسيلة في الحصول على الذهب بكل الطرق الشريفة وغير الشريفة . والقارىء للأدب الأوربي يجد هذا واضحا في تراثه وعلى سبيل المثال قصة «تاجر البندقية» لشكسبير وقصة «أوليفر تويست» لتشارلز ديكنز وقصة «ايفنهو» لوولتر سكوت . وكذلك نجد مصطلح اليهودي الشرير (Cruel jew) مصطلحا شائعا في الأدب الأوربي . وكذلك الحال في بلاد المسلمين فمن كان يريد الزنا والانحطاط الأخلاقي فما عليه إلا أن يذهب إلى حارة اليهود ولتقرأ على سبيل المثال قصة «أنا حرة» لإحسان عبد القدوس .

إن هذه المعازل اختيارية من صنع اليهود أنفسهم وإن كانت بعض الدول وخاصة في أوربا كانت تشجع مثل هذه المعازل وإن ما يدعيه اليهود من أن هذه المعازل كانت مفروضة عليهم هو أمر غير صحيح على الإطلاق ، فعندما كان يحدث شيء من

الانفتاح على المجتمعات الأوربية في بعض فترات التاريخ ، كان المتعصبون اليهود يفتعلون صراعاً دينياً يجدون فيه نظرة المسيحين لليهود بأنهم قتلة المسيح فتقوم المذابح لليهود هنا وهناك فيضطر اليهود للتكاتف من جديد والانغلاق على أنفسهم حتى يحموا أنفسهم من الإبادة على الرغم من أن اليهود في البلاد الإسلامية عاشوا في راحة وطمأنينة يدفعون الجزية وتحميهم دولة الإسلام من كل اعتداء يشهد بذلك أن الأندلس تحت حكم المسلمين كانت الملاذ لكل يهودي يخاف على نفسه في أوربا أو على ماله . فما عليه إلا أن يذهب إلى الأندلس حتى ينعم بالأمن والحماية عند المسلمين .. حتى في البلاد الإسلامية كان نظام الانعزال موجودا رغم عدم وجود الضغط ولهذا فمن الواضح أن حياة الانعزال في الحارة اليهودية أو الجيتو كانت اختيارا يهوديا ذاتيا للمحافظة على الشخصية اليهودية .

(٥) التنظيم : لقد ظل اليهود في كل مكان في العالم يتبعون نظاما خاصا بهم يسيطر عليه الحاخامات في الغالب ينظم الإشراف على كل شؤونهم الدينية والثقافية والمالية أيضا ولقد كانت بدايات الحركة الصهيونية على أيدي حاخامين من أوربا الشرقية أكبر دليل على سيطرة رجال الدين اليهود على أزمة الأمور في الجاليات اليهودية في أنحاء العالم.ومما يدل على مدى تنظيماتهم المالية عبر التاريخ أنه في زمن الحروب الصليبية كان الجندي أو الضابط الصليبي يقترض من اليهود في فرنسا وبريطانيا على أمل أن يسدد هذا الدين لإخوانهم اليهود في فلسطين والشام حينما يحصل على الغنائم ، هذا بالإضافة إلى التنظيمات الخطيرة التي بثوها بين شتى الشعوب غير اليهودية بغية السيطرة على مقدرات الشعوب وتوجيهها في الوجهة التي يريدون ومن أخطر هذه التنظيمات «الماسونية» التي استطاعت أن تكوّن شبكة عبر أقطار العالم سيطرت فيها على المثقفين والزعماء والماليين جعلت في النهاية تحقيق حلم اليهود واقعا وجعلت الكثير من بلدان العالم تؤيد اليهود ودولتهم ، ناهيك عن التنظيمات التي ظهرت في القرن التاسع عشر كمقدمات للمنظمة الصهيونية والتي سندرسها فيما بعد .

عاش اليهود في أوربا عيشة ملؤها الذل والاضطهاد وكان العداء هو طبيعة العلاقة بينهم وبين المسيحيين الذين يعتبرون اليهود هم قتلة المسيح، واليهود صمان جعلت المسيحيين ينفرون منهم

ويضطهدونهم ، كالتعالي والاعتزاز بالجنس الذي لا يفارق اليهودي حتى وهو في أحط درجات الذل وكذلك الجشع وحب المال واللؤم والشح والغدر والخيانة والتآمر ، كل هذه الأشياء مجتمعة جعلت المسيحيين ينكلون باليهود بمناسبة وبغير مناسبة حتى أن كثيراً من اليهود كان يفر هارباً من أرض أوربا إلى الأندلس لجوءاً إلى الحكم الإسلامي . وحرمت الدولة الأوربية على اليهود دخول الجيش لأنها لم تكن تثق بولائهم للدولة التي يقيمون فيها وكثيرا ما اكتشفت شبكات يهودية للتجسس وكذلك لم يشتغل اليهود في الزراعة لأنها لا تدر دخلا يناسبهم من جانب ومن جانب آخر لأن الأرض كانت بحاجة إلى حماية لم يكونوا يستطيعونها ، ولذلك فان تدريب اليهود على استخدام السلاح بعد ألفي عام من الهجرة تقريبا وتدريبهم على الزراعة كان من أهم واجبات المنظمة الصهيونية التي ثابرت على القيام بها مثابرة عظيمة .

ظل هذا حال اليهود تقريبا طيلة عصور الظلام التي عاشتها أوربا حتى جاء عصر الثورة الصناعية التي شهدتها أوربا بعد الثورة الفرنسية والتي تركت آثارا اجتماعية وسياسية بعيدة المدى كان من نتيجتها :

(١) ظهور عصر القوميات في أوربا والمناداة بأن رابطة الوطن هي أهم من رابطة الدين وترجع جذور هذه الفكرة إلى عصر النهضة حيث ضعف سلطان الكنيسة بعد صراعها العسير مع العلوم الحديثة ، هذا الظهور جعل اليهودي الفرنسي مثلا يحصل على المواطنة الفرنسية ويكون له الحق بالولاء للوطن الفرنسي أكثر من المسيحي الألماني أو الإنجليزي ، وهذا مكن اليهود من دخول الجيش في الدول الأوربية القومية بعد أن كان محروماً من ذلك .

(٢) ضعف الجانب الديني عند المسيحيين جعلهم لا يهتمون كثيرا بكون اليهود قتلوا المسيح أو لم يقتلوه وهذا الأمر جعل المسيحيين أكثر تقبلا لليهود من ذي قبل خصوصا حين تكون هناك بعض المصالح الذاتية التي من الممكن أن يجنيها المسيحي من اليهودي كالمال أو الدعم المعنوي من خلال المؤسسات الماسونية .

(٣) ضعف الجانب الأخلاقي والذي نشأ عن هجرة الكثير من سكان الريف المحافظين في العادة ليعملوا عمالاً في المصانع بعيداً عن بيوتهم مما جعل انتشار الانحراف

الأخلاقي بينهم كثيرا ، وكذلك دخول المرأة إلى ميدان العمل واختلاطها في المصنع والمكتب مع الرجال مكن للانحراف طرقاً سهلة ، وبذلك انتفت الحواجز من طريق الزواج المختلط بين اليهود والنصارى الأمر الذي اعتبره اليهود أكبر خطر يمكن أن يهدد الشخصية اليهودية ولا يزالون يعتبرونه من أكبر الآثام التي تهدد بانقراض الجنس اليهودي .

(٤) تأثر كثير من الشباب اليهودي بالأفكار العلمانية المنتشرة في مجتمعاتهم وطالب كثير منهم بالاندماج الكامل في المجتمعات التي يعيشون فيها ، وأنه لا فرق بين اليهودي وغير اليهودي ، فوقع اليهود في الشرك الذي نصبوه للعالم من خلال الدعوة الماسونية ، وليس غريباً أن يكون شعار الثورة الفرنسية ، الحرية ، الإخاء والمساواة هو نفسه شعار الماسونية . ولذلك بدأ اليهود يقاومون هذه الظاهرة الاندماجية التي أرادوها لتذويب الأديان الأخرى ، فاذا بها تجرف العديد من شبابهم.

نتيجة لهذه العوامل مجتمعة وللاضطهاد الطويل الذي عاناه اليهود في أوربا ولأحلامهم المستمرة بالعودة إلى فلسطين ظهرت بوادر الفكر الصهيوني في القرن التاسع عشر بكتابات مجموعة من الحاخامات مثل موشى كاليشر ويهودا القالعي وكذلك كتابات العلمانيين أمثال موزس هس ١٨٦٢م (روما والقدس) وليون بنسكر «البعث الذاتي».وقبل ذلك في ١٨٤٠ اقترح اللورد بالمرستون سفير بريطانيا في تركيا فكرة الاستيطان اليهودي في فلسطين كشرط لمساعدة بريطانيا لتركيا في مواجهة محمد علي . وكذلك ظهرت مقالة في ١٩٤٠/٨/١٧ في مجلة التايمز في لندن توصي بخطة لزرع الشعب اليهودي في أرض أجداده ، هذه الخطة قدمت بواسطة اللورد أشلي الذي عرف فيما بعد باللورد شافتز بري جاء فيها «حقوق وامتيازات المستوطنين تؤمن لهم تحت حماية القوة الأوربية» يعني بريطانيا .

كان الهدف الرئيس من وراء الفكر الصهيوني هذا - امتدادا للفكر اليهودي القديم - هو الحفاظ على شخصية اليهودي الذي أصبح يواجه خطر الاندماج والذوبان في المجتمعات الأوربية .

وظهر اتجاهان في أوساط اليهود في أوربا لمواجهة ظاهرة الاندماج :

الاتجاه الأول: ويعرف «بالصهيونية الثقافية» ويرى أن الحفاظ على شخصية

الشعب اليهودي تكون بالبعث الحضاري والروحي للشعب اليهودي وإعادة بث الروح اليهودية في الشباب اليهودي الذين تأثروا كثيرا بالفكر العلماني الجديد . وعن طريق تمسك الشعب اليهودي بدينه وتراثه فانه سيقاوم خطر الاندماج هذا .

أما الاتجاه الآخر فيعرف بالصهيونية السياسية أو الصهيونية العملية . فقد كان يعتقد أن الخطر القادم من الاندماج أكبر من أن تقف في وجهه كل محاولات البعث الثقافي والروحي ولذلك لابد للشعب اليهودي من تكتل وتجمع بأن يكون في حيزٍ ما بعيدا عن تأثير عوامل الانحلال والاندماج في المجتمع المسيحي المحيط به .

وبدأت تظهر نتيجة لهذه التيارات جمعيات ومنظمات يهودية في مختلف أنحاء أوربا تعبر بشكل أو بآخر عن أسلوبٍ للعمل من أجل مقاومة خطر الاندماج والذوبان المقبل . فظهرت جمعيات مثل : ١- أحباء صهيون ٢- إيكا ٣- حركة بيلو ٤- عمال صهيون ٥- شباب صهيون ٦- البوند .

وقد قامت بعض هذه المنظمات وبالذات أحباء صهيون بتجهيز بضعة آلاف من اليهود في روسيا على أثر المذابح التي وقعت ضد اليهود في روسيا بسبب مشاركة بعض اليهود في المؤامرة التي راح ضحيتها قيصر روسيا ، فهاجر في العام ١٨٨١م ثلاثة آلاف يهودي وأسسوا أولى مستعمرة لهم في فلسطين وسموها «ريشون ليتسيون» وتعني «الأول إلى صهيون» ومن اسمها يتضح أنها كانت مقدمة لمخطط كبير هدفه النهائي إقامة كيان لليهود في فلسطين . واستمرت موجة الهجرة هذه حتى عام ١٩٠٣م وهاجر خلالها ٢٥ ألف يهودي معظمهم من اليهود الروس وأسسوا مستعمرات قديمة مثل «بتاح تيكفا» و«زخرون يعقوب» .

ظلت الفكرة الصهيونية تنضج على نار هادئة طيلة القرن التاسع عشر حتى جاء الوقت المناسب لبروزها إلى حيز الحسم العملي حين جاء هرتزل الذي يظن البعض أنه صاحب الفكرة الصهيونية والحقيقة أن الفكرة الصهيونية كانت موجودة قبل أن يولد هرتزل . ولكنه كان بمثابة القابلة التي استقبلت المولود الجديد .

كان تيودور هرتزل هذا يهودياً مجرياً يعمل في باريس كمراسل لصحيفة نمساوية وكان يكمل دراسته في الحقوق ، وحين كان يغطي قضية درايفوس وهو

ضابط يهودي في الجيش الفرنسي اتهم بالعمالة لألمانيا وحوكم في باريس وحكم عليه بالسجن لمدة طويلة وبتجريده من ألقابه ورتبه بشكل مهين . شعر هرتزل من عداء الشعب والمحكمة الفرنسيين لليهود أن القضاة حاكموا الشعب اليهودي في شخص درايفوس ومكث فترة طويلة مؤرقا يفكر في حل للشعب اليهودي وأخرج تفكيره هذا في كتاب سماه «الدولة اليهودية.The Jewish State» لخص فيه معاناة الشعب اليهودي والحل المرتقب للخروج من هذه المعاناة وكان الحل في نظره هو أنه لابد لليهود من دولة يعيشون فيها ووصف كل الحلول الأخرى بأنها ترقيعية .

ولم يكتف هرتزل بتشخيص الوضع اليهودي أو باقتراح الحل للمشكلة فقط بل شرح مخططا عمليا لإقامة الدولة عرف بمخطط هرتزل الثلاثي جاء فيه :

(١) تطوير مدروس لأرض فلسطين بواسطة تهجير وتوطين اليهود فيها كعمال زراعيين وحرفيين وأصحاب ورش ومشاغل .

(٢) تنظيم وتكتيل اليهود بواسطة مشاريع ومؤسسات قطرية خاصة بهم بما يتوافق مع القوانين السارية في الأقطار المتواجدين فيها .

(٣) نشر وتصعيد الشعور والوعي القومي اليهودي .

وكان في نظر هرتزل أن هذا لا يمكن أن يتم يدون غطاء من إحدى الدول العظمى على الأقل ، ولذلك جعل شرطا ضروريا السعي للحصول على ضمانات من الدول العظمى للمساعدة في مشروع الدولة اليهودية ونشر الكتاب في سنة ١٨٩٦ وفي سنة ١٨٩٧ عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال في سويسرا . وهذا يدل بشكل واضح على أن الفكرة كانت ناضجة بين يهود العالم قبل ذلك بزمن ليس بالقصير .

وفي هذا المؤتمر تم قبول مخطط هرتزل الثلاثي والشروع في تنفيذه وانتخب هرتزل رئيسا للجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية التي كلفت بالسهر على تنفيذ مخططات المؤتمر .

وفي نهاية المؤتمر قال هرتزل للذي سأله مستنكرا متى ستقوم الدولة اليهودية «وكأنه يراها حلما» أجاب هرتزل : لقد قامت الدولة اليهودية ، طالما اتفق اليهود وشرعوا في العمل فانهم سيصلون إلى أهدافهم ، ومن هنا يتبين لنا أن الحركة

الصهيونية حركة دينية يهودية تهدف إلى حماية الشخصية اليهودية من الذوبان عن طريق إيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين ، يمارس فيه اليهود دينهم كما يريدون دون التعرض لخطر الاندماج .

ويخطىء من يظن أن الصهيونية حركة قومية لأنه لا يفهم مفهوم القومية عند اليهود وارتباطها بالدين اليهودي والتي تعتبر جزءا لا يتجزأ منه حتى أن بعض الكتاب الغربيين الذين لا يتخيلون ارتباط الدين بالدولة في الديانة اليهودية ، وينطلقون في تفكيرهم هذا من الوضع السائد عندهم في المسيحية حيث الدين معزول عن السياسة . هؤلاء الكتاب يقفون حائرين أمام الحركة الصهيونية فهي ليست حركة دينية صرفة كالحروب الصليبية وليست قومية صرفة كذلك ، فهي مرتبطة بالدين ولذلك لابد لنا عند فهم طابع الحركة الصهيونية من فهمنا لطبيعة الدين اليهودي وارتباطه بالجنس والقومية اليهودية .

أما من يدعي من أنصار القومية العربية عندنا أن الحركة الصهيونية هي حركة قومية ويستدل على ذلك بأن هرتزل وديان وبن جوريون وكثيراً من قادة الصهيونية ليسوا متدينين بل هم ملاحدة فهذا زعم باطل إذ أن كتابات هؤلاء وآراءهم تمتلىء بذكر الدين اليهودي ومبادئه وقد تختلف سلوكياتهم الأخلاقية عن المتدينين ولكن هذه ظاهرة طبيعية بالنسبة لليهود الذي يعتبرون أن الواحد منهم سيدخل الجنة لكونه يهودياً كما أسلفنا ولذلك يقع الكتاب القوميون العرب في نفس الخطأ الذي وقع فيه الكتاب الغربيون ، فالكتاب العرب يعرفون بحكم الميراث وبحكم مشاهدتهم في المجتمع الإسلامي أن الارتباط وثيق بين الدين والأخلاق،والمسلم لا يمكن أن يكون مؤمناً وهو لا يلتزم بأخلاق الإسلام بل ويعتبر هذا الالتزام مقياسا للصلاح والتقوى ويعتبر التفلت من الأخلاق الإسلامية بمثابة ضعف الإيمان وعلامة على الانحلال ، إنهم يحكم هذا التصور الموروث والمشاهد في المجتمع الإسلامي لا يفهمون الأمر على حقيقته بالنسبة للذين يعتبرون نسبهم إلى الله كافيا لدخول الجنة . إن الدين اليهودي هو محور الحركة الصهيونية وبمقدار كون الإنسان ملتزما باليهودية يكون ملتزما بالحركة الصهيونية ولعله من المفيد أن نقارن اليهودي غير الصهيوني بالمسلم

الذي لا يهتم بالإسلام ولا بأمور المسلمين ولا يصلي ولا يصوم مع أنه ربما قال لا إله إلا الله محمد رسول الله أما الصهيوني فنقارنه بالمسلم الملتزم بأحكام الإسلام ونظامه وشريعته ويسعى جاهدا لإقامة الدولة الإسلامية وتطبيق منهج الله في الأرض . وهكذا تبطل المقولة الفاسدة من أننا ضد الصهيونية ولسنا ضد اليهودية فلا فرق في الحقيقة بين الاثنين فكل يهودي يمكن أن يكون صهيونيا ببساطة إذا اهتم بأمر اليهود الآخرين ووقف مع الشعب اليهودي واهتم بمعاناته كما أن المسلم المتحلل من الممكن أن يتوب في أي لحظة ويرجع إلى الإسلام .

وتبقى شبهة بعض الجماعات اليهودية الصغيرة التي لا تؤمن بالصهيونية كجماعة «ناطوري كارتا» والحسيديم، وأن هذه الجماعات لا تبعد في الحقيقة عن الصهيونية كثيرا إذ أنها تؤمن بالفكر اليهودي وتؤمن بأرض الميعاد ولكنها تختلف مع الصهيونية فقط في توقيت العودة إلى فلسطين ، إذ أنها تربط عودتها إلى فلسطين وإقامة الدولة اليهودية بعودة المسيح وتعتبر أن الصهاينة عصوا الله باستعجالهم هذه الخطوة قبل نزول المسيح عليه السلام وليس لأنهم عادوا إلى فلسطين ، وليس لأنهم يحبون العرب كما يظن البعض فهم أصحاب فكر صهيوني ولكنه مرتبط بالغيب أكثر من هؤلاء الصهاينة الذين يرتبطون بالواقع فالمنطلق واحد .

والآن نلقي شيئا من الضوء على طبيعة اليهود وطباعهم حتى يكون المسلم واعياً بطبيعة أعدائه الذين عليه مواجهتهم ، وليس أصدق من القرآن الكريم ، كتاب الله المنزل في وصف هؤلاء الأعداء ، فالله سبحانه يصفهم وهو عليم بدخائل نفوسهم ولو حاولنا استجلاء هذه الصفات تبين لنا الآتي :

(١) قسوة القلب : يقول الله تعالى في اليهود : «ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون» (البقرة ٧٤) .

بل قد بلغ من قسوة قلوبهم أنهم قتلوا الأنبياء الذين أرسلهم الله لهدايتهم ، قال تعالى : «ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم

البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون» (البقرة ٨٧) . فهل يتخيل متخيل من قوم هذه أوصافهم أن يرحموا عباد الله ، أو يقبل إنسان كريم بوضع يكون فيه لهؤلاء المجرمين السيطرة على مسلم .

الغدر ونقض العهد : يقول الله تعالى : «أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون» (البقرة ١٠٠) فوصفهم بأنهم لا يبرمون عهدا إلا نقضوه ولم يستقيموا لعهد طيلة تاريخهم ، وقد اكتشف هتلر هذه الحقيقة القرآنية من معاملتهلليهود في الواقع فقال : «إذا فاوضك اليهود انقسموا فريقين فريق يعقد الاتفاق وفريق ينقضه» حتى أنهم حرفوا كتاب الله وميثاقه الذي واثقهم به فقال سبحانه وتعالى منبها المؤمنين إلى هذه الطبيعة الخسيسة «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه» فهل يحترمون أي ميثاق بعد ذلك ألا فليفهم ذلك كل المتخاذلين الذي يبحثون عن صلح وعن معاهدات مع اليهود الذين لم يحفظوا عهدهم مع الله ولم يحفظوا عهدا طيلة تاريخهم فكيف يحفظون عهودهم فانتبهوا .

(٢) النصب والاحتيال : وقد بلغ بهم الحال أن حاولوا أن يحتالوا على الله سبحانه وتعالى حين أراد أن يمتحنهم وقد طلبوا منه أن يجعل لهم يوما مقدسا لا يعملون فيه ففرض عليهم ذلك اليوم وحرم عليهم العمل فيه وكانت لهم مدينة على ساحل البحر وكانوا قوما صيادين فامتحنهم الله سبحانه بأن جعل السمك يأتيهم في يوم سبتهم «أي راحتهم» واضحا يلعب في المياه الضحلة على الشاطىء وفي غير يوم الراحة لا يرون سمكا في البحر ، فلم يصبروا على ذلك وقام واحد منهم بحفر حفرة قبل يوم السبت بيوم وجعل إليها قناة يمر الماء من البحر إليها في وقت المد وينقطع عند الجزر ثم يأتي بعد السبت بيوم ويجمع ما حجزت الحفرة من السمك فأخذه وشواه وأكله ، وشم جيرانه رائحة السمك فسألوه عن ذلك فأخبرهم فأصبح فريق كبير منهم يعمل مثل ما عمل ، فوعظهم القلة الذين آمنوا وحذروهم عذاب الله ولكنهم لم ينتهوا فمسخهم الله قردة وخنازير . يقول تعالى : «واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا

يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ، وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ، فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ، فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين» (الأعراف ١٦٣ - ١٦٧) . ولقد ظلت هذه العادة إلى اليوم فعندهم محرم أن يوقدوا النار في يوم السبت فاخترعوا في أفران الغاز جزءا يشتغل بالكهرباء ويستهلك كمية من الطاقة يحافظ على المأكولات فيوقدونه قبل يوم السبت بيوم ويظل موقدا حتى ينتهي السبت وعندهم أيضا ممنوع إشعال الضوء بما فيه المصابيح الكهربية فيجعلون أناساً من غير اليهود يوقدون مصابيح الكهرباء ليلة السبت وكأنهم بذلك يطيعون أمر الله بل إنني لأعلم أن بعض العمال العرب كانوا يذهبون ليوقدوا مصابيح الكهرباء في بيوت اليهود المتدينين يوم السبت مقابل أجر معلوم ، وفي سجون الاحتلال يحدث أحياناً أن بعض الحراس المتدينين لا يقبل أن يوقد مصباح الكهرباء أو يطفئها يوم السبت وهي تقع خارج الغرف قريبا من أبوابها فيطلب من أحد السجناء أن يمد يده ليطفئها وحين لا يهتدي السجين إلى مكان المفتاح يأخذ الحارس يده ويضعها عليه ويطلب منه أن يضغط عليه لإطفاء الكهرباء وفي بعض الأحيان كان يتظاهر السجين بأنه لا يستطيع الضغط على المفتاح فيضغط الحارس على اصبع السجين فيطفىء المصباح . تماما بنفس الأسلوب الذي استخدمه اسلافهم الذي كانوا ينصبون المصائد قبل السبت بيوم ويدعون أنهم صادوا يوم الأحد .

إنهم بهذا يحتالون على الله فهذه طبيعة متأصلة فيهم لا تفارقهم . فالى كل من يفكر في مراوغتهم ومفاوضتهم عليه أن يعرف هذه الحقيقة والطبيعة .

إنهم يستحلون الاحتيال والنصب على الله وهو العالم بسرائرهم فكيف لا يحتالون عليك ؟ .

(٤) الجبن وحب الحياة : إن الله سبحانه وتعالى يضرب بهم الأمثلة في حب الحياة أي حياة كانت ولو كان ملؤها الذل والمهانة ، إنهم يبغضون الموت ولو كان شريفا ، رغم ادعائهم أن لهم الجنة خالصة من دون الناس فيخاطبهم الله قائلا : «قل إن كانت

لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون» (البقرة ٩٤ - ٩٦) . ويصف موقفا من مواقفهم المخزية مع نبيهم موسى عليه السلام حين قال لهم «يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ، قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون ، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ، قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين» (المائدة ٢١ - ٢٦) .

إن هذه النفسية لا تزال تسيطر عليهم رغم انتصاراتهم الحالية ، فهم ما انتصروا إلا لأننا هزمنا أنفسنا وكما يقول المثل العربي «ما استأسد الحمل حتى استنوق الجمل» . إن حب الحياة ولو بذلة لا يزال ديدنهم حتى في أمثالهم الشعبية يقولون «عيشة الذبانة ولا يوم في الجبانة» ويقولون «ألف يوم بالكدر ولا يوم تحت الحجر» . وقد يستغرب القارىء من صيغة الأمثال إنها صياغة عربية والواقع أنني سمعتها من يهود عرب ومن المشاهد المألوفة حين يقتل لهم قتيل هنا أو هناك فان الدولة من أقصاها إلى أقصاها تهتز ويعم النواح والحزن والأسى فيجب أن ننتبه إلى هذه الظاهرة فبمقدار ما يفقدون من ضحايا تضعف رغبة اليهود الأوربيين في الهجرة إلى فلسطين بل إن ذلك يعزز الهجرة المضادة من فلسطين إلى الخارج فيجب ألا يتوانى المسلمون في قتل ما يستطيعون منهم ويجب ألا نحسب كثيرا للضحايا فلو دخلنا معهم في حرب استنزاف طويلة الأمد فنحن الرابحة في النهاية باذن الله .

(٥) حب المال والثروة والحرص والشح : ومن أمثلة ذلك قصة البقرة التي ذكرها القرآن الكريم وكيف أن واحدا من بني إسرائيل قتل عمه مستعجلا للميراث واتهم

أناسا آخرين حتى يأخذ منهم الدية فكشفه الله بأن أحيا الميت وقصتها مشهورة ومعروفة في سورة البقرة . ومنها أنهم كانوا يزيفون كلام الله من أجل عرض قريب من أعراض الدنيا فنهاهم الله عن ذلك بقوله : «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثما قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون» (البقرة ٧٩) . وحين طلب الله من المؤمنين أن ينفقوا في سبيل الله بقوله : «من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة» أرادوا أن يتخلصوا من الدفع والإنفاق فقالوا وهل الله في حاجة إلى إنفاقنا واتهموا الله بألفاظ لا تليق حتى بالمخلوقين قال تعالى : «وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء» (المائدة ٦٤) .

وقصصهم في جمع المال والتعامل بالربا أشهر من أن تعرف فلا يكاد يذكر المال إلا ويذكر معه اليهود وصدق فيهم قول الشاعر :

عبيد المال ما عبدوا سواه ... له تسبيحهم وله الركوع
إذا رنت دراهم من بعيد ... أصابهم لرنتها خشوع

ونظرة بسيطة على أحوال العالم الاقتصادية ترينا أن الرأسماليين اليهود يمسكون بخناق الاقتصاد الأمريكي والأوربي ونراهم يستخدمون هذه الأموال في ابتزاز الأصوات في الانتخابات الأمريكية وغيرها . وكذلك في دعم الدولة اليهودية التي تجبى إليها الأموال من كل أنحاء العالم مع العلم أن المشهور عنهم البخل. فكيف هذا الدعم لإسرائيل ؟ . والجواب على ذلك أن هذه التبرعات هي جزء من الضرائب الواجب عليهم دفعها لخزانة الدولة التي يقيمون فيها وقد استصدروا أمرا بأن تعتبر التبرعات لدولة إسرائيل كأنها تبرعات لأي مؤسسة خيرية أمريكية ومن المعلوم أن أموال التبرعات غير خاضعة للضرائب وإذا أخذنا في الاعتبار نظام الضريبة التصاعدية فانه بعد كمية معينة من الدخل يصبح كل الدخل للحكومة كضرائب أي نسبة الضرائب تكون ١٠٠ ٪ فبدلاً من أن يدفع المواطن الأمريكي اليهودي هذا المال كضريبة لدولته التي تؤويه وتحميه فانه يفضل أن يدفعه لإسرائيل طالما أنه لا يستطيع الاحتفاظ بهذا المال ، فهو بهذا لا يدفع من جيبه ولكن من جيب خزانة الدولة التي يعيش فيها ، ومن حقها الخاص .

وعلى هذا فضرب الاقتصاد الإسرائيلي عن طريق تخريب المصانع والمزارع ذو أثر فعال على نفسيات اليهود المريضة .

(٦) الجدال واللجاج : عرف اليهود عبر التاريخ بالجدل والمماحكة كما وصفهم موسى عليه السلام بأنهم قوم غلاظ الرقاب . وقصة البقرة خير شاهد على ذلك . فقد طلب الله منهم أن يذبحوا بقرة أي بقرة . فلو أنهم أطاعوا الله لكفتهم أي بقرة ولكنهم ظلوا يتبجحون ويماطلون فضيق الله عليهم حتى أنهم حين ذبحو البقرة التي وصفها الله لهم قال الله عنهم «فذبحوها وما كادوا يفعلون» وكذلك حين طلب قوم موسى منه أن يسمعوا كلام الله حتى يصدقوه اختار من خيارهم سبعين رجلا وذهب لميقات ربه وسمعوه وهو يكلم الله سبحانه وبعد أن سمعوه بأنفسهم قالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون وحين رفع الله الجبل فوق رؤوسهم «وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ، ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين» (البقرة ٦٣ - ٦٤) فطالما كان الجبل فوق رؤوسهم فانهم كانوا يؤمنون وحين يرتفع من فوق رؤوسهم نجدهم ينكصون على أعقابهم وهذا يدلنا على نفسياتهم فطالما كانوا تحت ضغط القوة فانهم يسكنون ويسلس قيادهم فاذا رفعت عنهم المطرقة فانهم يتكبرون . لذلك فانهم لا يمكن التفاهم معهم إلا من خلال القوة ولا يستجيبون إلا للضغط ، والأمثلة على جدالهم ومماحكتهم في القرآن الكريم أكثر من أن تحصى .

(٧) عدم اطمئنانهم إلى ما عند الله : فدائما كانوا يردون على أنبيائهم القول ولا يثقون في وعودهم . قال تعالى : «قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون» (الأعراف ١٢٨ - ١٢٩) وحين طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة امتثالا لوعد الله قالوا إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها وكثيرا ما كانوا يتولون الذين كفروا خوفا على مصالحهم فذكرهم موسى عليه السلام بفضل الله عليهم في السابق حتى يطمئنوا إلى وعده في المستقبل ولكنهم كانوا يأبون هذا التصديق .

(٨) التفرق والاختلاف : يصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله : «تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون» (الحشر) وقال تعالى «وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله» فهم وإن بدوا متماسكين في الظاهر إلا أن العداوات والحسد متأصل في نفوسهم فهناك الكثير من التناقضات تنخر كالسوس في المجتمع الإسرائيلي منها مسألة اليهود الشرقيين والغربيين (السفاراديم والأشكناز) ومنها مسألة اليهود السود ومنها مسألة العلمانيين والمتدينين ومنها مسألة المؤمنين بالصهيونية وغير المؤمنين بها ومنها مسألة الأغنياء والفقراء . إن هذه التناقضات من الممكن أن تؤدي إلى سقوط المجتمع الإسرائيلي بل ستؤدي حتما إلى سقوطه كما وعد الله سبحانه وتعالى . وعلى المسلمين أن يستغلوا هذه الظاهرة استغلالا جيدا فهناك مثلا من يبيع إسرائيل كلها مقابل بعض المال وهذا التماسك لن يطول باذن الله . وبعد ، فهذه بعض الصفات التي يتصف بها اليهود ومن أراد المزيد فعليه بالقرآن فانه يجلي كل نفسياتهم ومن عايشهم وعرفهم عن قرب يجد تصديق قول الله تعالى على أرض الواقع بينهم .

الفصل الثاني

النصارى

النصارى هم العنصر الثاني المشارك في القضية الفلسطينية في الطرف الاخر أي طرف الأعداء . وهم لا يقلون خطرا عن اليهود فهم الذين وفروا الحماية لليهود حتى أقاموا دولتهم ولا يزالون يوفرون هذه الحماية إلى الآن . فهذه الولايات المتحدة والصليبية العالمية كلها تساند الدولة اليهودية بالمال والسلاح والدعم السياسي . والنصارى دوافعهم أيضا التي تتمثل في انتزاع الأرض المقدسة من أيدي المسلمين انهم يعتبرون أنفسهم أصحاب ثارات قديمة مع المسلمين الذين فتحوا الأرض المقدسة وخلصوها من ظلمهم . وهم يعتبرون أن القدس عاصمتهم الروحية إليها يحجون ليزوروا مهد المسيح وقبره كما يدعون والله تعالى يكذبهم هم واليهود في ذلك بقوله : «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم بذلك من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما» (النساء ١٥٧ - ١٥٨) .

وعلى الرغم من أن المسلمين قد كفلوا للنصارى حرية العبادة وحرية زيارة أماكنهم المقدسة - وقصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مشهورة في أنه لم يقبل أن يصلي في كنيسة القيامة خشية أن يأخذها المسلمون فيما بعد - إلا أن النصارى ظلت تراودهم أحلامهم بطرد المسلمين وظلت محاولاتهم على قدم وساق لم تهدأ منذ أن حاول المسلمون فتح القسطنطينية في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وحتى زمن الحروب الصليبية وكانت الحروب دول مرة في صالح المسلمين وأخرى ضدهم حتى جاءت سنة ١٠٩٥م حين أطلق البابا أوربان الثاني نداءه إلى مسيحيي العالم لتخليص قبر المسيح (بزعمهم) من أيدي المسلمين (الكفرة) وانعقد المؤتمر المسيحي ممثلا في مجلس كليرمونت . دعا فيه كل المسيحيين باسم الصليب أن يتوجهوا إلى فلسطين وقام الراهب بطرس الناسك بجولة على قدميه في كل أنحاء أوربا للحض على الاشتراك في الحملة الصليبية التي جمعت متطوعين من كل أنحاء

أوربا وصرت هذه الحملة عبر أوربا الشرقية إلى القسطنطينية وهزمت دولة السلاجقة في آسيا الصغرى ثم احتلت ساحل الشام وأقامت فيه أربع دويلات صغيرة هي إمارة الرها - إمارة أنطاكية - إمارة طرابلس - وإمارة بيت المقدس والتي سقطت في أيدي الصليبيين عام ١٠٩٩ وأعمل الصليبيون في سكانها القتل حتى أن أحدهم يبعث رسالة إلى أهله في أوربا يقول فيها إنه الآن يسير في المسجد الأقصى والدماء إلى ركبة فرسه . وقتلوا أكثر من سبعين ألفا من سكانها وحولوا المسجد الأقصى إلى مزبلة ومكثوا في القدس قرابة مائة عام حتى حررها صلاح الدين الأيوبي ومكثت باقي بلاد الشام ثلاثمائة عام حتى حررها المماليك .

وكان من أهم الأسباب التي أدت إلى هزيمة المسلمين أمام الصليبيين :

(١) تمزق الدولة الإسلامية إلى دويلات صغيرة كان في كل مدينة دولة وأمير .

(٢) الخلافات المذهبية التي مزقت الأمة الإسلامية حتى كانت هناك دولة فاطمية تدين بالمذهب الشيعي الإسماعيلي في شمال أفريقيا ومصر والشام . ودولة الحشاشين - إسماعيلية - في منطقة بحر قزوين وأدى انتشار المذاهب الفاسدة إلى حروب دامية بين المسلمين وإلى إضعاف الروح الإسلامية . هذا فضلا عن تحالف الفاطميين مع الصليبيين (١) .

(٣) ضعف روح الدين الإسلامي بين المسلمين وضعف روح الجهاد فحينما احتل الصليبيون القدس دخلوها بخمسة عشر ألفا قد أرهقتهم المعارك التي خاضوها من القسطنطينية حتى وصلوا بيت المقدس ولكن نظرا للجبن والخور وروح الهزيمة الشائعة بين المسلمين في ذلك الوقت فان الناس كانوا يتصورون أن الجيش الصليبي يزيد على المليون مقاتل . حتى أن قاضي القدس أبا سعيد الهروي حين ذهب يستنجد بخليفة المسلمين في بغداد ، لم يتحرك الخليفة بل قال له اذهب فاستصرخ الناس فذهب القاضي والعلماء وبدأوا يستصرخون المسلمين حتى أنهم أفطروا في رمضان من شدة العناء فما استصرخ أحد .

---

(١) الحركة الصليبية د. سعيد عبد الفتاح عاشور الجزء الأول ص ١٩٧ - ١٩٩ .

(٤) انتشار البدع والعقلية الخرافية في المسلمين وتركهم لروح البحث العلمي والتقدم المادي .

(٥) انتشار النعرات العصبية وحب التملك والسلطان .

(٦) نشاط النصارى في الشرق ومشاركتهم للصليبيين في القتال ودلهم على عورات المسلمين حتى أن نصارى بين لحم ذهبوا مسرعين إلى الصليبيين بعد انتصارهم في الرملة ليخبروهم بالإسراع لاحتلال القدس لأنها فارغة وقبل أن تصلها النجدات الإسلامية (١) . وقد استقبل النصارى في بيت لحم الصليبيين استقبالا رائعا .

أما عن أسباب انتصار المسلمين على يد صلاح الدين الأيوبي فكانت هناك أسباب من جهة المسلمين وأخرى من جهة الصليبيين .

أ - الأسباب الذاتية التي أدت بالمسلمين إلى الانتصار :

(١) القضاء على الدولة الفاطمية في مصر على يد صلاح الدين وتوحيد مصر والسودان وبرقة ثم الشام وشمال العراق تحت إمرة صلاح الدين مما جعل هناك وحدة سياسية إسلامية واحدة في مواجهة الصليبيين .

(٢) بعث الروح الإسلامية الصحيحة واشتعال روح الجهاد في نفوس المسلمين في بغداد ثاروا إلى قصر الخليفة يطالبونه بالإعداد للجهاد وإمداد المسلمين في بلاد الشام بالمال والسلاح وكانوا يصرخون بباب الخليفة «واإسلاماه» «وادين محمداه».

(٣) الإعداد الكامل للجهاد بحيث لم يتوان صلاح الدين في إعداد عدة الجهاد فأنشأ ديوانا للجيش لحشد الجنود وتدريبهم والسهر على شؤونهم وإعداد السلاح اللازم وأنشأ أسطولا إسلاميا كان له دور كبير في قطع الإمداد عن الصليبيين في الشام .

(٤) وجود المسلمين كبحر إسلامي عظيم حول الدولة الصليبية ، كان ضعيفا أحيانا ولكنه رافض لوجود الصليبيين ، مقاوم لهم حتى سنحت للمسلمين الفرصة وأعادوا قوتهم فطردوا الصليبيين طردا كاملا .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

ب – الأسباب التي أدت إلى ضعف الصليبيين وجعلت المسلمين ينتصرون عليهم :

(١) كون الصليبيين أغرابا عن المجتمع الإسلامي فلم يقم الصليبيون في بلاد الشام إقامة دائمة وكانوا دائما عرضة للسفر إلى بلادهم وهذا جعل استقرار الدولة الصليبية غير ثابت في بلاد الشام ومرتبطا كثيرا بحماس الصليبيين في أوربا لإمداد إخوانهم في المشرق بالمال والرجال .

(٢) ضعف الصليبيين نتيجة للحرب المستمرة التي كانوا يخوضونها في كل وقت مع المسلمين ، مما جعل بقاءهم في هذا البحر الإسلامي أمرا مستحيلا على المدى البعيد .

(٣) انقسام الصليبيين على أنفسهم وتنازعهم على الممالك والامتيازات ، وكذلك الصراعات المذهبية القائمة بينهم .

(٤) ضعف الروح الصليبية في أوربا وانتشار المذاهب الإلحادية وضعف الكنيسة في أوربا نتيجة لعصر النهضة .

(٥) القسوة والعداء الشديد الذي عامل به الصليبيون المسلمين مما جعل المسلمين يهبون دفاعا عن عقيدتهم حين شعروا أن الهدف هو استئصال هذه العقيدة من نفوسهم .

وفي العصر الحديث انتبه الغرب الصليبي إلى أخطاء الحملات السابقة فلجأ الاستعمار الحديث إلى أساليب أكثر خبثا وضعها علماء متخصصون من المستشرقين الذين رافقوا هذه الحملات الاستعمارية فحاولوا أن يصرفوا الناس عن دينهم الذي كان السبب الرئيس في انتصار المسلمين على الصليبيين القدامى ودحرهم فرافق هذا الغزو الاستعماري غزو ثقافي كان يعمل في اتجاهين الأول إضعاف الروح الإسلامية وصرف المسلمين عن دينهم .

الثاني : تزييف الصراع فبدلا من أن يكون إسلاميا مسيحيا اتخذ أشكالا أخرى . وسنتكلم بشيء من التفصيل .

أ – إضعاف الروح الإسلامية :

قال رئيس الوزراء البريطاني جلادستون قولته المشهورة وأمسك القرآن بيده قائلا : «لن يقر لنا قرار في الشرق طالما هذا موجود فيه» .

وقد تم هدم الثقافة الإسلامية على مراحل وبأساليب متنوعة وكلما فشل أسلوب أتبع أسلوب آخر فمثلا بدأ المستشرقون هجوما فكريا عنيفا على الدين الإسلامي وعلى نبي الإسلام بالذات ، وبدأوا يلفقون له التهم ويثيرون حوله الشبهات ولاقى هذا الأمر رواجا عند بعض المهزومين روحيا وفكريا أماتفوق الغرب ، ولكنه أثار في نفس الوقت ردود فعل غاضبة عند من بقي عندهم أثارة من دين فهبوا يدافعون عن الإسلام غيرة على دينهم . وعلى الرغم مما اعترى هذه الدفاعات من نقص إلا أنها لعبت دورا كبيرا في الذود عن الإسلام . ثم كانت المرحلة التالية وهي أن يحارب الإسلام من قبل أناس يحملون أسماء إسلامية تتلمذوا على الغرب وعاشوا على ثقافته فبدأوا يهاجمون الإسلام وكان تأثيرهم أكثر سوءا لأن هؤلاء برزوا في ثياب المصلحين الناصحين وليس في ثياب الغزاة القاهرين . ولكن هؤلاء أيضا بدأ كشفهم وإن كان وضوح خطرهم أقل من وضوح خطر المستشرقين . ثم بدأت مرحلة جديدة وهي جيل من هؤلاء المفكرين يكتبون عن الإسلام مادحين ومؤيدين ولكنهم لا يقدمون الإسلام للناس كما أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم . قدموه فكرا وثقافة بعيدا عن التطبيق والالتزام ، يمدحونه ولا يلتزمون به يعتزون به كتراث ولا يطالبون به ولا يعيشونه كواقع وبدأ الاستعمار وتلامذته يمدحون هؤلاء ويخلعون عليهم الألقاب والأوسمة ففلان عميد الأدب العربي وفلان محرر المرأة وفلان أستاذ الجيل وفلان مجدد الفكر الديني وفلان ... وفلان . ونحن لا ننكر أن بعضا من هؤلاء انطلقوا بحسن نية ولم ينتبهوا إلى ما وقعوا فيه نتيجة انبهارهم بالغرب .

وقد كان خطر هؤلاء المفكرين في هذه المرحلة أكبر من أي مرحلة سابقة إلى أن قيض الله لأمة الإسلام باعث النهضة الإسلامية في القرن العشرين الإمام الشهيد حسن البنا فقام ينادي باحياء الروح الإسلامية وتطبيق الإسلام كاملا كما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا تحوير أو انتقاص . وبدأ ينظر للغرب من منطلق

المؤمن العزيز المستعلي بايمانه لا من منطلق المهزوم ... وعلى أثر النهضة التي أحدثها حسن البنا توالى مفكروا الإسلام الحقيقيون أمثال المودودي وسيد قطب ومحمد قطب ويوسف القرضاوي وسعيد حوى وغيرهم كثير يرسمون الطريق للنهضة الإسلامية الحديثة ولا يزال الصراع قائما .

هذا من ناحية الثقافة والفكر ولكن كانت هناك وسائل أخرى مثل نشر الفساد الأخلاقي والعمل على نشر الأخلاق الغربية في المجتمع الإسلامي مثل سفور المرأة وإباحة الزنا وتعاطي الخمور ونوادي القمار وعلب الليل والسينما والمسرح والتلفزيون التي لا تعرض إلا ما يسيء إلى الأخلاق أو الدين باسم الفن . حتى إذا عرضت شيئا عن الدين فانهاتعرضه بشكل مشوه ويظهر بذلك الدين بشكل سيء . ثم عملوا على نشر نوادي الفساد الفكري والعقائدي والجمعيات المشبوهة مثل أندية الروتاري والليونز والمحافل الماسونية التي عملت على تخريب الأخلاق والعقائد في نفوس الطبقة الثرية الحاكمة حتى يبقى التوجيه والقيادة بيد هذه الأيدي الأجنبية .

وكذلك نشر الأفكار العلمانية وفصل الدين عن الدولة والاعتزاز بالقومية والإقليمية والتغلغل في الجيوش وتأسيس الأحزاب العلمانية على أفكار متضادة في كل قطر مما يشغل هذه البلاد عن التنمية الحقيقية . من خلال الصراع على العقائد والقيادة بحيث لا يخرج البلد الواحد من انقلاب حتى يدخل في انقلاب آخر يهدم كل ما بناه السابق . وهكذا تتراوح في مكانها عملية الهدم والبناء وتكون النتيجة هي هدم ما تبقى للأمة من مقومات حضارية مع عدم بناء شيء جديد . ومن خلال ذلك تزداد المسافة الحضارية بعدا بين الغرب المتقدم تكنولوجياً وبين الشرق الخاسر حضاريا وتكنولوجياً وتستمر تبعية المسلمين للغرب بحيث يحسون دائما بالعجز والحاجة إلى التعلق بالغرب . وهكذا يظل المسلمون يدورون في هذه الحلقة المفرغة .

صحيح أن العامل الديني قد ضعف عما كان عليه في زمن الصليبيين الأوائل لكن الجذور الصليبية لا تزال تشد أوربا وترسم علاقاتها مع العالم الإسلامي وجاءت المطامع الاستعمارية لتزيد بعدا آخر لأبعاد الصراع وتعطيه عمقا جديدا ولا تلغي العامل الديني السابق بحال . فلا تزال الروح الصليبية موجودة في أعماق ضمير

الإنسان الأوربي رغم ظواهر الانحلال والإلحاد الموجود في الغرب يؤيد ذلك بعض المواقف نذكر منها على سبيل المثال :

(١) عندما دخل الجنرال اللينبي القدس في ديسمبر ١٩١٧ في الحرب العالمية الأولى قال قولته المشهورة «الآن انتهت الحروب الصليبية» (١) .

(٢) عندما دخل الجيش البريطاني القدس سنة ١٩١٧ قرعت أجراس الكنائس في ألمانيا فرحا بذلك مع أن ألمانيا هي العدو الرئيس لبريطانيا في هذه الحرب والحليف الرئيس لتركيا التي هزمت في القدس (٢) .

لقد كان منطق الأشياء أن يغتم الألمان لهزيمة حلفائهم ولكن الروح الصليبية غمرتهم . فعداؤهم لبريطانيا مؤقت أما عداؤهم للإسلام فأصيل .

(٣) عندما دخل الجيش البريطاني القدس سنة ١٩١٧ قرعت أجراس الكنائس في القدس فرحا بما في ذلك الكنائس الألمانية (٣) وهذا يدل على ارتباط المسيحيين في المشرق باخوانهم في الغرب . وتغلغل الروح المسيحية فيهم رغم ادعاءات القومية العربية التي صنعوها بأيديهم كخطوة لتخريب الروح الإسلامية ومن ثم يحصلون على السيادة المسيحية . وما أحداث لبنان في السبعينات والثمانينات ببعيد .

(٤) عندما دخل الجنرال الفرنسي غورو دمشق سنة ١٩٢٢ ذهب إلى قبر صلاح الدين وركله بقدمه وقال ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين (٤) .

(٥) وكان البابا في روما قد دعا أتباعه في العالم بأسره وكثيرون منهم ألمان ونمساويون (في الدول المحاربة مع تركيا) أن يقدموا الشكر لله بمناسبة احتلال القدس وينهاهم عن السعي لإعادتها إلى تركيا (٥) .

---

(١) عن كتاب جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن - صالح بويصير ص ٦٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٧ - ٦٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٦٤ .

(٥) المرجع السابق ص ٦٨ .

ووجدوا فيها عقبة كأداء تقف في طريق توسعهم واستعمارهم وكذلك هال أهل الغرب قيام الخلافة الإسلامية في استنابول وبعث نفوذها العظيم في ديار المسلمين التي كانوا يطمعون في الاستيلاء عليها واستعمارها فثارت في نفوس الغربيين «العصبية الصليبية» والروح الاستعمارية وصار هدفهم تقويض تلك الامبراطورية والقضاء على الخلافة الإسلامية» (١) .

هذا غيض من فيض يؤكد وجود الروح الصليبية في الغرب الحديث رغم سيطرة العلمانية هناك .

نعود إلى القول أن الصليبيين الجدد كانوا بحاجة إلى دولة تحرس مصالحهم وامتيازاتهم في المنطقة ولكنها يجب أن تكون بشكل يختلف عن تلك الدولة الصليبية الأولى ، يريدونها دولة غير مؤقتة ، دولة تعتبر أن البقاء في أرض الإسلام مسألة حياة أو موت . لا يمكن التنازل عنه وإن التنازل عن هذا الموقع معناه الفناء وليس الخروج إلى موقع آخر ، وتزامن هذا التفكير مع صحوة الفكرة الصهيونية ، هل هو مجرد مصادفة ؟ ، طبيعة التفكير اليهودي والمكر اليهودي عودنا أن كل شيء ليس مصادفة وإنما وراءه تخطيط بعيد الأمد ، ينضج على نار هادئة .

ولكن يبرز هنا سؤال مهم . كيف التقى العدوان التقليديان النصارى واليهود في صداقة متينة وتحالف لا ينفصم رغم ما بينهما من عداء .

لقد ظل النصارى في أوربا يضطهدون اليهود ويعتبرونهم قتلة المسيح وكم أقاموا المذابح هنا وهناك للانتقام من اليهود ، لقد كانوا طوال تاريخهم يحتقرون اليهود فما الذي جعلهم يمجدون اليهود الآن ويعجبون بهم .

والإجابة على هذا السؤال ذات أطراف متشعبة فليس هناك سبب واحد يفسر كل ذلك . إذن هناك أسباب مجتمعة شكلت هذه الجبهة في مواجهة الإسلام منها :

---

(١) المرجع السابق ص ٦٦ .

(١) العداء التقليدي للإسلام فبالرغم من العداء المستحكم بينهم إلا أن عداءهم للإسلام أشد وأعمق «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين» (المائدة ٥١) . ولذلك ساروا على قاعدة عدو عدوي يكون صديقي كيف لا والطرفان موتوران من قبل المسلمين ولهما أهداف مشتركة في تخليص بيت المقدس من المسلمين ويعرفان حاجة أحدهما للآخر في مواجهة الإسلام .

(٢) ولعل من أخطر الأسباب وأهمها وجود المذهب البروتستانتي في أوربا وأمريكا ، هذا المذهب الذي أسسه القس مارتن لوثر في عصر النهضة وكان يهوديا سابقا فألف مذهبا خليطا من اليهودية والنصرانية وجعل النصارى يؤمنون بالتوارة بالإضافة إلى إيمانهم بالإنجيل . وسمي هذا الخليط المزيف بالكتاب المقدس ولقد شبت حروب دامية بين الكاثوليك والبروتستانت في أوربا ، مزقتها وأرهقتها استمرت في بعض الأحيان مائة عام وكان النصارى يستنجدون بالمسلمين الأتراك في مواجهة بعضهم بعضا . بعد أن تغلغل هذا المذهب الهجين في مناطق في أوربا ولا تزال ثار هذا الصراع المذهبي موجودة في إيرلندا الشمالية .

فأتباع هذا المذهب يؤمنون بالتوراة المزيفة ونبوءاتها الكاذبة ولذلك فهم يعتقدون أن الشعب اليهودي سيعود إلى فلسطين ويقيم دولة يهودية وكذلك يؤمنون بخرافة أرض الميعاد وبمكانة القدس لدى اليهود وكل ادعاءات اليهود في فلسطين ، ولا عجب أن نجد أن أكثر الدول حماسا في تشجيع الفكرة الصهيونية ومن ثم الدولة اليهودية هي الدول البروتستانتية (بريطانيا وأمريكا) وليس غريبا أن نقرأ أن من الأسباب الرئيسة لإعطاء بلفور وعده لليهود أسبابا دينية اقتنع بها بلفور ، وكذلك ليس غريبا أن تتكون فئة في بريطانيا (البروتستانتية) عرفت باسم «الصهيونية المسيحية» مع بداية القرن العشرين ولا تزال هذه الفئة مستمرة في دعم الحركة الصهيونية . وليس غريبا أن يجتمع خمسة آلاف قسيس أمريكي «بروتستانتي» ليوقعوا على عريضة يرفعونها إلى الرئيس الأمريكي هاري ترومان بعد الحرب العالمية الثانية يطالبونه بالإسراع باقامة الدولة اليهودية في فلسطين .

(٣) الدافع الاستعماري : لقد ركز الكتاب القوميون العرب بالذات على هذا الدافع واعتبروه وحده هو الدافع وراء مساندة الغرب للصهيونيين وللدولة اليهودية وهم يحاولون بذلك أن يطمسوا الجانب الديني في الصراع . والواقع أننا نجد أن كل دول أوربا الرئيسية وبالذات بريطانيا وألمانيا وفرنسا لها نفس الدوافع الاستعمارية كما هو الحال أيضا مع أمريكا في العصر الحديث ولكن لماذا يا ترى وجدنا بريطانيا وأمريكا تزيدان عن هذه الدول في دعم الحركة الصهيونية مع العلم أن اليهود لم يتركوا هذه الدول بل جربوا معها كما سنرى وعرضوا عليها المساعدة في إقامة الدولة اليهودية فكان هناك بعض التردد فهل كان الدافع الاستعماري عند فرنسا وألمانيا أقل منه عند بريطانيا . أم أن هناك دافعا آخر . هذا يقودنا إلى التفسير الوحيد الممكن وهو التعاطف الروحي الذي يكنه البروتستانت لليهود .

لقد كان الدافع الاستعماري دافعا مهما ولكنه ليس الدافع الأول على أي حال وليس الوحيد بشكل قطعي . لقد كان الإنجليز يفكرون في حماية قناة السويس من الشرق وتأمين طرق المواصلات إلى مستعمراتهم الشرقية في الهند وأستراليا . وكذلك كان الفرنسيون يبحثون عن غنيمة في الشرق يوسعون بها مناطقهم الاستعمارية وينافسون بريطانيا عدوهم التقليدي وما حملة نابليون بونابرت ١٧٩٨ - ١٨٠١ على مصر والشام ببعيد . وكذلك تعتبر معاهدة سايكس بيكو وتقسيم سوريا بين بريطانيا وفرنسا خير دليل على ذلك . وكانت ألمانيا الدولة الفتية الناشئة بحاجة إلى مستعمرات وأنى لها ذلك وقد أخذت بريطانيا وفرنسا كل العالم فلابد من البحث في البلاد الإسلامية وبالذات الواقعة تحت السيطرة العثمانية «الرجل المريض» ولذلك نجد أن هرتزل ومن بعده وايزمن حاولوا بكل قوتهم أن يحصلوا على دعم من هذه الدول حتى أنهم لم يحجموا عن الذهاب إلى قيصر روسيا وقد كان ألد أعدائهم يطلبون منه المساعدة في إنشاء الوطن القومي اليهودي .

ولقد كان للاستراتيجيين في الجيش البريطاني والخارجية البريطانية دور حاسم في تبني الحلم الصهيوني والمساعدة على إنفاذه مما يؤكد الدافع الاستعماري هذا .

(٤) ضعف الروح المسيحية في أوربا مما جعلهم يخفون حقدهم على اليهود بعد انتشار المبادىء العلمانية في أوربا جعل من السهل على السياسيين الأوربيين أن يتناسوا الحقد الطبيعي على اليهود جانبا من أجل مصالحهم . وهناك ولا شك نظرة احتقار خاصة لليهود في أوربا إلى اليوم ولكنها أخف بكثير مما كان عليه الوضع في السابق في تاريخ أوربا الطويل .

(٥) تأثير الجمعيات الماسونية وأندية الروتاري والليونز المنتشرة في أوربا وأمريكا والتي سيطرت على مراكز القوة في المجتمعات الأوربية والأمريكية . ويصور كتاب «أحجار على رقعة الشطرنج» للكاتب الأمريكي «وليام جاى كار» صورة رهيبة لتغلغل اليهود في مراكز القوة وتدخلهم في صناعة الثورات ، مما جعله يصور قادة العالم بأنهم ليسوا إلا أحجار على رقعة الشطرنج تحركهم القوى الماسونية بأصابعها في الخفاء .

(٦) تأثير القوة الاقتصادية اليهودية في العالم الرأسمالي وسيطرتها على النظم الانتخابية بحيث صار اللوبي الصهيوني أكثر تأثيرا في صناعة الزعماء في أوربا وأمريكا أكثر من أي قوة أخرى وصار لزاما على كل مرشح أن يرضي اليهود ومتطلباتهم من أجل الفوز بمقعد الرئاسة وليس الجانب الإعلامي بأقل شأنا من الجانب الاقتصادي ولا هو منفصل عنه وخير دليل على ذلك انتخابات الرئاسة الأمريكية التي يتبارى فيها المرشحون ، أيهم يقدم دعما أكثر لإسرائيل .

ويركزون على ذلك أكثر من تركيزهم على مصالح الشعب الأمريكي والويل لمن يفلت من تحت سيطرتهم . إن «ووترجيت» ومائة فضيحة أخرى مشابهة ستطيح به وإن لم يكن ذلك . فبضع رصاصات كافية لإنهاء حياته . ولنسق على ذلك مثلا حدث في بريطانيا في السابق كما هو الحال في أمريكا الآن لقد خرج ونستون تشرشل وهو صهيوني مسيحي منتصراً في الحرب العالمية الثانية كرئيس لوزراء بريطانيا وقد كان فوزه في الانتخبات الجديدة أمرا لا يقبل النقاش بعد الانتصار العظيم الذي حققه . ولكنه خسر الانتخابات فما السبب يا ترى ؟ بعض السذج يتخيلون أنها عظمة الديمقراطية البريطانية وإحساس الشعب الواعي الذي لم تأخذه الحماسة للقائد المنتصر . ولكن الحقيقة غير ذلك تماما ، فان الزعيم المنافس «كليمانت أتلي» زعيم

حزب العمال فاز في الانتخابات لأنه قدم برنامجا انتخابيا فيه تعهدات بدعم أكبر لليهود وللحركة الصهيونية . وتعهد بأن يقيم دولتهم في فلسطين وهذا هو السبب الرئيس في فوزه في الانتخابات (١) .

(٧) ولعل هناك سببا له بعض الوجاهة وهو أن الحقد الباطن من قبل المسيحيين على اليهود جعلهم يفرحون بالتخلص منهم بارسالهم إلى الشرق الإسلامي والواقع أن هذا الاحتمال ليس بعيدا ونكاد نلمسه في نفوس بعض الأوربيين بل وتكلم عنه بعض الزعماء اليهود أنفسهم مثل إسحق شامير الذي قال بأنه عقد صفقة مع الساسة البولنديين تعهد فيها بتهجير اليهود من بولندا لإراحة الشعب البولندي منهم .

ونعود لما بدأنا من الحديث عن النصارى لكي يتسنى لهم إضعاف المسلمين إلى الأبد وقطع الطريق عليهم ومنعهم من النمو الحضاري جعلوا يصورون من خلال أتباعهم أن الصراع بيننا وبين اليهود هو صراع بين قوميتين تارة عربية ويهودية (بل وحتى فلسطينية يهودية) وصوروه تارة أخرى صراعا استعماريا وتارة ثالثة صوروه صراعا طبقيا بين الأغنياء والفقراء . المهم ألا يكون صراعا إسلاميا في مواجهة الكفر بأنواعه . ومن خلال هذه الطريقة يدخل المسلمون في دوامة من عدم الوضوح في الرؤية . والأخطر من ذلك أنه جعل من الممكن اللقاء بين اليهود والعرب والتفاهم بينهم والتنازل لهم ، بعد أن تصبح العداوة بيننا وبينهم سطحية جدا بل من بين المسلمين من يقبل بوجود دولة إسرائيل لأن المسألة في نظره لا تهمه ولا شأن له بفلسطين . هذا التزييف لطبيعة الصراع كان أخطر المراحل لأنه يعني استسلاما من المسلمين للأمر الواقع والإقرار به وعدم العمل على تغييره وهناك فرق كبير بين هذا الوضع ووضع كنا نحتفظ فيه بأفكارنا وعدائنا لليهود ونحاول فيه تغيير الأمر الواقع رغم ضعفنا . فان هذا الضعف لن يدوم ولابد أن يأتي اليوم الذي ننتصر فيه باذن الله .

---

(١) انظر كتاب «إسرائيل على مفترق الطرق» تأليف كريستوفر سايكس .

الفصل الثالث

الشيوعيون

في الحقيقة أن الشيوعيين دخلوا ساحة الصراع متأخرين بعض الشيء ودخلوه بأشكال أكثر تعقيدا ولابد للدارس أن يتتبع مراحل دخولهم بعين فاحصة جيدا ، فان الدافع الأساس وراء هذا التدخل وهذه المواقف يظل واحدا .

فمن حيث الأصل نجد أن الشيوعية مرتبطة باليهودية ارتباطا وثيقا فليس مصادفة أن يكون كارل ماركس يهوديا ولينين يهوديا وتروتسكي يهوديا وغيرهم من زعماء الفكر الشيوعي من اليهود ومن يراجع بروتوكولات حكماء صهيون يجد أن اليهود تغلغلوا في الفكر الأوربي لتخريبه فهم يقولون إن دارون منا وفرويد منا وماركس منا . وقد اعتمدوا على دارون ليثبت لهم أن الإنسان وجد من نفسه بلا خالق وبذلك حطموا العقيدة واعتمدوا على فرويد لتحطيم الأخلاق حيث أرجع كل أنواع السلوك الإنساني إلى الغرائز كالحيوان واعتمدوا على ماركس ليقضي على البقية الباقية من الأديان بمنهجه الشامل الذي ساقه عن مادية الإنسان وجعله كالحيوان همه البحث عن الطعام .

إننا حين نناقش الشيوعية يجب أن نناقشها كمبدأ ولكن هذا المبدأ ليس منفصلا عن جذوره بأي حال من الأحوال والبيئة التي نبت فيها لها أكبر تأثير في صياغته . والشيوعية من حيث المبدأ تحطم كل الأديان وهي بالتالي تعمل بشكل هام في الجبهة الداخلية في العالم الإسلامي لأنها تحطم أساس المناعة الموجودة في هذا العالم وهي الدين الذي هو محور حياة الإنسان وأعز ما يحرص عليه الإنسان ويستثار للدفاع عنه ، ولذلك فأخطر ما تقوم به الشيوعية هو :

(١) تخريب عقيدة الأمة وإيجاد جيل لا ينتمي لحضارته ودينه ، يجعل من السهل عليه القبول بأوضاع جديدة وشاذة من التعايش مع أعداء الله وهذا الأمر قد عجز الصليبيون في السابق عن إنجازه ويحاولون في العصر الحديث تنفيذه في المجتمع المسلم ولا يزال الصراع قائما .

فمن هذا الباب تعد الشيوعية امتدادا للفكر الصليبي وصدق أبو الأعلى المودودي حين يطلق كلمة الغرب والتغريب على روسيا الشيوعية وأوربا الغربية فكله غرب وكله تغريب وهي في هذا المجال أخطر من الغرب الصليبي فالحاجز النفسي من العداء الذي نكنه للغرب نتيجة للأعمال الاستعمارية في بلادنا يشكل عائقا إلى حد ما في وجه التغريب .

ولكن حين تأتي الشيوعية باسم الصداقة وباسم المعونات العسكرية فانها تكون قد قطعت شوطا بعيدا ومهدت لنفسها موطىء قدم في العالم الإسلامي وقد ظل العالم الإسلامي بعيدا عن الفكر الشيوعي بشكل عام رغم المحاولات الجادة لاختراقه حتى قامت إسرائيل واضطر العرب لاستيراد السلاح من الاتحاد السوفيتي فوجدنا انتشارا سريعا للأفكار الشيوعية في مجتمعاتنا نتيجة الحاجة إلى السلاح أو التكنولوجيا .

(٢) تزييف الصراع القائم بين المسلمين واليهود فلقد حرص الزعماء الشيوعيون في الوطن العربي على تصوير الصراع بين العرب واليهود على أنه صراع طبقي اقتصادي فكما يقول إميل توما في كتابه «جذور القضية الفلسطينية» إن الصراع في حقيقته هو بين الفقراء العرب واليهود من ناحية والأغنياء العرب واليهود من ناحية أخرى . وهذا من شأنه أن يخلق صورة ضبابية عن حقيقة الصراع الدينية الواضحة في الحركة الصهيونية وتأثير هذه الضبابية هو على الجانب العربي فقط فالجانب الصهيوني منظم ومبرمج ولا يعيش الشيوعيون إلا على هامشه ولا تأثير حقيقي لهم . أما الجانب العربي فمع الدعم من الصديق السوفيتي يكون لهذا العمل آثاره السيئة الكثيرة ومن أجل ذلك يعتز الشيوعيون العرب بأنهم كانوا يحمون اليهود ويخفونهم في بيوتهم من الجماهير الفلسطينية الثائرة في أحداث البراق سنة ١٩٢٩م ويستدلون بذلك على بعد نظرهم ووعيهم لطبيعة الصراع واستعلوا في نظرهم عن النظرة القومية والدينية .

وكذلك نجد غسان كنفاني في كتابه عن ثورة ١٩٣٦م يعيب على عز الدين القسام وثورته أنها أعاقت نمو الصراع الطبقي وجعلت الصراع في فلسطين قوميا دينيا بدلا من جعله طبقيا . ويعيب أيضا على القيادات - التي يسميها مستهزئا «الإقطاعية

والإكليريكية» - يقصد الحاج أمين الحسيني ، يعيب عليها أنها لم تستوعب الصراع الطبقي وانحرفت بالجماهير نحو الدين والقومية . والواقع أن النتيجة المنطقية لمثل هذا التصور تزييف للصراع والوصول إلى إمكان لقاء اليهود والعرب على حل واحد يعطي اليهود الحق بالبقاء في فلسطين كدولة ذات سيادة وهل يريد اليهود أكثر من ذلك .

ونتيجة لذلك كان شعار الشيوعيين العرب «إذا فاز راكاح ألقينا السلاح» مع أن قادة راكاح في غالبهم كانوا من اليهود . ومن هذا المنطلق نجد أن الشيوعيين العرب هم أول من نادى دائما وباستمرار بإمكانية التعايش العربي اليهودي وقبل الاعتراف بإسرائيل وبالحلول السلمية للصراع باسم العقلانية والتفكير الواقعي (١) وكما يقول فؤاد نصار زعيم الحزب الشيوعي الفلسطينين (الأردني فيما بعد) إن إسرائيل أصبحت حقيقة واقعة والشمس لا يمكن إخفاؤها بغربال . ومن البديهي أن المستفيد الأول من هذه الحلول هو إسرائيل التي تبذل جهوداً خارقة من أجل أن يعترف بها العرب اعترافا فعليا ليس خاضعا للأمر الواقع بل عن قناعة تامة بشرعية وجودها وهو الأمر الذي لا تشعر إسرائيل بالأمان بدونه وبهذا فالأحزاب الشيوعية العربية توفر لإسرائيل أوضاعاً لم تستطع تحقيقها بطائراتها ودباباتها .

ولنعد إلى تكوين الأحزاب الشيوعية العربية : لقد دخلت الشيوعية إلى البلاد العربية عن طريق اليهود القادمين من روسيا الذي أسسوا حزبا شيوعيا في فلسطين ظل في غالبه يهودياً وانضوى تحته بعض العرب من المسيحيين على وجه الأغلب وبعض أبناء المسلمين ممن باعوا أمتهم ودينهم،وامتدوا ليؤسسوا فروعاً في مصر والشام والعراق وقدظلت إلى فترة طويلة قيادة هذه الأحزاب في فلسطين ، وقد كان قائد هذا الحزب يهوديا بطبيعة الحال - ولم يصبح عربيا إلا حديثا بعد أن أفلست الشيوعية وفقدت دورها ولم يبق في الحزب من اليهود إلا القليل - وكذلك الحال في

---

(١) من الغريب أن هؤلاء الشيوعيين لا يقبلون في البلدان العربية والإسلامية إلا حلول العنف والثورة والانقلابات الدموية ويرفضون هذه العقلانية .

الحزب الشيوعي المصري حيث كان زعيمه هنري كورِل اليهودي إلى أن مات في باريس قبل أعوام . فهل كان هذا مصادفة . وإذا لم يكن هؤلاء اليهود صهاينة فلماذا أتوا إلى فلسطين ؟ أضاقت عليهم الدنيا أن يقيموا في دول شيوعية حتى جاءوا إلى فلسطين ؟ أم أن لهم دورا محددا في الخطة الصهيونية يجب أن يؤدوه ؟ . وقد عودتنا الصهيونية أنها لم تغفل جانبا من الجوانب اللازمة لإقامة الدولة الصهيونية إلا أخذت به سواء ما يقوي الجانب اليهودي من الإعداد والتنظيم وكسب الأنصار أو يضعف الجانب العربي عن طريق التخريب الفكري والعقائدي وإثارة النعرات والتمزقات .

إن الدارس لأحوال الحزب الشيوعي الفلسطيني والأحزاب الشيوعية العربية يجد بما لا يدع مجالا للشك أن هذه الأحزاب قامت بدور مرسوم وواضح في خدمة المخططات الصهيونية . وليس غريبا أن يتبنى الحزب الشيوعي الفلسطيني حديثا الحلول السلمية التي تقوم أساسا على الاعتراف باسرائيل وهو الأمر الذي نادى به منذ سنة ١٩٤٧م .

هذا بالنسبة لدور الأحزاب الشيوعية في المنطقة فماذا عن دور الاتحاد السوفيتي الممثل الأول للشيوعية العالمية . لقد تسابق الاتحاد السوفيتي مع الولايات المتحدة في الاعتراف باسرائيل حتى أن مندوب أمريكا في هيئة الأمم المتحدة لم يسبق مندوب الاتحاد السوفيتي في الاعتراف إلا بدقيقة واحدة .

ويصف أحد وزراء الخارجية العرب وقد حضر التصويت على قرار التقسيم في الأمم المتحدة المشهد بقوله : خرجت من القاعة مغموماً لأجد وفدين يتعانقان وحين سألت عنهما كانا وفد الاتحاد السوفيتي ووفد المنظمة الصهيونية . وكذلك يعتبر الاتحاد السوفيتي رافدا مهما من روافد تدعيم إسرائيل بالمهاجرين ذوي الكفاءات رغم ما قيل عن تقليص المهاجرين اليهود السوفييت إلى إسرائيل فلقد كان الاتحاد السوفيتي ولا يزال في مقدمة الدول التي تمد إسرائيل بالمهاجرين وهم عصب الحركة الصهيونية وهم بذلك يقدمون دعما لإسرائيل لا يقل بحال عن الدعم المالي والعسكري والسياسي الذي تقدمه لهم أمريكا ، إن لم يكن أكثر .

حتى السلاح الذي يقدمه الاتحاد السوفيتي للدول العربية فانه يجني من ورائه أرباحا مضاعفة . فهو يفتح لأفكاره الفاسدة مجال التغلغل في المنطقة العربية

بالإضافة إلى اعتبار المنطقة العربية سوقا رائجة لتصدير سلاحه بأغلى الأثمان والذي كان مشروطا دائما بعدم استخدامه ضد إسرائيل وهذا واضح الآن وضوح الشمس فمثلا :

(١) حين حارب عبد الناصر في اليمن أمده الاتحاد السوفيتي بما يريد من الأسلحة طالما أنه يحارب الرجعية العربية ولا يحارب إسرائيل وأمده بكل أنواع الدعم السياسي ولكن حين جاءت معركة ٦٧ ظل الاتحاد السوفيتي يطلب من عبد الناصر ضبط النفس وعدم البدء بالضربة الأولى حتى كانت النتيجة أن قامت إسرائيل بضربتها التي كانت قاصمة الظهر بالنسبة للجيش المصري والسوري والأردني معا . بل وهناك دلائل كثيرة تشير إلى أن الاتحاد السوفيتي لعب دورا خطيرا في إعداد الضربة الإسرائيلية فهو الذي روج للتهديدات الإسرائيلية لسوريا والتي كانت سببا في تسخين الصراع وهو الذي شجع عبد الناصر على إغلاق مضائق تيران مما أعطى المبرر السياسي لإسرائيل بالهجوم للدفاع عن حريتها في الملاحة وكضربة وقائية من هجوم مصري محتمل في الوقت الذي كان يضغط فيه على عبد الناصر ألا يكون أول من يبدأ الضربة . ولعل تصرف قائد القوات المسلحة المصرية المشير عبد الحكيم عامر العفوي حين جاءه السفير السوفيتي بعد أن قامت إسرائيل بضربتها وشلت الجيش المصري فقد ضرب المشير عامر السفير السوفيتي بقدمه (شلوت) انتقاما منه على ما أحس من خيانة الاتحاد السوفيتي للمصريين في المعركة (١) ، هذا التصرف العفوي هو خير دليل على الدور الذي لعبه الاتحاد السوفيتي في هذه المعركة .

(٢) من المعروف أن الاتحاد السوفيتي لا يزود الدول العربية إلا بأسلحة دفاعية لا تستيطع بها أن تهدد إسرائيل بأي حال من الأحوال وميزان القوى دائما مائل لمصلحة إسرائيل وبالذات في المجال الجوي وهو الذي يحسم المعركة في كل وقت .

(٣) في حرب أكتوبر كان تزويد الاتحاد السوفيتي لمصر وسوريا بالسلاح دون مستواه المطلوب بكثير إذا ما قورن بامداد الولايات المتحدة لإسرائيل وهذا واضح

---

(١) راجع كتاب شاهد على حرب ٦٧ تأليف الفريق صلاح الدين الحديدي .

جدا . ففي الوقت الذي عانت فيه إسرائيل من نقص في السلاح في البداية فانها أنهت الحرب لصالحها بواسطة الإمدادات الأمريكية بينما كانت الإمدادات السوفيتية لمصر وسوريا بالقطارة .

(٤) موقف الاتحاد السوفيتي الدائم الملتزم ببقاء إسرائيل وأمنها والذي لا يخفيه بأي حال .

(٥) موقف المتفرج الذي وقفه الاتحاد السوفيتي من المقاومة الفلسطينية في مواجهة إسرائيل سنة ١٩٨٢م والذي أجاب عنه الزعيم الفلسطيني اليساري أبو إياد (صلاح خلف) حين سأله مراسل مونت كارلو : ماذا عن موقف الاتحاد السوفيتي ، فقال بصراحة إنني لا أفهمه !! .

من هنا يتبين لنا أن عمل الشيوعية المحلية كان التخريب في الجبهة الداخلية الإسلامية عن طريق إضعاف الروح الإسلامية وتزييف الصراع بينما كان دور الشيوعية العالمية هو استغلال هذا الصراع للبحث عن موطىء قدم في المنطقة يتمكن فيه الشيوعيون من مد نفوذهم الاستعماري العقائدي في المنطقة الإسلامية وبذلك يحق لهم أن يكونوا الشريك الثالث في الجبهة المعادية (اليهود - الصليبيون - الشيوعيون) ويجب ألا يغرنا ما تقوم به الأحزاب الشيوعية الآن من القيام بدور التطرف فما هو إلا موقف تمثيلي ستكشف تزييفه الأيام كما كشفت الكثير من زيف الأنظمة الثورية العربية في السابق .

الفصل الرابع

المسلمون

لدراسة أحوال المسلمين في بداية القرن العشرين أي عند بداية القضية الفلسطينية لابد لنا من تعريج قصير على أحوال المسلمين السابقة فهي دون شك التي قادت إلى حال المسلمين اليوم .

لقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة إلى الإسلام في مكة وحيدا ولم يكن على وجه الأرض مؤمن غيره وقد بدأ بداية صعبة في الدعوة الفردية السرية ثم أعلن ذلك حين جاءه الأمر بعد ثلاث سنوات من الدعوة السرية «وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين» (الشعراء ٢١٤ - ٢١٥) ثم بعد ذلك إعلان للجميع «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين ، إنا كفيناك المستهزئين» (الحجر ٩٤ - ٩٥) فواجهته قريش بكل أنواع الصدود والإيذاء والتعذيب له ولأصحابه وطالبت فترة التربية لأصحابه والصبر على المحنة حتى أنها أخذت فترة أطول من تكوين الدولة وقد كان أمامه عدة طرق سهلة للوصول إلى أهدافه . كان بامكانه أن يعلن دعوة قومية لتوحيد العرب أو يعلنها دعوة إصلاح اجتماعي أو أن يقبل بأن يكون ملكا كما عرضوا عليه ثم يقيم الدولة الإسلامية ولكنه آثر الطريق الأصعب طريق التربية الصحيحة والمعاناة لأنه لم يكن يريد دولة فقط وإنما كان يريد أن يبني أمة جديدة ذات أبعاد حضارية كبيرة تقوم على منهج التوحيد الأصيل فكانت الدعوة إلى الله «لا إله إلا الله محمد رسول الله» هذه الدعوة التي تعلن استسلام العباد لله عزو جل واستعدادهم للخضوع لمنهجه ونظامه (١) .

إذن لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم طالب ملك ولكنه كان يريد إنشاء أمة خاضعة لمنهج الإسلام المنزل من عند الله ولأن الدولة ضرورية للحفاظ على هذا المجتمع فاقامتها مشروعة للحفاظ على الهدف الأصلي وهو تعبيد البشر لله .

---

(١) يراجع كتاب معالم في الطريق للشهيد سيد قطب فصل طبيعة المنهج الرباني .

انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل هو وأصحابه بجد وبهمم عالية لا تعرف الكلال حتى أرسو دعائم المجتمع الجديد وما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان المجتمع الإسلامي قائما فتيا ولم تعرف البشرية في تاريخها الطويل مجتمعا نموذجيا للعدالة الإنسانية وللقيم الإنسانية مثله . واستمر الصحابة رضوان الله عليهم في زمن الخلفاء الراشدين على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتحون البلد تلو البلد لينفذوا تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم يلخصها ربعي بن عامر حين ذهب إلى رستم - قائد الفرس - رسولا فأجاب حين سأله رستم : ما الذي جاء بكم ؟ قال : جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . كان التناسق قائما بين وجود المجتمع الإسلامي القائم على أسس الشريعة الإسلامية وبين الدولة القائمة على شؤون هذا المجتمع . ثم بدأ الحال يختلف بالتدريج بعد عصر الخلفاء الراشدين بعد زمن الفتنة المشهورة وبقيت الدولة قائمة ولكن هناك بعض القصور هنا أو هناك في الانسجام والتناسق بين المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية . وهناك من أهل الأهواء من يعتبر أن المجتمع لم يبق إسلاميا والدولة لم تعد إسلامية وهذا ظلم كبير للحقيقة وعدم تقدير جائر لمجهودات أناس بذلوا جهدهم وعرقهم ودماءهم في الحفاظ على الصرح الإسلامي .

ولو قورنت الدولة الإسلامية الأموية أو العباسية في عصر قوتها بأي دولة قامت على الأرض غير دولة الخلفاء الراشدين فاننا سنجد بلا شك أن هناك فرقا شاسعا تتفوق به هاتان الدولتان على أن أي دولة أخرى كالفرق بين الثرى والثريا . وصدق القائل إن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه كان سراجا منيرا ولكنه جاء بعد شموس ساطعة فخفت ضوؤه .

لقد امتدت الفتوحات في زمن الدولة الإسلامية الأموية امتدادا رائعا أكثر بكثير مما كانت عليه في زمن الخلفاء الراشدين ولكن النوعية كانت تختلف . لقد بدأت بعض عوامل الترف والوهن تدب إلى الروح الإسلامية . ولكن هذا الوهن لم يضر بها كثيرا فالنفحة التي استمدها الصحابة والتابعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا

زالت جذوتها تشتعل وتمد الفاتحين بدم إسلامي حار سيطر على روح الفتوحات الإسلامية رغم ما يدعي أهل الأهواء . يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يأتي على الناس زمان يغزو فيه فئام من الناس فيقال هل فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون نعم فيفتح لهم ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم هل فيكم من صحب من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون نعم فيفتح لهم ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم هل فيكم من صحب من صحب من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولن نعم فيفتح لهم» (١) .

لا يمكن أن يقع اللوم على الحكومة وحدها في الخلل الذي طرأ على المجتمع الإسلامي ولا يقع أيضا على الناس وحدهم ولكنها مسؤولية متبادلة فما الحكومة إلا إفراز طبيعي للمجتمع وما المجتمع إلى تربة خصبة للحكومة تستطيع أن تسير عليه نظامها . ولعل أصدق ما قيل في ذلك رد الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين سأله أحد الناس : لماذا اختلف الناس عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر ؟ فقال له علي رضي الله عنه : لأن أبا بكر وعمر كانا أمراء على مثلي أما أنا فأمير على مثلك . أما ما يدعيه بعض المغرضين من أن الدولة الأموية وكذلك العباسية لا فضل لهما في الفتوحات والفضل فقط لبعض القادة الجسورين وللشعب الإسلامي . فهو قول ضعيف لا يستند إلى منطق علمي وإلا فبأمر من كانت تسير هذه الجيوش ومن الذي أمر هؤلاء القادة الجسورين إن لم يكن خلفاء بني أمية ؟! .

نقول إن عوامل التحلل بدأت تدب في الجسم الإسلامي مجتمعا وحكومة ولكنها كانت بطيئة جدا إذا ما قيست بالدفعة القوية التي قام عليها المجتمع الإسلامي الأول . وبدأ المجتمع الإسلامي يفقد الصفة الحضارية التي جاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في إرسائها في أصحابه وجاهد أصحابه من بعده في إرسائها في المجتمعات الجديدة التي فتحوها .

وبدأ شيئا فشيئا انفصال القوة العسكرية عن الروح الحضارية وبالذات في أواخر

---

(١) رواه البخاري .

العصر العباسي الأول حين بدأت عوامل التحلل والضعف تتمثل في الأسباب التالية كما وضحها الإمام الشهيد حسن البنا :

(١) الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه رغم التحذير الشديد الذي جاء به الإسلام في ذلك والتزهيد في الإمارة ولفت النظر إلى هذه الناحية التي هي سوس الأمم ومحطمة الشعوب والدول «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين» (الأنفال ٤٦) ومع الوصية البالغة بالإخلاص لله وحده في القول والعمل والتنفير من حب الشهرة والمحمدة .

(٢) الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن الدين كعقائد وأعمال إلى ألفاظ ومصطلحات ميتة لا روح فيها ولا حياة وإهمال كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم والتعصب للآراء والأقوال والولع بالجدل والمناظرات والمراء ، وكل ذلك مما حذر منه الإسلام ونهى عنه أشد النهي حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» رواه ابن ماجة والترمذي وقال صحيح .

(٣) الانغماس في ألوان الترف والإقبال على المتعة والشهوات حتى أثر على حكام المسلمين في كثير من العصور ما لم يؤثر عن غيرهم مع أنهم يقرأون كتاب الله تبارك وتعالى «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا» (الإسراء ١٦) .

(٤) انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه . مع أنهم يقرأون قول الله : «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون» (آل عمران ١١٨) .

(٥) إهمال العلوم العلمية والمعاني الكونية وصرف الأوقات وتضييع الجهود في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة مع أن الإسلام يحثهم على النظر في الكون واكتناه أسرار الخلق والسير في الأرض ويأمرهم أن يتفكروا في ملكوت الله «قل انظروا ماذا في السموات والأرض» (يونس ١٠١) .

(٦) غرور الحكام بسلطانهم والانخداع بقوتهم وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم من غيرهم حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غرة وقد أمرهم القرآن باليقظة وحذرهم مغبة الغفلة واعتبر الغافلين كالأنعام بل هم أضل «ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الإنس والجن لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون» (الأعراف ١٧٩).

(٧) الانخداع السياسي بدسائس المتملقين من خصومهم والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع في تقليدهم فيما يضر ولا ينفع مع النهي الشديد عن التشبه بهم والأمر الصريح بمخالفتهم والمحافظة على مقومات الأمة الإسلامية والتحذير من مغبة هذا التقليد حتى قال القرآن الكريم «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين» (آل عمران ١٠٠). وقال في آية أخرى «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين» (آل عمران ١٤٩) (١).

هذه العوامل مجتمعة بالإضافة إلى هجمات الروم بفي الغرب بدأت تعمل عملها في تمزيق الأمة الإسلامية وضعفها حتى أن دولة الروم الشرقية احتلت مدينة حلب وكثير من المدن السورية في بعض الأحيان. ثم قيض الله سبحانه دولة السلاجقة الأتراك الذين أعادوا شباب الإسلام وأمجاده العسكرية واحتلوا آسيا الصغرى بعد معركة ملاذكرد الشهيرة سنة ١٠٧٠م وكان لانتصاراتهم الساحقة أثر مزعج في الدول الأوربية المسحية مما جعلها تحرض على الحملات الصليبية بعد ذلك بعشرين سنة تقريبا. ولكن هذه القوة لم تعمر طويلا لأنها لم تقم على أسس حضارية متكاملة فسرعان ما هب الخلاف على الممالك بين الأفراد والسلاجقة وجعل الواحد منهم يحارب أخاه أو عمه من أجل الملك والسلطان مما تسبب في هزيمتهم أمام الحملات الصليبية. ونتيجة لضعف الروح الإسلامية وجدنا الحملات الصليبية تأتي من أوربا

---

(١) رسالة بين الأمس واليوم للإمام الشهيد حسن البنا.

عابرة القسطنطينية قاطعة آلاف الأميال تعاني مشقة السفر والترحال لكنها تأخذ في الانتصار تلو الانتصار على السلاجقة في آسيا الصغرى ثم يحتلون ساحل الشام ويكونوا أربع إمارات صليبية هي الرها وأنطاكيا وطرابلس وبيت المقدس . وبالطبع كان أخطرها إمارة بيت المقدس .

ظل الصراع قائما بين الإمارات الصليبية والممالك الإسلامية المجاورة وكثيرا ما كنا نجد العجب العجاب من أمراء المسلمين في ذلك الزمان فتارة يحاربون بعضهم بعضا وحين يخاف أحدهم من الهزيمة أما الآخر لا يجد حرجا في أن يتحالف مع الصليبيين ضد أخيه المسلم . وفي مرات كثيرة لعب الحشاشون (فرقة من الشيعة الإسماعيلية) دورا خطيرا في اغتيال الشخصيات الإسلامية البارزة التي كانت تعد العدة لقتال الصليبيين ، حتى أنهم اغتالوا أحد عشر أميرا من أمراء المسلمين ممن بذلوا كل وقتهم في الإعداد لجهاد الصليبيين ، بل حاولوا ثلاث مرات اغتيال صلاح الدين الأيوبي نفسه وأصابوه في إحداها ولكن الله سلم (١) .

وقد تحدثنا فيما سبق عن أسباب ضعف المسلمين وهزيمتهم أمام الصليبيين وأسباب انتصارهم (راجع فصل المسيحيين) .

هذا وتعتبر الحملات الصليبية ومواجهة المسلمين لها نموذجا يجب دراسته دراسة جيدة لأخذ العبر والاستفادة من التاريخ في معركتنا الحالية ضد اليهود فأسباب ضعفنا هي أسباب ضعف المسلمين السابقة ووسيلة انتصارنا هي وسيلة انتصار المسلمين نفسها وإن من انتصر على الصليبيين قادر بعون الله على الانتصار على اليهود اليوم «إنا لننصر رسلنا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد» (سورة غافر ٥١) .

ولكن تظل المشكلة قائمة في أن هذا البعث الإسلامي الذي قام به صلاح الدين لم يكن متكاملا كما كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده ، وكان أقرب إلى ردة الفعل منه إلى البعث الحضاري الشامل ولذلك نجد أن الدولة

---

(١) راجع كتاب الحركة الصليبية د. سعيد عبد الفتاح عاشور ص ٥٥ وما بعدها .

الأيوبية بدأت في التحلل بعد صلاح الدين ولم تعمر طويلا حتى جاء الخطر المغولي يهددها من الشرق .

جاء المغول من الشرق يحملون همجيتهم بأعداد هائلة تأكل الأخضر واليابس وتقضي على ما تواجهه من مظاهر الحضارة ولم يقف في وجههم شيء فقضوا على الدولة الخوارزمية في الشرق واكتسحوا بلاد فارس حتى دخلوا العراق واحتلوا بغداد وحرقوا مكتباتها العظيمة وقذفوا بالتراث الإسلامي في نهر دجلة وقتلوا من المسلمين ما لا يحصى من الناس . وكان كل ذلك بعد مؤامرة خسيسة من وزير الخليفة (ابن العقمي) الشيعي المذهب .

وتقدم المغول نحو الشام ووصلت طلائعهم إلى غزة والعريش وأرسلوا تهديداتهم إلى المماليك في مصر . إلا أن المماليك وبهبة من هبات الروح الإسلامية المعهودة عند وقوع الخطر المهدد لديار الإسلام وبتأثير علماء المسلمين كالعز بن عبد السلام الذين جابوا البلاد طولا وعرضا يبثون روح الجهاد ويستفزونهم لقتال المغول استطاع المماليك أن يحشدوا حشدا قويا من سكان مصر المسلمين التقوا مع إخوان لهم في الشام وقابلوا التتار في معركة عين جالوت وهناك انطلق الشعار المرعب «واإسلاماه» ليقذف في قلوب المسلمين نورا وحماسة وعزما . وليقذف في قلوب الكفار رعبا وخوفا ، ودارت الدائرة على الكفار وانتصر المسلمون انتصارا حاسما وقدر لهذه المعركة أن تكون حدا فاصلا يوقف تيار الهمجية من أن يجتاح العالم ويقضي على بقية معالم الحضارة وانطلق المماليك يتعقبون المغول حتى حدود العراق وأكملوا تحرير سواحل الشام من بقايا الصليبيين الذين تحالفوا مع المغول الكفرة ضد المسلمين ولا غرابة في ذلك ، فالكفر كله ملة واحدة وقديما قال اليهود لكفار مكة - عبدة الأوثان - إن دينكم خير من دين محمد «ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا» (النساء ٥١) .

ولم يلبث المغول أن تأثروا بالدين الإسلامي ودخلوا فيه وإن بقي الكثير منهم يحمل صورة مشوهة عن الإسلام ولكنهم مع الزمن ذابوا في المجتمع الإسلامي .

وبعد ذلك جاءت دفعة قوية للروح الإسلامية جددت للإسلام شبابه تمثلت هذه الدفعة في الأتراك العثمانيين الذين اعتنقوا الإسلام في مواطنهم في أواسط آسيا

وانتقلوا إلى آسيا الصغرى ومن هناك عبروا البوسفور إلى أوربا وحاصروا القسطنطينية على عهد «بايزيد الصاعقة» جد محمد الفاتح ولكن بايزيد الصاعقة ارتد عن أسوار القسطنطينية ليواجه التتار الذين هددوا مملكته في الشرق وهزموه في آسيا الصغرى ثم قام من بعده السلطان محمد الفاتح ففتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وتوغل في أوربا هو وأحفاده من بعده ثم تحول الأتراك العثمانيون إلى العالم الإسلامي فاحتلوا الشام ومصر والعراق وشبه الجزيرة العربية وليبيا والجزائر وأقاموا دولة عظيمة كانت أكبر دول الدنيا في زمانها . وكانت في صراع دائم في عدة جهات فمثلا كانت في صراع مع امبراطورية النمسا والمجر بعد أن احتلت اليونان ويوغسلافيا ورومانيا وبلغاريا وألبانيا وكذلك كانت في صراع مستمر مع روسيا القيصرية حتى أنها في إحدى السنين احتلت موسكو . وكذلك كانت في صراع دائم مع الدولة الصفوية الشيعية في الشرق في إيران هذا غير الثورات الداخلية التي كانت تقوم بها الشعوب الخاضعة لحكمها . ولعل هذا الانشغال في الحروب هو السبب الذي منع الأتراك من أن يمدوا يد العون لإخوانهم المسلمين في الأندلس حين طردهم الفرنجة وقضوا عليهم سنة ١٤٩٢م . ولكن في الواقع لا يمكن للإنسان أن يقبل عذرهم وقد كان لهم أقوى أسطول في البحر المتوسط . وبصفة الخلافة التي افترضوها لأنفسهم كان واجبا عليهم أن يحموا كل المسلمين في شتى بقاع الأرض .

لقد تميز الأتراك بعدة صفات حسنة أهمها :

(١) المقدرة العسكرية الفائقة فهم كما يسميهم المفكر الإسلامي أبو الحسن الندوي أعظم أمة عسكرية عرفها التاريخ ولعل من أهم إنجازاتهم العسكرية فتح القسطنطينية التي استعصت على قادة مسلمين عظام كمعاوية بن أبي سفيان وخلفاء بني أمية من بعده . وكذلك استعصت على الأتراك السلاجقة فيما بعد . وقد كانوا من أوائل الأمم التي استخدمت المدافع وطوروا كثيرا صناعة الأسلحة ويكفي أنهم كانوا يحاربون الدنيا كلها في وقت واحد ، روسيا والنمسا والمجر وفرنسا وبريطانيا والصفويين غير الثورات الداخلية .

(٢) تمسكهم الشديد بالدين وتعاليم الإسلام حتى أنه كادت تحدث ثورة على أحد

الخلفاء العثمانيين لأنه أراد أن يدخل تعديلا في قميص الجندي التركي بحيث يظهر فيه شكل من أشكال الصليب مما اضطر السلطان التركي على ترك الفكرة . وكذلك يدل على تدينهم عنايتهم بكتابة المصاحف حتى اشتهرت العبارة «إن القرآن نزل بالحجاز وقرىء بمصر وكتب بالأستانة» .

(٣) تمسكهم الشديد بالشرف والعرض وهو امتداد لتمسكهم بالإسلام والذي لا يزال سمة من سمات الأتراك في الغالب الذين لم يتأثروا بلوثة العلمانية التي جلبها مصطفى كمال أتاتورك .

(٤) حبهم لفعل الخير والصدقات الجارية فلا تكاد تمر بمكان كان لهم فيه وجود إلا وتجد آثارهم تدل عليهم منها الكثير في القدس وكذلك برك سليمان بجوار بيت لحم التي بناها السلطان سليمان القانوني ليشرب منها الحجاج الذاهبون إلى مكة .

ولكنهم وللأسف لم يكونوا أمة حضارية وهذه الظاهرة ترجع إلى سببين رئيسين :

أ - طبيعتهم كمقاتلين أشداء جاءوا من البداوة وغلبت هذه الصفة عليهم .

ب - انشغالهم المستمر بالحروب لم يتح لهم الفرصة لإرساء قواعد حضارية كما فعل المسلمون الأوائل .

ومهما يكن من أمر فقد حمى الأتراك الإسلام مدة أربعة قرون أو يزيد وكان الانتساب للإسلام وإلى دولة الخلافة في زمانهم يعني عزا لا يجارى ولا يزال إلى الآن في دول أوربا الشرقية كلمة تركي مرادفة لكلمة مسلم .

لقد كان المسلمون بلا تمييز يدخلون الجيش التركي ويصلون إلى أعلى الرتب فيه ويحاربون في شتى الجبهات وكم سمعنا كثيرا من أجدادنا وقد انخرطوا في الجيش التركي ولم تكن بينهم وبين الأتراك أي حواجز ، حتى جاءت العصور الأخيرة التي ضعفت فيها الدولة التركية وبدأت تدب فيها عوامل الانحلال وكان لضغط الدول الاستعمارية من الخارج وخاصة بريطانيا وفرنسا أثر كبير في إضعاف الدولة العثمانية على ضعفها .

وكان من عوامل ضعف الدولة التركية عوامل كثيرة أهمها :

أولا : سوء الإدارة وانغماس كثير من السلاطين في اللهو بعيدا عن التمسك بالإسلام .

ثانيا : مؤامرات النصارى واليهود المنتشرين في أنحاء الدولة العثمانية وبالذات في دول البلقان وفي سوريا وقد كان لهؤلاء علاقاتهم القوية مع الدول الاستعمارية باسم الإخوة في الدين ، فكانت قناصل الدول الأجنبية مثل روسيا وبريطانيا وفرنسا تعمل جاهدة على إثارة الثورات والفتن في التجمعات النصرانية التي تكون موالية لها في المذهب ويمدونها بالمال والسلاح والإعلام والضغط السياسي والإرساليات التبشيرية .

ثالثا : التخلف التكنولوجي حيث كانت أوربا تمر بمرحلة الثورة الصناعية وتطور وسائل القتال بينما الدولة التركية لا تواكب هذا التطور منشغلة بمشاكلها وقضاياها الداخلية .

رابعا : الجهل وضيق الأفق الذي كان منتشرا في جميع الأوساط وليس سياسة خاصة بالعرب كما يحاول بعض أدعياء القومية أن يصوروا أن سياسة التجهيل كانت خاصة بالعرب حتى لا يثوروا على الدولة العثمانية . فالواقع أن المسلمين لم يحسوا يوما أنهم كانوا تحت احتلال أجنبي وإنما كانت دولة الأتراك هي دولتهم وخليفة الأتراك هو خليفة المسلمين . له كل الولاء والاحترام وبالتالي كل ما يحصل لرعايا الدولة العثمانية من خير وشر منهم يتقاسمونه على السواء . وصحيح أيضا أن الاعتزاز بالإسلام والانتساب إليه كان موجودا وروح الجهاد موجودة إلى حد كبير ولكنها لم تأخذ أبعادها الحقيقة الكاملة في نفوس المسلمين في أواخر العصر التركي كما كانت في السابق بسبب هذا الجهل الذي وقف حائلا بين الناس وبين تذوق حلاوة الإيمان وحلاوة الجهاد في سبيل الله .

خامسا : كان من نتيجة الصراع مع الدول الاستعمارية أن استطاعت هذه الدول فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وروسيا اقتطاع أجزاء كبيرة من الدولة التركية ففرنسا أخذت الجزائر وتونس وبريطانيا مصر والسودان وإيطاليا ليبيا وروسيا أخذت أجزاء كبيرة من أرمينيا وكذا ساعدت دولا كثيرة في البلقان على طرد الأتراك .

ونتيجة لهذا الاستعمار بدأت الدول الاستعمارية حركة ثقافية استشراقية خطيرة ، درستها دراسة جيدة بعد أن طردت من سواحل الشام أيام الحروب الصليبية .

هذه الحملة الثقافية استهدفت النيل من عقيدة المسلمين وزحزحتهم عنها أو على الأقل سحب روح الجهاد منها وقد أخذت هذه الحملة أساليب شتى ذكرنا بعضها باختصار في فصل النصارى .

وكان من نتيجة هذه الحملة الثقافية أن أدت إلى ضعف الروح الإسلامية التي كانت السد المنيع في وجه الهجمات الاستعمارية ، هذه الروح التي كان يستنهضها الخليفة العثماني في السابق فيهب المسلمون في شتى بقاع الأرض للمشاركة في الجهاد والدفاع عن دولة الخلافة .

سادسا : انتشار فكرة القومية العربية وتغليب الرابطة القومية على رابطة الدين وهذه الفكرة لا تزال تؤثر تأثيرا سلبيا على قضايا المسلمين اليوم ولا عجب ففي ظل القومية العربية عششت الصهيونية وباضت وفرخت وطيرت . وقد كتب كثير من كتاب المسلمين عن القومية والغزو الفكري وكيف كانت القومية أداة من أدوات الاستعمار ومن أفضل الكتب في ذلك «القومية والغزو الفكري» تأليف محمد جلال كشك و «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» د. محمد محمد حسين .

لقد ظهرت فكرة القومية العربية أول ما ظهرت لدى الطوائف المسيحية في لبنان وسوريا بتشجيع من بريطانيا وفرنسا كبديل للرابطة الإسلامية التي كانت تربط المجتمع الإسلامي والذي كان المسيحيون لا يستطيعون بسط نفوذهم فيه نتيجة لتماسكه . حتى إذا تم لهم ما أرادوا وأبعدوا المسلمين عن دينهم وقع المسلمون فريسة الاستعمار ووجدنا أن النصارى في الشام هم أول من خان القومية العربية كما كانوا أول من اخترعوها وما مواقف حزب الكتائب والأحزاب المسيحية الأخرى في لبنان منا ببعيد . لقد انزلق الكثير من المفكرين المسلمين إلى مستنقع القومية ولكن تظل الحقيقة القائمة أن الذين بدأوا فكرتها هم النصارى . ولو جئنا نستقصي أساطين القومية ومفكريها لوجدنا الغالبية الساحقة من النصارى فمثلا كان من أول دعاتها النصراني إبراهيم اليازجي في قصيدته المشهورة التي يطالب فيها العرب بالثورة على الأتراك والتي يقول فيها :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طغا السيل حتى غاصت الركب

ومن دعاتهم الأوائل ناصيف اليازجي وبطرس البستاني وفي هذا العصر نجد من أبرز دعاتها قسطنطين زريق ، أنطون سعادة ، ميشيل عفلق ، جورج حبش ، جورج أنطونيوس ... إلخ .

ولنستمع إلى ما يقوله جورج أنطونيوس في كتابه «يقظة العرب» : «بدأت قصة الحركة القومية للعرب في بلاد الشام سنة ١٨٤٧ بانشاء جمعية أدبية قليلة الأعضاء في بيروت في ظل رعاية أمريكية» (١) .

ويقول أيضا : «كان من نتائج التسامح الذي تميز به حكم إبراهيم (٢) نتيجة لم تخطر على البال من قبل فقد فتح هذا التسامح الباب أمام البعثات التبشيرية الغربية وبذلك فتح مجال العمل لقوتين إحداهما فرنسية والأخرى أمريكية قدر لهما أن تحضنا البعث العربي وترعياه» (٣) .

ويقول الدكتور نبيه أمين فارس في تقديمه لكتاب «يقظة العرب» : «ونقر أيضا أن الداعين إلى البعث العربي في فكرة الجمعية الأدبية والعلمية (١٨٤٧ - ١٨٦٨) كانوا في الغالب من النصارى وأنهم لم يمثلوا سواد الشعب غير أنا مقتنعون بأنه لولا هذه الجمعيات الأدبية ولولا هذه القصائد الثورية لبقيت الفكرة القومية بعيدة عن العرب إلى حد كبير ، لقد غرس هؤلاء بذرة القومية الوطنية وبعثوا حركة مستوحاة من تاريخ العرب ومآثرهم تستهدف مثل القومية بدلا من المثل الدينية والطائفية وهكذا ابتدأت الحركة القومية العربية الحديثة ومن الخطأ أن تنكر الفكرة لأن سواد الشعب لم يعتنقها يوم نادى بها رواد القومية العربية وسرعان ما حمل لواءها عرب مسلمون سنين قبل ظهور الاتحاديين الأتراك» (٤) .

---

(١) عن كتاب «يقظة العرب» ص ٧١ .

(٢) يعني إبراهيم باشا ابن محمد علي .

(٣) كتاب يقظة العرب ص ٩٧ .

(٤) مقدمة كتاب يقظة العرب ص ١٦ .

وكان لتأثير هذه الدعوة من النصارى العرب مع الدعاية المركزة التي شنتها الدول الاستعمارية بريطانيا وفرنسا ضد الدولة التركية والتي لم تكن تخلو من بعض الحقائق ولكنها كانت تضخم العيوب وتشوه الإيجابيات ولم يكن الغرض منها إلا تنوير الرأي العام في البلاد العربية حتى تنتفض ضد الأتراك وبعدها يؤدردها الإنجليز والفرنسيون لقمة سائغة كما حصل في الحرب العالمية الأولى .

وكذلك كان لظهور الدعوات القومية في أوربا تأثير على عقول الكثير من أبناء الشرق المهزومين روحيا أمام تفوق الغرب مما أدى إلى انتشار الفكر القومي لدى العرب .

وكذلك كان لظهور الفكرة القومية التركية (الطورانية) لدى الأتراك ومحاولة استعلائهم على الأجناس الأخرى التي تكون الدولة العثمانية - والتي كانت بدورها سوى استعمارية من الغرب - كان لدعوات الطورانية رد فعل معاكس عند العرب فحين ألف الأتراك حزب «تركيا الفتاة» ألف العرب حزب «العربية الفتاة» مما أذكى نار العداوة والبغضاء بين العرب والأتراك وجعلهم ينسون رابطة الدين التي جمعتهم في خندق واحد قرون طويلة . وكان تتويج جهود أصحاب الفكرة الطورانية القضاء على الخلافة الإسلامية عمليا وخلع السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ ووصول حزب الاتحاد والترقي إلى السلطة الذي عمل على تتريك الدولة وفرض اللغة التركية على العرب واحتقار الجنس العربي مما زاد الطين بلة ومهد الطريق لدعاة القومية العربية لأن ينجحوا في تأليب الرأي العام في البلاد العربية ضد الأتراك وأن يتعاونوا مع الإنجليز بدون أن يشعروا بالحرج وبدون أن تحاسبهم أمتهم على خيانتهم .

سابعا : تأثير الجمعيات السرية وبالذات الماسونية في إفساد الروح الإسلامية لدى المثقفين من العرب والأتراك على السواء فقد انتشرت المحافل الماسونية في مصر وسوريا وتركيا انتشارا رهيبا خلال القرن التاسع عشر وكانت ذات أثر حاسم في خدمة الفكرة القومية والاحتلال الأجنبي والفكرة الصهيونية مجتمعة ولنقل على سبيل المثال لا الحصر :.

«ويرجع أول جهد منظم في حركة العرب القومية إلى سنة ١٨٧٥ أي قبل ارتقاء عبد الحميد العرش بسنتين حين ألف خمسة شبان من الذين درسوا في الكلية البروتستانتية السورية ببيروت جمعية سرية وكانوا جميعا نصارى ولكنهم أدركوا قيمة انضمام المسلمين والدروز إليهم فاستطاعوا أن يضموا إلى الجمعية نحو اثنين وعشرين شخصا ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية ويمثلون الصفوة المختارة المستنيرة في البلاد وكانت الماسونية قد دخلت بلاد الشام على صورتها التي عرفتها أوربا فاستطاع مؤسسو الجمعية السرية عن طريق أحد زملائهم أن يستميلوا إليهم المحفل الماسوني الذي كان قد أنشىء منذ عهد قريب ويشركوه في أعمالهم» (١).

ثم يتكلم جورج أنطونيوس عن أحد الزعماء المؤسسين لهذه الجمعية السرية والذي أخذ عنه معلوماته وهو الدكتور فارس نمر باشا الذي يقول عنه «واحد من أهم الرجال البارزين في العالم العربي ولد بجبل لبنان وهاجر إلى مصر سنة ١٨٨٣ وأقام بها منذ ذلك الحين وهو أحد مؤسسي «المقتطف» وهي مجلة علمية شهرية وأحد مؤسسي المقطم وهي صحيفة يومية وكلتاهما تصدران في القاهرة ولهما قراء كثيرون في البلاد التي يتحدث أهلها العربية» (٢).

ومن المعروف أن هاتين المجلتين كانتا تمثلان الاستعمار البريطاني في مصر تمثيلا كاملا ولا عجب في مدح جورج أنطونيوس لهما فهو أيضا من عملاء بريطانيا الذين اتخذوا من الفكرة القومية وسيلة لتحقيق مآربها . وبخصوص علاقة «المقطم» و«المقتطف» مع الاحتلال البريطاني يراجع كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ص ٦٢ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، وغيرها من الجزء الأول من الكتاب . ويقول د. محمد محمد حسين في كتابه السابق ص ٢٥٧ عن فارس نمر باشا «ومن المعروف أن فارس نمر باشا كان ماسونيا ومن مبادىء الماسونية الأساسية إلغاء العصبيات الدينية والوطنية حتى لا يبقى في العالم إلا العصبية اليهودية دينا» (راجع

---

(١) جورج أنطونيوس . يقظة العرب ص ١٤٩ .

(٢) المرجع السابق .

سلسل الماسونية لفاضل بك مكاريوس ص ٥٥ ومؤلفة من كبار الماسون وزوج أخت طلعت نمر باشا) . ويقول محمد محمد حسين في كتابه الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر عند الحديث عن ولي الدين يكن ، وأما ولي الدين يكن فقد ألجأه إلى الإنجليز تعصبه الشديد للسلطان عبد الحميد وحماية كرومر له مع من حماهم من أعضاء حزب «تركيا الفتاة» الفارين من عبد الحميد إلى مصر ، هذا إلى أنه أحد أعضاء حزب الاتحاد الذي كان يضم متفرنجي الترك والذي كان واقعا تحت سيطرة اليهودية العالمية عن طريق الماسون و(الدونمة) من يهود سلانيك المتسترين بالإسلام والمتظاهرين باعتناقه» (١) .

وعن يهود الدونمة يقول حاييم وايزمن في كتابه «التجربة والخطأ» . في القرن السابع عشر كان شبتاي زئيفي قائدا ناجحا من قادة العودة إلى فلسطين جمع جماهير من اليهود من شتى أنحاء العالم ووقفوا أمام أبواب استانبول وقدموا طلبات إلى السلطان التركي . شعر السلطان بالحرج التام من هذا الحشد وأرسل إلى طبيبه اليهودي الذي نصحه بالتالي : استدع القائد اليهودي وأخبره بأنك ستعطيه فلسطين بشرط أن يعتنق الإسلام . شبتاي قبل العرض وأصبح مسلما ، وكانت النتيجة أن انفضت عنه الجماهير التي كانت تؤيده والتي كانت تعد بمئات الألوف . ومن حركته لم يبق إلا مجموعة من اليهود الأتراك الذين سموا أنفسهم «الدونمة» المنحدرين من أصل أصحاب شبتاي زئيفي والذين تحولوا إلى المحمدية» (٢) .

يقول جورج أنطونيوس عن جمعية الاتحاد والترقي «وقد كانت جمعية الاتحاد والترقي خليطا من أجناس وأديان مختلفة وكانت الكثرة الغالبة فيها من الأتراك ويليهم اليهود وانتسب إليهم بعض الرعايا العثمانيين من الأجناس الأخرى» .

ويقول الدكتور محمد محمد حسين في كتابه السابق : (ويؤيد الشيخ مصطفى صبري فيما ذهب إليه كثير من المراجع مثل ارمسترونج في كتابه عن

---

(١) الاتجاهات الوطنية ص ١١٣ الجزء الأول .

(٢) التجربة والخطأ ، ص ٤٠٤ .

مصطفى كمال «الذئب الأغبر» فقدقرر أن الاتحاد والترقي كانت تعقد اجتماعاتها في بيوت اليهود المنتمين للجنسية الإيطالية والجمعيات الماسونية الإيطالية كما روى بعض الاتحاديين ومنهم فتحي صديق مصطفى كمال - كانوا منضمين للماسون وقد اقتبسوا أساليبهم في تنظيم جمعيتهم وقد كان وزير مالية الاتحاديين يهوديا «يافيد» ثم كان من طائفة الدونمة وهو جاويد كما كانت وزيرة المعارف في عهد الكماليين من أصل يهودي وهي (خالدة أديب) راجع الذئب الأغبر ص ١٩ ، ٣١ ، ٣٧ وراجع كذلك في صلة الاتحاديين باليهود كتاب جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٢٢١ - ٢٢٣ ، وكتاب حاضر العالم الإسلامي ١ هامش ١٥ ، وكتاب أعمدة الحكمة السبعة ص ٥٤ ، وراجع كلام مصطفى صبري عن خالدة أديب في كتابه موقفنا (النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة) هامش ١٥٧ .

والذي يبدو لي أن خلع عبد الحميد كان جزءا من مؤامرة اليهود لاغتصاب فلسطين ولم يكن ذلك ممكنا إلا بانحلال الامبراطورية العثمانية . وليس بين المؤامرة التي انتهت بسقوط عبد الحميد وبين صدور وعد بلفور إلا تسع سنوات وقد شوه اليهود سيرة عبد الحميد وشنعوا به وجازت فريتهم على المسلمين مع أن الرجل كان يقاوم النظم النيابية لأن الداعين إليها كانوا مجموعة من الملاحدة المتفرنجين المعارضين لسياسة عبد الحميد الإسلامية والواقعين في أحابيل الصهيونية العالمية وقد دفع اليهود إلى محاربة السلطان عبد الحميد أنه منع هجرتهم إلى فلسطين سنة ١٨٩١ ولم تفلح كل حيلهم ومن بينها تدخل بعض رؤساء الدول في حمله على تغيير رأيه) (١) .

مما سبق يتبين لنا الدور الذي لعبته الماسونية في خلخلة المجتمع الإسلامي في الدولة العثمانية وإشاعة الفرقة باسم القومية فهي وراء «تركيا الفتاة» و«الاتحاد والترقي» في تبنيها للقومية التركية الطورانية وهي وراء الجمعية السرية التي تبنت فكرة القومية العربية ، ووراء العربية الفتاة .

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر . الجزء الثاني هامش ٧٩ .

وقد عملت هذه الفرقة في تمزيق أشلاء الأمة الواحدة ، حتى كان وقوف العرب المأساوي إلى جانب أعداء الإسلام الإنجليز والفرنسيين ضد إخوانهم في الدين الأتراك ، حتى إذا حطموا الدولة التركية تنكرت لهم الدول الاستعمارية وخذلتهم شر خذلان .

لقد كان من نتيجة هذا الواقع المؤلم للدولة العثمانية والمؤامرة والدسائس الأجنبية والانتهازية وحب السلطة لدى بعض العرب أن قامت الثورة العربية الكبرى بزعامة الشريف حسين أمير مكة والتي قامت على هذا الثالوث المجرم .

أولا : الفكرة القومية مقابل وحدة الإسلام فدولة الخلافة مهما كانت سيئاتها ومهما حاول الشريف حسين ودعاة القومية إضفاء صفة الإسلامية على قوميتهم واستغلال اسم الخلافة العربية كطلاء كاذب - تظل نصرة دولة الخلافة واجبا على المسلمين .

ثانيا : الأطماع الشخصية في الملك والسلطان ولو على حساب كل القيم والمقدسات بحيث كان واضحا استعداد الشريف حسين وأولاده من بعده فيصل وعبد الله للمساومة على حقوق المسلمين في فلسطين وإعطائها لليهود مقابل الحصول على وعد بريطانيا لهم وماتفاقيات فيصل وايزمن - على أحسن التفسيرات لصالح فيصل - إلا شاهدا على ذلك . ففي هذا الاتفاق الذي وقعه فيصل مع وايزمن اشتراط حصول الدول العربية على استقلالها كشرط لتنفيذ الاتفاق اعتراف واضح من فيصل بالدولة اليهودية . يقول الاتفاق الذي وقع في يناير سنة ١٩١٩ :

(١) يجب أن يسود جميع علاقات الدول العربية وفلسطين أقصى النوايا الحسنة والتفاهم المخلص وللوصول إلى هذه الغاية يؤسس ويحتفظ بوكالات عربية ويهودية معتمدة حسب الأصول في كل منها .

(٢) تحدد بعد إتمام المشاورات لمؤتمر السلام مباشرة الحدود النهائية بين الدول العربية وفلسطين من قبل لجنة يتفق على تعيينها من قبل الطرفين المتعاقدين .

(٣) عند إنشاء دستور إدارة فلسطين تتخذ جميع الإجراءات التي من شأنها تقديم

أوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ في اليوم الثاني من نوفمبر سنة ١٩١٧ . (وعد بلفور) .

(٤) يجب أن تتخذ جميع الإجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين على مدى واسع والحث عليها بأقصى ما يمكن من السرعة والاستقرار للمهاجرين في الأرض عن طريق الإسكان الواسع والزراعة الكثيفة ولدى اتخاذ مثل هذه الإجراءات يجب أن تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين والمستأجرين العرب ويجب أن يساعدوا في سيرهم نحو التقدم الاقتصادي .

(٥) يجب أن يسن نظام أو قانون يمنع أن يتدخل بأي طريقة في ممارسة الحرية الدينية والقيام بالعبادات دون تمييز أو تفضيل ، ويجب ألا يطالب بشروط دينية لممارسة الحقوق المدنية والسياسية .

(٦) إن الأماكن الإسلامية المقدسة يجب أن توضع تحت رقابة المسلمين .

(٧) تقترح المنظمة الصهيونية أن ترسل إلى فلسطين لجنة من الخبراء لتقوم بدراسة الإمكانيات الاقتصادية في البلاد وأن تقدم تقريرا عن أحسن الوسائل للنهوض بها . وستضع المنظمةالصهيونية اللجنة المذكورة تحت تصرف الدول العربية بقصد دراسة الإمكانيات الاقتصادية في الدول العربية وأن تقدم تقريرا عن أحسن الوسائل للنهوض بها وستستخدم المنظمة الصهيونية أقصى جهودها لمساعدة الدول العربية لتزويدها بوسائل الاستثمار للموارد الطبيعية والإمكانيات الاقتصادية في البلاد .

(٨) يوافق الفريقان المتعاقدان أن يعملا بالاتفاق والتفاهم الكامل في جميع الأمور التي شملها هذا الاتفاق لدى مؤتمر الصلح .

(٩) كل نزاع يثار بين الطرفين المتنازعين يجب أن يحال إلى الحكومة البريطانية للتحكيم»

وقع في انجلترا في اليوم الثامن من شهر فبراير سنة ١٩١٩م .

** ترجمة تحفظات فيصل عن الإنجليزية :

يجب أن أوافق على المواد المذكورة أعلاه بشرط أن يحصل العرب على استقلالهم ، كما طلبت بمذكرتي المؤرخة في الرابع من شهر يناير سنة ١٩١٩م

المرسلة إلى وزارة خارجية بريطانيا العظمى ، ولكن إذا وقع أقل تعديل أو تحوير (يقصد بما يتعلق بالمطالب الواردة في المذكرة) فيجب ألا أكون عندها مقيدا بأي كلمةوردت في هذه الاتفاقية التي يجب اعتبارها ملغاة لا شأن ولا قيمة قانونية لها ، ويجب ألا أكون مسؤولا بأي طريقة مهما كانت .

توقيع	توقيع
فيصل بن الحسين	حاييم وايزمن

إن القارىء لهذه الاتفاقية يلاحظ رغم تحفظات فيصل المذيلة أنه على استعداد لاعتبار فلسطين لليهود ، وتحدث فعلا عن دول عربية وفلسطين وفريق يهودي وفريق عربي ، هذا الكلام في أوائل سنة ١٩١٩م حيث لم يكن لليهود إلا تواجدبسيط جدا في فلسطين مقابل أن تعطيه بريطانيا استقلال باقي الدول العربية تحت سلطته ولعل قائلا يقول : إنه من الاستقلال يستطيع أن يمنع إقامة الدولة اليهودية ، فنقول له : إنه كان عاجزا عن نيل هذا الاستقلال فكيف يكون قادرا على تحرير فلسطين . هذا مع الانتباه إلى أن فيصل بالأمس كان أسدا وبطلا فاتحا ضد الأتراك العثمانيين المسلمين بشهادة (اللورد اللنبي) حين طلب منه أن يوضح قيمة الثورة التي قام بها فيصل وأبوه ضد الأتراك في فتح بلاد الشام ، فقال اللينبي : «إنها كانت مهمة بالغة الأهمية» ومضى لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا يقول : «إنه على أساس من الرسالة التي تقدمت الإشارة إليها وضع الملك الشريف حسين كل إمكانياته في الميدان وهذا ما ساعدنا مساعدة ملموسة في إحراز النصر» .

هذا الأسد كان أرنبا وديعا في مواجهة بريطانيا وفرنسا ولم يفعل شيئا ذا قيمة في مواجهة الاحتلال الفرنسي الانجليزي لبلاد الشام وتهويد فلسطين وحين وضعه الإنجليز ملكا على العراق نسي شيئا اسمه القضية الفلسطينية والعربية وتاريخ أحفاد الشريف حسين لا يزال يصب في هذا التيار .

ثالثا : العمالة للأجنبي : والتي تمثلت بعلاقات الشريف حسين مع بريطانيا ومراسلاته مع هنري مكماهون وعلاقات دعاة القومية العربية في بلاد الشام مع القنصليات

الفرنسية والتي جعلت العربي يحارب جنبا إلى جنب مع الإنجليز الذين عجزوا عن دخول فلسطين بعد حملتين فاشلتين ، واستطاعوا دخولها فقط حين بدأ العرب بثورتهم المذكورة ودمروا خطوط مواصلات الجيش التركي وهربوا من صفوف هذا الجيش ، حتى أن جيوش الإنجليز الغزاة كانت تلاقى بأقواس النصر وكما قال «ليمون فون ساندرز» القائد الألماني المشارك مع الأتراك : (لقد كانت بريطانيا تقاتل في بلاد صديقة) .

* وفي أعقاب وعد بلفورحيث تخوف العرب من حلفهم مع بريطانيا تلقى الشريف حسين بعض التوضيحات من بريطانيا فأوعز إلى صحيفته الرسمية بنشر مقالة يدعو فيها السكان العرب في فلسطين ليتذكروا أن كتبهم المقدسة وتقاليدهم توصيهم بواجبات الضيافة والتسامح ، وبحثهم على أن يرحبوا باليهود إخوانا وأن يتعاونوا في سبيل الصالح المشترك ، ويبدو أن حسينا هو الذي كتب تلك المقالة بنفسه . ويعتبر الإنجليز هذه المقالة ليست ذات قيمة تاريخية فحسب بل من حيث أنها تعكس النزعة العربية العامة نحو اليهودية مثل ظهور الصهيونية السياسية على مسرح الأحداث .

** كان من نتيجة هذه الثورات النكدة أن خرج المسلمون الأتراك مهزومين في الحرب يحملون المرارة من إخوانهم العرب وقام مصطفى كمال وأعضاء الاتحاد والترقي بالإجهاز على الخلافة إجهازا تاما والتبري من الإسلام وكل ما يربطهم بالإسلام وقام المسلمون العرب في بلاد الشام ليواجهوا الدول الصليبية على حقيقتها وهي تتبنى وعد بلفور وتفرضه في عصبه الأمم وكان وضعهم جميعا باختصار :

- فقدان الخلافة (الأم الرؤوم) التي كانت تجمع المسلمين فلم يعد للمسلمين تواجد سياسي ولا قيادة سياسية .

- كان المسلمون في قمة الانحطاط الحضاري وكانت الهزيمة العسكرية والسياسية هي المظهر الأخير من مظاهر هذا الانحطاط .

- وكان هناك تيار قومي يرى الإصلاح والنهوض لا يتم إلا بالتمسك بالقومية والعلمانية وتقليد الغرب .

- وتيار آخر ينادي بالإسلام كحل للخروج من المأزق إلا أنه كان ضعيفا واهنا

ومضطرب الفكر بين محاولات تفسير الإسلام تفسيرا غربيا حتى يوافق متطلبات الحضارة الغربية وبين محاولات يائسة من بعض رجال الأزهر للوقوف في وجه التيار الغربي ولكن بأساليب ضعيفة .

- حتى قيض الله للعالم الإسلامي فيما بعد الداعية الإسلامي الكبير الإمام حسن البنا الذي بث في المسلمين روحا جديدة عندما أسس جماعة الإخوان المسلمين سنة ١٩٢٨ والتي قدر لها أن تلعب دورا خطيرا في نهضة الإسلام في العصر الحديث والتي سنتكلم عنها في أوانها .

*** هذه باختصار حال الأطراف المشاركة في القضية الفلسطينية قبل بداية الصراع في مطلع القرن العشرين ... وتوضح لنا بشكل واضح اختلال الميزان لصالح أعداء الإسلام . فبينما بلغ الصليبيون أوج قوتهم الحضارية والعسكرية ، كان اليهود قد أرسوا قواعد متينة لانبعاثهم وصحوتهم . وبينما شاركت القوى الإلحادية بقوة كما سنرى فيما بعد في دعم الفكرة الصهيونية ، نجد أن المسلمين كانوا في قاع المنحنى الحضاري في تاريخهم . فلم يحدث عبر التاريخ الإسلامي أن نكب المسلمون بزوال الخلافة كما نكبوا في مطلع القرن . ومن هذه المواقع السيئة للمسلمين والمواتية لأعدائهم بدأ الصراع وكان نتيجته حتمية في صالح أعداء الإسلام .

أما عن دوافع المسلمين للتمسك بفلسطين فهي :

أولا : إن فلسطين أرض إسلامية رفرف عليها الإسلام ثلاثة عشر قرنا منذ أن فتحت على زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكما يقول فقهاء الإسلام «فان غلب العدو على بلد من بلاد المسلمين أو ناحية من نواحيها ، فالجهاد فرض عين ، فتخرج المرأة والعبد بغير إذن الزوج والمولى ، وكذا يخرج الولد من غير إذن والده والمدين بغير إذن دائنه» (١) .

ففلسطين أرض إسلامية بتعاقب أجيال المسلمين عليها ، وواجب عليهم تخليصها مهما كلفهم ذلك من تضحيات ومن لم يعمل لتخليصها فهو آثم عند الله .

---

(١) نقلا عن رسالة الجهاد للإمام الشهيد حسن البنا .

ثانيا : أرض فلسطين هي مسرى الرسول صلى الله عليه وسلم ولعلها حكمة عظيمة ألا يخرج الرسول صلى الله عليه وسلم بعد البعثة خارج جزيرة العرب إلا إلى فلسطين . لقد كان من الممكن أن يعرج الله سبحانه وتعالى برسوله الكريم إلى السماء من مكة المكرمة مباشرة ، ولكن شاء الله أن يكون هذا الإسراء إلى بيت المقدس ، حتى يرتبط المسجد الأقصى وإلى الأبد بالمسجد الحرام «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير» (الإسراء ١) .

وهذا مما يجعل أرض فلسطين ذات مكانة خاصة بالنسبة للمسلمين جميعا .

ثالثا : أرض فلسطين هي قبلة المسلمين الأولى صلى إليها المسلمون سبعة عشر شهرا قبل أن تتحول إلى البيت الحرام فهي أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وفيها المسجد الأقصى أحد المساجد التي تشد إليها الرحال والصلاة فيه خير من خمسمائة صلاة فيما سواه من المساجد ما عدا المسجد الحرام والمسجد النبوي .

رابعا : إن أرض فلسطين مجبولة بدماء الشهداء من الأبطال المسلمين من الصحابة الفاتحين وعلى رأسهم قائد جيوش الإسلام أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ ابن جبل وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين وكذلك دماء المسلمين الذين حرروها من الصليبيين والتتار .

إن هذا يجعل لها رائحة زكية ومن الوفاء لدماء هؤلاء الأبطال ألا نفرط فيها أو نتنازل عنها ... وإلا فسيلعننا الله وسيلعننا التاريخ وسيلعننا اللاعنون . لقد استشهد بالطاعون فقط على أرض عمواس عشرون ألفا من الفاتحين سنة ١٧هـ غير الذين سقطوا في المعارك فأين نذهب بدماء الشهداء إن فرطنا في فلسطين .

خامسا : إن عمر بن الخطاب حين فتح فلسطين لم يقسم أرضها بين الفاتحين ولكن جعلها ملكا لذراري المسلمين يتوارثونها جيلا بعد جيل ولا يحق لملك ولا

الرحيم ولا حتى لشعب أو جيل من الأجيال أن يتنازل عنها لغير المسلمين لأنها ليست من حقه حتى يتنازل عنها وهي من حق المسلمين حتى تقوم الساعة وإذا لم يستطع هذا الزعيم أو هذا الشعب أو هذا الجيل تحريرها فيجب ألا يفرط فيها بقبول سيطرة الأعداء عليها حتى يأتي جيل من المسلمين الحقيقيين أصحاب الحق فيحررها ويعيد لها وجهها الإسلامي المشرق .

سادسا : ما أسلفنا عند حديثنا عن إبراهيم عليه السلام وأننا نحن الورثة الحقيقيون لإبراهيم : «إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين» (آل عمران ٦٨) .

سابعا : الوعد العام الكبير من الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالنصر والتمكين إذا هم تمسكوا بدينه سبحانه وتعالى «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقو» (النور ٥٥) .

إذن فالصراع قائم لا محالة بين المسلمين من جهة وبين أعداء الله المتربصين من يهود ونصارى وشيوعيين من جهة أخرى ... ووعد الله بالنصر للمؤمنين قائم لا محالة «ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز» .

الباب الثاني

طبيعة الصراع

الباب الثاني

طبيعة الصراع

من دراسة دوافع كل طرف من الأطراف المشاركة في الصراع يتبين لنا أن المعركة ليست من أجل مساحة من الأرض وإن كان الأرض ساحتها ، وليست من أجل الاستعمار وإن كان الاستعمار ظاهرا في بعض مراحلها فقد كلف استعمار بريطانيا فلسطين الدولة الإنجليزية اقتصاديا أكثر مما أخذت منها ، ولا تزال أموال اليهود تتدفق إلى اليوم من أنحاء العالم لتساعد اليهود في فلسطين ، فهم ماديا خاسرون إلى الآن على الأقل . وليس صراعا قوميا أو جنسيا فكم رأينا اليهودي العربي من فلسطين ومصر والعراق والمغرب واليمن يقف ليساعد الغزاة اليهود الأوربيين على أمثاله في القومية وهم العرب ولا يبالي بل نجد أشد الناس على المسلمين العرب هم اليهود العرب ومعسكر التطرف الإسرائيلي أغلبه من اليهود العرب . ومن قبلهم وقف النصارى العرب ليساعدوا الغزاة الصليبيين ضد المسلمين في الحروب الصليبية . وليس صراعا طبقيا كما يدعي الشيوعيون فمنذ أن قامت دولة إسرائيل يحكمها حزب العمل «الاشتراكي» إلا في فترة محدودة وقد رأينا كيف كان العمال اليهود «البروليتاريا» في الكيبوتسات - المزارع الجماعية القائمة على الاشتراكية والفكر الشيوعي - هم أول المقاتلين اليهود .

وليس صراعا بين واحة الديمقراطية في الشرق الأسط كما يدعي الأمريكان والغربيون وبين المتخلفين من العرب الذين يرفضون الرقي والتقدم الذي يقدمه لهم اليهود !! .

وكذلك ليس الصراع عسكريا فقط يتمثل في الاحتلال العسكري كما يتصوره الحكام العرب .

ولكنه صراع حضاري بكل معنى الكلمة وبكل ما تحمل كلمة الحضارة من معانٍ روحية وثقافية واجتماعية واقتصادية وعسكرية وسياسية .

ولكي نضع المسألة في إطارها الصحيح وندلل على ما قلناه نتخذ دراستنا للقرآن الكريم منهجا يقبله كل مؤمن لأنه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ثم نستقرىء أحداث التاريخ لكل من يستعمل عقله أو ألقى السمع وهو شهيد .

الفصل الأول

حقائق قرآنية

يقول الله تعالى عن اليهود والنصارى والمشركين : «ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق» (البقرة ١٠٩) .

ويقول تعالى : «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير» (البقرة ١٢٠) .

ويقول تعالى : «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين» (آل عمران ١٤٩) .

ويقول تعالى : «لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور» (آل عمران ١٨٠) .

وقال تعالى : «ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ، والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم» (البقرة ١٠٥) .

وقال تعالى : «ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون» (آل عمران ٦٩) .

وقال تعالى :«يا أهل الكتاب لم تصدو ن عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون» (آل عمران ٩٩) .

ويحدثنا القرآن عن التحالف غير المقدس بين اليهود والمشركين في عدائهم للإسلام فيقول : «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا» (النساء ٥١) .

ويقول تعالى : «لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما

كانوا يفعلون ، ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون» (المائدة ٧٨ - ٨٠) .

ويبين الله سبحانه أن هذا الصراع أزلي لا ينتهي وسيظل قائما فيقول : «ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين ، الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون» (البقرة ١٤٥ - ١٤٦) .

بل ويأمر المؤمنين أن يقاتلوا أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وتكون العزة دائما للإسلام «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» (التوبة ٢٩) .

من دراسة الآيات القرآنية السابقة الذكر وتحليلها تتبين الحقائق التالية :

الحقيقة الأولى :

إن الصراع بيننا وبين اليهود والنصارى والمشركين صراع أزلي وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، إنه الصراع الحتمي بين الحق والباطل ، الحق في صورته الوحيدة التي أنزلها الله في كتابه وهو الإسلام والباطل وهو كل ما عدا الإسلام من أديان كانت حقيقية وزيفها أصحابها أو الشرك الذي لا يؤمن بدين أصلا . هذا الصراع لا يمكن أن ينتهي إلا بزوال أحد الطرفين . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرنا أن أمته لن تزول في الحديث المتواتر «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» (١) .

إذن فالصراع قائم طالما أن هناك باطلا فقد تكفل الله سبحانه وتعالى أن يوجد الحق في كل زمان ، ويتضح هذا أيضا من قوله تعالى في سورة الإسراء بعد أن يتعرض للإفساد اليهودي في الأرض مرتين ، وكيف أنه يسوق عبادا له ليذلوهم ثم إنه

---

(١) رواه مسلم وألفاظه متواترة .

تعهد بعد ذلك بأن جعلها سنة في خلقه «وإن عدتم عدنا» إنها سنة ماضية إلى يوم القيامة وكذلك تتضح هذه الحقيقة في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وبشارته لنا «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي تعال فاقتله إلا الغرقد فانه من شجر اليهود» (١).

الحقيقة الثانية :

إن هذا الصراع غايته رد المسلمين عن دينهم مهما رفعت الرايات المضللة التي يرفعها أعداء ويضعونها علما على الصراع ولكن في الحقيقة «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا».

والناظر اليوم في كل بلاد الإسلام يجد حربا على الإسلام بلا هوادة إما باحتلال عسكري أو غزو فكري وثقافي أو إفساد أخلاقي أو امتصاص اقتصادي تؤكد هذه الحقيقة القرآنية.

الحقيقة الثالثة :

إن الكفر ملة واحدة فنرى اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض بل إن اليهود ذهبوا شوطا بعيدا أبعد من ذلك حين ذهبوا يستنجدون بكفار مكة لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم كفار مكة : من خير ديننا أم دين محمد ؟ دين الأوثان أم دين التوحيد ؟ فقالوا كاذبين مجرمين : بل دينكم خير من دينه ، «ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين أمنوا سبيلا» فلا نستغرب تجمع المتناقضات ضد الإسلام والمسلمين فهؤلاء اليهود الموحدون بزعمهم يقولون لعبدة الأوثان إن دينهم خير من دين محمد صلى الله عليه وسلم ، ولذلك يجب أن نتوقع تحالف اليهود مع النصارى مع الشيوعيين بل وربما مع النازيين ضد الإسلام.

---

(١) رواه مسلم.

الحقيقة الرابعة :

هي أن أعداء الله على جميع أشكالهم لا يضمرون للمسلمين أي خير مهما غلفوا حركاتهم الخبيثة بأعماله البر والإحسان والنفع الاقتصادي ، فالهدف الحقيقي منها هو تدمير المسلمين في النهاية . كيف يريدون لنا الخير والله يقول لنا : «ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم» . فكل الدعاوى التي ينادي بها أصحابها في تطوير المنطقة وإحلال السلام كلها أكاذيب وخداع بل كل الهدف منها هو تثبيت اليهود في المنطقة وإعطاؤهم الشرعية لوجودهم .

الحقيقة الخامسة :

هي أنه من يطع أعداء الله من اليهود والنصارى والمشركين ويتولهم فهو إما كافر مثلهم أو مرتد أو خاسر «ومن يتولهم منكم فانه منهم» «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين» ولذلك فأي تعاون معهم أو تهاون أو تنسيق أو خضوع هو نوع من الخيانة لله ولرسوله وللمؤمنين أو ردة عن دين الله .

إن اليهود لم يتمكنوا أن يقيموا دولتهم في هذه البلاد إلا بوجود أمثال هؤلاء الخونة المرتدين الذين ساعدوهم وساعدوا بريطانيا كثيرا في السابق ولا يزالون ولذلك يجب ألا تأخذ المسلمين بأمثال هؤلاء رحمة ولا رأفة في دين الله .

الحقيقة السادسة :

إن اليهود والنصارى والمشركين لا يرقبون فينا إلا ولا ذمة وإنهم حين يكونون متفوقين فانهم يسوموننا سوء العذاب ، فلا معنى لوجود المسلمين كأقلية في دولة يهودية بحال من الأحوال «كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون» (التوبة ٨) .. «لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم الخاسرون» (التوبة ١٠) . هذا بالإضافة إلى أن الله سبحانه جعل المسلمين هم الأعز وطالبهم بالجهاد في سبيل الله حتى لا تكون فتنة

ويكون الدين لله وقد تكفل لهم إن هم كانوا على الإيمان أن ينصرهم دائما «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا» . فكيف نأمن لهم وهم في كل يوم يسقطون أبناءنا في الفتنة ، يردوهم عن دينهم ويوقعونهم في حبائل الجنس والتجسس والعمالة حتى أن هناك من بدل دينه كليا واعتنق اليهودية ، وكل الحوادث التاريخية تدلنا على المذابح التي قاموا بها وهي أكثر من أن تحصر دير ياسين ، كفر قاسم ، قبية ، تل الزعتر ، صبرا وشاتيلا ، القصف العشوائي بالطيران لمخيمات اللاجئين ، القمع في الضفة والقطاع إلخ إلخ .

الحقيقة السابعة :

إن أعداء الله مهما انتفشوا أو كبروا لا تساوي قوتهم شيئا إذا كنا مسلحين بالإيمان «لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون» (آل عمران ١١١) ، «ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا» (الفتح ٢٢) ، «وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك سريع الحساب وإنه لغفور رحيم» (الأعراف ١٦٧) ، «لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون» (الحشر ١٤) ، «ضربت عليهم الذلة والمسكنة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم الذلة والمسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» (آل عمران ١١٢) ، «وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا ، والله لا يحب المفسدين» (المائدة ٦٤) . وغير ذلك من الآيات كثير والمهم أن تتحقق بشرط الإيمان حتى نأخذ هذه الدعوة عن جدارة واستحقاق .

الحقيقة الثامنة :

إن القدس هي محور احتكاك بين أتباع الديانات الثلاث وعلى ذلك ستظل إلى الأبد محور الصراع ونقطة التماس كما كانت في الماضي ، فالحروب الصليبية لم تكن الأولى

ولن تكون الأخيرة ، ومحاولات اليهود للعودة إلى القدس لم تكن الأولى فقد سبق ذلك محاولات بعد كل مرة دمر فيها الهيكل ، وكذلك المسلمون لن يسلموا بحال من الأحوال أن تكون القدس في أيد غير إسلامية ولذلك فان منطق القوة وحده هو الذي يقرر مصير المدينة وليس عند أحد استعداد للتنازل عن معتقداته أو ادعاءاته في القدس .

يقول نيكولاس بيتل في كتابه «المثلث الفلسطيني» : «إن مشكلة فلسطين وإسرائيل تشحذ (تزداد حدة) بالتاريخ فقط ولكن بشدة العاطفة التي تشحذها الأرض المقدسة في مئات الملايين من الناس يهودا أو مسلمين أو مسيحيين . عدة حروب قامت من أجل السيطرة على حائط المبكى وقبة الصخرة وكنيسة القيامة ، وكذلك كان تأثير الدين على القادة السياسيين كبير . فتعظيم المدينة كان يعني الكثير بالنسبة لأتباع الديانات الثلاث . وحتى الأمم المحاربة من أجل الغنيمة والسيطرة كانت مدفوعة بدافع ديني» . *The Palestinian Triangle* ص ١١ .

هذا بالنسبة للحقائق القرآنية والتي تكفي أن تكون بحد ذاتها دليلا لدى المؤمنين تحدد لهم طبيعة الصراع وتنير لهم الطريق في جهادهم ضد أعداء الله .

الفصل الثاني

حقائق تاريخية

لقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم فوقف منه اليهود والنصارى موقفا عدائيا من أول لحظة على الرغم من أن كتبهم السابقة كانت توصيهم بأن يتبعوا الرسول وينصروه «وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين» (الصف ٦).

وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين» (آل عمران ٨١).

بل إنهم كانوا ينتظرون قدوم هذا النبي بفارغ الصبر حتى يثأروا من مشركي العرب الذين كانوا يضطهدونهم ففي كل مرة كان يظهر عليهم فيها المشركون كانوا يستفتحون عليهم .. يقول ابن إسحاق في قصة إسلام الأنصار : «حدثني عاصم بن عمر عن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا : لما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال : أمن موالي يهود ؟ قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلى عليهم القرآن . قال ومما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود معهم في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل الشرك وأصحاب أوثان وكانوا قد غزوهم في بلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض يا قوم والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوا وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ... إلخ" (١) وقد خلد الله سبحانه وتعالى ظاهرة تخلي اليهود عن

---

(١) سيرة ابن هشام الجزء الثاني ص ٧٠.

الرسول في القرآن الكريم فقال : «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفورا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بئسما شروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين» (البقرة ٨٩ - ٩١) .

وهكذا حين كذبوا رسول الله لما رأوا أنه ليس يهوديا وسبقهم الأنصار إلى الإيمان ، وجدناهم يقفون من الدين الجديد موقف العداء السافر ولكنهم حين فوجئوا بكثرة المؤمنين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم لجأوا إلى مختلف الأساليب للصد عن الدين الجديد . فتارة يحاولون تعجيز الرسول صلى الله عليه وسلم بأسئلة يتوقعون أن تكون محرجة له فيثبت بزعمهم أنه ليس بنبي ولكن الله رد كيدهم في نحورهم وكان في كل مرة ينصر رسوله ويجيب على أسئلتهم بوضوح يعجزهم ولكنهم في كل مرة لا يؤمنون . وقصص السيرة مليئة بالقصص التي جاءوا فيها يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسجلها القرآن نذكر منها على سبيل المثال :

١- يقول الإمام مسلم في صحيحه : حدثنا إسحق بن علي الحلواني حدثنا أبو توبة (وهو الربيع بن نافع) حدثنا معاوية (يعني ابن اسلام) عن زيد (يعني أخاه) أنه سمع أبا سلام قال حدثني أبو أسماء الرحبي أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثه قال : كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها ، فقال : لم تدفعني ، فقلت : ألا تقول يا رسول الله ؟ فقال اليهودي : إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي .. فقال اليهودي : جئت أسألك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أينفعك شيء إن حدثتك ، قال : أسمع بأذني . فنكت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعود معه ، فقال : سل . فقال اليهودي : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم في الظلمة دون الجسر . قال : فمن أول الناس إجازة : قال : فقراء المهاجرين . قال اليهودي : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة . قال : زيادة كبد النون . قال : فما غذاؤهم على أثرها . قال : ينحر لهم

ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها . قال فما شرابهم عليه . قال : من عين فيها تسمى سلسبيلا ، قال : صدقت . قال : وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان . قال : ينفعك إن حدثتك . قال : أسمع بأذني . قال : جئت أسألك عن الولد . قال : ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فاذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكرا باذن الله وإذا علا مني المرأة مني الرجل أنثا باذن الله . قال اليهودي : لقد صدقت وإنك لنبي . ثم انصرف فذهب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه ومالي علم بشيء منه حتى أتاني الله به» (١) .

هكذا كان موقف هذا الحبر بعد أن عرف الحق أعرض ، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف فذهب إلا أنه لم يتابع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا يعتبر من ألطف اليهود إذا ما قيس بالآخرين .

بل كان كثير منهم يذهبون إلى الكفار ويلقنونهم أسئلة يسألونها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليثبتوا بزعمهم أنه ليس نبيا . وفي كل مرة يرد الله كيدهم إلى نحورهم ، وخير مثال على ذلك حين جاءوا إلى المشركين وقالوا لهم اسألوه عن فتية ذهبوا ولم يعودوا وعن رجل ذرع الأرض من مغربها إلى مشرقها وعن الروح فأجاب الله عنه بما ورد في سورتي الكهف والإسراء . والقصة معروفة . ولعل في قصة عبد الله بن سلام كما حدث بعض أهله عنه وعن إسلامه حينما أسلم وكان حبرا عالما . قال : لما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكف له ، فكنت مسرا لذلك ، صامتا عليه ، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه ، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها ، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة ، فلما سمعت الخبر لقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري خيبك الله والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما ما زدت .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي - الجزء الثالث ص ٢٢٧ باب الغسل .

قال فقلت لها أي عمة ، هو والله أخو موسى بن عمران هوعلى دينه بعث بما بعث به . قال فقالت أي ابن أخي أهو النبي الذي كنا نخبر أن سيبعث مع نفس الساعة . قال : قلت لها نعم . قال فقالت انزل إذن . قال ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا ، قال وكتمت إسلامي على يهود ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له يا رسول الله إن يهود قوم بهت وإني أحب أن تدخلني في بعض بيتك وتغيبني عنهم ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا باسلامي فانهم إن علموا بي بهتوني وعابوني . قال فأدخلني رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا عليه فسألوه ثم قال لهم كيف ابن سلام فيكم ، قالوا سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وابن حبرنا وعالمنا . قال فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم وقلت لهم يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة باسمه وصفته فاني أشهد أنه رسول الله (١) .

٢- حاول اليهود إثارة البلبلة حول الفكرة الإسلامية بأن بعثوا مجموعة منهم تؤمن برسول الله أول النهار (ظاهرا) ثم تكذبه في آخر النهار حتى يقتنع الكفار الذين لم يؤمنوا بعد وفي طريقهم إلى الإسلام بأن هذا ليس بنبي ، ولو كان نبيا لما ارتد هؤلاء وثبتوا على دينه . يقول تعالى : «وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم به عند ربكم ، قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم» (آل عمران ٧٢ - ٧٣) .

٣- حاولوا التشكيل في الملك الذي أرسله الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم حين أتى لهم بكل الأدلة على أنه نبي مرسل من عند الله ، وعندما لم يجدوا وسيلة للإنكار قالوا : أخبرنا عن الملك الذي يأتيك ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو جبريل . قالوا : هو عدونا من الملائكة ولو كان ميكائيل لاتبعناك . وإنما هي وسيلة خسيسة للهروب من الحق الواضح كغرة النهار ، والأدلة الدامغة التي لا تقاوم فعاب

---

(١) سيرة ابن هشام الجزء الثاني إسلام عبد الله بن سلام .

عليهم القرآن هذا التصور الذميم «قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ، من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين» (البقرة ٩٧ - ٩٨) .

٤- حاولوا الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم كلما استطاعوا ، علنا إن رأوا من أنفسهم قوة وسرا إن خشوا مغبة ذلك .. ومن قصصهم في ذلك أنهم حين يخاطبون رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون له «راعنا» وهي تحمل معنيين معنى انتبه لنا واسمعنا والآخر فيه تعريض بالرعونة ولذلك قال الله تعالى مخاطبا المسلمين أن يخاطبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم باللفظ الجميل الذي لا يحتمل إلا معنى واحدا : «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم» (البقرة ١٠٤) .

وكذلك حين كانوا يخاطبون الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين يقولون (السام عليكم) بدلا من السلام عليكم . والسام تعني الهلاك .. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لهم وعليكم .. ولم يكن يرد عليهم السلام .

٥- حاولوا الطعن في حقائق الدين الإسلامي والتي توضح تحريفهم لكتاب الله وتعارض تصورهم المشوه لحقيقة الألوهية فتارة يقولون إن الله فقير وهم أغنياء كما قال (١) (فنحاص) لأبي بكر رضي الله عنه حين قال له أبو بكر ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله وقد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل فقال فنحاص لأبي بكر والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغني ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا ، كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا .

قال فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا وقال والذي نفسي بيده ، لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك ، أي عدو الله . قال فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد انظر ما صنع بي صاحبك ، فقال رسول

---

(١) سيرة ابن هشام .

الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر ما حملك على ما صنعت ؟ فقال أبو بكر يا رسول الله إن عدو الله قال قولا عظيما ، إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء فلما قال ذلك غضبت لله مما قال وضربت وجهه .

فجحد ذلك فنحاص وقال ما قلت ذلك . فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص ردا عليه وتصديقا لأبي بكر «لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق» (آل عمران ١٨١) . وكذلك قولهم ان العزير ابن الله وسؤالهم من خلق الله وإنكارهم نبوات الأنبياء وادعاؤهم الضعف والتعب على الله إلى غير ذلك من أباطيلهم ، وحين اتهموا الله سبحانه بأنه بخيل تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، ففضحهم الله وتوعدهم «وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا» (١) .

وحين تحول المسلمون عن قبلة بيت المقدس إلى البيت الحرام بدأ اليهود يطعنون في دين الله ويقولون «ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها» أي أن دينهم غير صحيح ولو كان صحيحا ما بدلوا فيه وغيروا ، فأنزل الله تعالى «سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم» (البقرة ١٤٢) .

بل إنهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتبعهم فقالو له ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتدي ، وقالت النصارى مثل ذلك . فقال الله تعالى «وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» (البقرة ١٣٥) .

٦- حاولوا الإيقاع بين المسلمين وإثارة النعرات الجاهلية . قال ابن إسحاق : «مرّ شاس بن قيس - وكان شيخا قد طعن في السن عظيم الكفر شديد البغض للمسلمين شديد الحسد لهم على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه وغاظه ما رآه من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال قد اجتمع بنو قيلة «الأوس والخزرج» بهذه البلاد ولا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من

قرار . فأمر فتى شابا من يهود كان معهم فقال اعمد إليهم فاجلس ثم اذكر يوم بعاث - معركة كانت بين الأوس والخزرج في الجاهلية قتل فيه الكثير من الطرفين وانتصر فيها الأوس - ففعل فتكلم القوم في ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب أوس بن قيظي من بني الحارث من الأوس وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه إن شئتم رددناها الآن جذعة» أي رددنا الأمر إلى أوله . فغضب الفريقان جميعا وقالوا قد فعلنا موعدكم الظاهرة (اسم مكان) السلاح السلاح . فخرجوا إليها فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم من الكفر وألف بين قلوبكم فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ثم انصرفوا على رسول الله سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس . فأنزل الله تعالى في شاس بن قيس وما صنع «قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون» (آل عمران ٩٨ - ٩٩) .

وأنزل الله في أوس بن قيظي وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شاس من أمر الجاهلية «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ....» (آل عمران ١٠٠ - ١٠٥) إلى آخر الآيات .

٧- كان اليهود يؤوون المنافقين الذي يلوذون باليهود ويدبرون معهم المكائد للإسلام والمسلمين «طابور خامس» وقد سمى ابن إسحق في سيرته الكثير من المنافقين الذين كانوا يلوذون باليهود ومن أشهرهم رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول ، فكان هؤلاء المنافقون يحضرون مجلس الكيد مع اليهود ويتعلمون منهم الرد على القرآن ويحاولون تخذيل المسلمين عن الرسول صلى الله عليه وسلم فنهى القرآن

عن موالاة اليهود واعتبر موالاتهم ردة عن الإسلام ونفاقا يوجب الطرد من رحمة الله . قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين» (المائدة ٨٧) .

٨- نقضهم العهود التي قطعوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يتناصروا مع المسلمين ولا يعتدوا عليهم ولا يعينوا معتديا على المسلمين . ونقضت هذه القبائل جميعها الواحدة تلو الأخرى عهودها ومواثيقها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم أنها كانت ما يحل بالقبيلة التي قبلها من الخسران حين غدرت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس ذلك غريبا على طباعهم وقد قال الله فيهم «أوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون» (البقرة ١٠٠) .

٩- محاولة اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك حين أراد بنو النضير أن يلقوا الرحى (الطاحونة) على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعلى الجدار وهو جالس بجوار أحد جدرانهم ، وقد أنبأه الله بكيدهم فخرج إلى أصحابه ثم استنفرهم وشرد بني النضير من المدينة . وكذلك حين وضعت يهودية من خيبر السم في شاة كانت قد شوتها لرسول الله صلى الله وزادت السم في الذراع لأنها سألت وعلمت أن أحب شيء إلى رسول الله الذراع وقدمته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل منه نهشة ثم أخبره الذراع أنه مسموم فلفظ الرسول اللقمة وشفي من السم واستشهد أحد الصحابة ممن أكلوا معه . وحين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما زلت أجد أثر الأكلة التي أكلتها بخيبر ولقد جاء أوان انقطاع أبهري .

١٠- تأليبهم المشركين على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذهب حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق من بني النضير إلى كفار مكة واستعدوهم على رسول الله واستنفروهم لحربه حتى قال المشركون ، لن نمضي معكم حتى تجيبونا أدين محمد خير أم ديننا فقال اليهود بل دينكم خير من دينه فأنزل الله فيهم «ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا» (النساء ٥٠) وجمعوا الجموع وجاءوا يغزون المدينة في وقعة الأحزاب .

هذا غيض من فيض من كيد اليهود للإسلام والمسلمين والذي امتد على كل الساحات وكل السبل في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته حتى إذا لم

يجد اليهود بدا ولم يستطيعوا مواجهة المسلمين بالقوة بدأوا يحيكون المؤامرات للإطاحة بالنظام الإسلامي وإثارة الفتنة بين المسلمين وما قصة عبد الله بن سبأ «ابن السوداء» وإثارته أول فتنة وأخطرها في تاريخ المسلمين والتي انتهت بقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ، وزرعت فتنة لا تزال قائمة آثارها إلى اليوم . وكذلك محاولاتهم تسميم التراث الإسلامي واختلاقهم الأحاديث المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

** وفي العصور الوسطى نجد اليهود والنصارى شركاء في عدائهم للإسلام وبشتى الأساليب .. ففي الحروب الصليبية التي قامت للقضاء على الإسلام في الشرق - ولم يكن المقصود فقط بيت المقدس - فقد حاول «أرناط» وهو حاكم منطقة الكرك في الأردن ، حاول الوصول إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة للاستيلاء عليهما وقتل الحجاج إلى بيت الله الحرام وقطع عليهم الطريق ولذلك أقسم صلاح الدين الأيوبي إن ظهر به أن يقتله بيده وقد وقع أسيرا في حطين فقتله صلاح الدين بنفسه .

في نفس هذه الحروب الصليبية كان اليهود يوفرون القروض والدعم المالي للحملات الصليبية وقد كان الصليبي يقترض المال في أوربا من اليهود على أن يسده من الغنائم في الشرق ويعطي لليهود الموجودين في الشام وهم شركاء وعملاء لليهود في الغرب .

** وكذلك حين غزا التتار بلاد الشام تعاون معهم بقايا الصليبيين في الشام ضد المسلمين مما دعا المماليك بعد انتصارهم على التتار أن يطبقوا على الصليبيين ويخرجو هم نهائيا من الشام .

وفي العصر الحديث نجد أن الحرب على الإسلام أخذت أشكالا أوسع ومجالات متعددة توازي في طبيعتها تلك التي حصلت في عصر النبوة مع الفارق في الوسائل والأدوات فقد تعاون اليهود والنصارى والمشركون ضد الإسلام في حرب شاملة لاجتثاثه من جذوره .

ونذكر هنا بعض أشكال الهجوم الاستعماري :

أولا : الغزو العسكري :

ويتمثل في احتلال الغرب الصليبي لكل بلاد الإسلام ما عدا الجزيرة العربية واحتلال اليهود قلب العالم الإسلامي ، وقد تم هذا الغزو على مراحل وفي أوقات وأماكن مختلفة ومن قبل دول متعددة مثل بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا والبرتغال وأسبانيا إيطاليا . وقد غلف هذا الاحتلال بالطابع الاستعماري كوسيلة للتمويه .. ونحن لا ننكر الدافع الاستعماري من وراء هذا الاحتلال ولكن الدافع الديني كان عميقا جدا في نفوس الصليبيين وكما يقول سيد قطب رحمه الله : لم تكن الروح الصليبية ستارا للاستعمار بل كان الاستعمار الحديث ستارا للروح الصليبية . وخير دليل على ذلك كلمات الجنرال البريطاني اللنبي حين دخل القدس في ديسمبر سنة ١٩١٧ : «الآن انتهت الحروب الصليبية» ، وقال الجنرال الفرنسي «غورو» حين دخل دمشق وشاهد قبر صلاح الدين : «ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين» .

* وإليك هذا النشيد الطلياني الذي كان ينشده الشباب الإيطاليون الذاهبون إلى الحرب في ليبيا :

من أعظم الآلام لشاب في العشرين من عمره ألا يحارب في سبيل وطنه

مع دوام القتال في طرابلس

والراية المثلثة الألوان .

والموسيقى الحربية

تنبهان النفس المقدامة

يا أماه أتمي صلاتك ولا تبكي بل اضحكي وتأملي .

ألا تعلمين أن إيطاليا تدعوني وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا .

الموسيقى تدعوني .

لأبذل روحي في سبيل سحق الأمة الملعونة

لأحارب الديانة الإسلامية التي تجيز البنات الأبكار للسلطان .

سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن .

ليس بأهل للمجد من لم يمت لإيطاليا حقا .

تحمسي أيتها الوالدة لذكرى «كاروني» .
التي جادت بأولادها في سبيل وطنها .
يا أماه أنا مسافر
ألا تعلمين أن على الأمواج الزرقاء والصافية من بحرنا
ستلقى سفائننا المراسي .
أنا ذاهب إلى طرابلس مسرورا لأن رايتنا المثلثة الألوان
التي تدعوني لأن يكون ذلك القطر تحت ظلها .
لا تموتي لأننا في طريق الحياة .
وإنا أرجع فلا تبكي على ولدك
ولكن اذهبي في كل مساء وزوري المقبرة .
ونسائم الأصيل تحمل إلى طرابلس وداعك الذي أتي .
الحداد على قتل فلذة كبدك .
وإن سألك أحد عن عدم حدادك علي فأجيبيه
إنه مات في محاربة الإسلام
الطبل يقرع يا أماه ، أنا ذاهب أيضا .
لا تسمعي إلى هرج الحرب دعيني أعانقك وأذهب» (١) .

ثانيا : الغزو الفكري :

وقد امتد على مساحة عريضة ولا يقل خطورة عن الغزو العسكري وقد تنبهت له أوربا بعد أن درست لماذا فشلت الحملات الصليبية ووجدت أن الروح الإسلامية من الممكن أن تتجدد ولذلك نظمت الحملات الاستعمارية الحديثة حملة موازية من الغزو الفكري بشكل مخطط ومبرمج ، وكان الهدف الرئيسي هو إبعاد المسلمين عن روح الإسلام الحقيقية وقد تحدثنا في السابق عن مراحل الغزو الفكري ونتكلم الآن عن ساحاته .

---

(١) نقلا عن كتاب لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم لشكيب أرسلان ص ٥٢ .

١- ترويج أفكار غير إسلامية لها طابع براق بحيث تكون بديلا عن الفكر الإسلامي الصحيح بحجة التجديد والتطور والنهضة والتقدم وما إلى ذلك من المسميات .

ولذلك وجدنا أفكار العلمانية والشيوعية والوجودية والعبثية والإلحاد تجد لها سوقا رائجة في مجتمعنا حتى بعد أن فقدت قيمتها في بلاد الغرب نفسه . وهذا من شأنه أن يفرق الأمة في تيارات من الثقافات المتعارضة المتضاربة ويجعل شبابها ينهك قواه في الصراعات الداخلية والنقاشات البيزنطية وتصرفه صرفا حقيقيا عن ثقافته الأصيلة .

٢- الإيحاء بأن الإسلام مرحلة وانقضت في تاريخ العرب لا مجال لإعادتها وأنه قد استنفد أغراضه وأنه صالح لبيئة الجمال والصحراء ولا يصلح لحكم الدولة في القرن العشرين ، وأن المناداة بالإسلام هي ضرب من الرجعية تضاد وسائل التقدم والحضارة .

٣- توجيه التهم ضد الإسلام والأفكار الإسلامية وإشغال المفكرين الإسلاميين بالرد على الشبهات بعيدا عن اشتغالهم بالبناء وبانشاء جيل مسلم بحيث يظل هؤلاء المفكرون محاصرين في مواقع دفاعية لا يتقدمون ليأخذوا الراية ويسيروا بالأمة إلى عزة الإسلام .

٤- إضعاف اللغة العربية وإشاعة اللهجات العامية بحيث يصير فهم القرآن والسنة نوعا من المستحيل بالنسبة للشباب الجدد الذين تربوا بعيدا عن اللغة العربية كلغة أم كتركيا وإيران وباكستان وأندونيسيا وغيرها . حتى أن أكثر الدول تأثرا بالهجوم الاستعماري هي تركيا التي ألغت الحروف العربية بل إن أشهر خطاطي الأمة الإسلامية كانوا من الأتراك . وحين تخلى الأتراك عن الكتابة بالعربية أصبح من العسير عليهم قراءة القرآن ومن باب أولى فهمه .

٥- محاربة الكتاتيب والتي كانت الموقع الأخير من مواقع القرآن والتي كان يتعلم فيها الصبية القرآن قبل دخولهم المدارس ، وقد حوربت الكتاتيب بشكل منظم وقاس حتى أصبح من العار على الشباب الآن أن يتعلموا في الكتاب ورحم الله الوقت الذي كان فيه أساطين العلماء يتخرجون منه .

٦- الاستهتار برجال الدين وإظهارهم بمظهر سيء والتكثير من التنكيت عليهم والسخرية بهم في وسائل الإعلام وتصويرهم على أنهم نصابون ومرتزقة ومحتالون

على الناس ، وكان من سياسة كثير من الحكومات أن قللت من مرتباتهم في الوظائف بناء على خطة المستشرق (دنلوب) الإنجليزي . مما دفعهم إلى أن يكونوا محتاجين دائما . وهذا جعل الناس يصرفون أبناءهم عن التعليم الديني فأصبح لا يذهب إلى هذا التعليم إلا العميان وذوو العاهات ويروي الشيخ محمد الغزالي قصة أحد الأطفال أصيب بمرض في بصره ولم يعرف له الأطباء في مصر علاجا . فأخذه أبوه إلى الأزهر وبعد سنوات جاء إلى مصر طبيب عيون ماهر فعرضه عليه وشفي من مرضه فنقله أبوه من الأزهر إلى المدرسة الأميرية . ويعلق الشيخ محمد الغزالي على ذلك قائلا وكأنه لم يبق للأزهر إلا المتردية والنطيحة وما أكل السبع .

٧- محاولة إيجاد روابط ولاء جديدة غير روابط الدين كرابطة الوطنية أو القومية أو الطبقية أو الشرق أوسطية أو الأفريقية الآسيوية ... إلخ . وتشجيع العصبيات مما يضعف رابطة الإسلام في نفوس الشعوب الإسلامية ويجعل أمر توحيدها عسيرا للغاية إن لم يكن مستحيلا . والناظر اليوم إلى العالم الإسلامي لا يكاد يجد بلدين إسلاميين بينهما علاقة طيبة إلا من خلال ولاء هذا البلد أو ذاك إلى دولة أجنبية واحدة .

وقد قام المفكرون والمستشرقون بدور رئيس في هذا المجال (مجال الغزو الفكري) ونذكر منهم على سبيل المثال «جولدتسيهر» اليهودي المجري ، إسرائيل ويلفنسون و«جرينباوم» اليهودي الألماني ويوسف شاخت الألماني وأبراهام كامن والمستشرق اليهودي الإنجليزي فيرث .

ثالثا : الغزو الأخلاقي :

حرص المستعمرون على نشر الانحلال الخلقي لدى المسلمين عن طريق السينما والقصص والمجلات الخليعة والأدب المكشوف ونشر دور الدعارة وتعرية المرأة وتشجيع الاختلاط في المدارس والجامعات والمنتديات والشواطىء حتى أصبحت المرأة المسلمة المحتشمة تواجه عنتا في المجتمعات الإسلامية فالكل ينظر إليها على أنها جسم غريب رجعي ، وتفتخر العارية بأنها متقدمة حضاريا . ووجد كتاب ومروجون ومجلات خاصة لنشر الانحلال وتشجيعه وأنفقت الملايين على المغنية والراقصة والممثلة حتى أصبح أجر الواحدة منهن يساوي ما يحصل عليه مائة أستاذ جامعي . بل

إن الاحترام الذي يواجه به هؤلاء المنحلون يزيد عن احترام العلماء وتلقى عليهم ألقاب الأستاذ والسيدة وكوكب الشرق والصوت الملائكي ولعل في الألقاب التي القاها السادات على محمد عبد الوهاب حينما أعطاه لقب الدكتور ورتبة لواء فصار الأستاذ الدكتور اللواء محمد عبد الوهاب خير دليل على ذلك .

وكذلك نشر الحانات والخمارات وإعلانات الخمور في الشوارع الرئيسية في المدن ، واعتبار السكر أمرا عاديا لا يعاقب عليه القانون .

ولليهود في نشر هذه الرذائل في كل أنحاء العالم الإسلامي بشكل خاص الباع الطويل وهذا امتداد وتطبيق البروتوكولات حكماء صهيون التي تقضي بافساد أخلاق العالم حتى يتسنى لهم السيطرة عليه .

ولعل في الإسقاط الخلاقي الذي تمارسه المخابرات الصهيونية في إسقاط الشباب الفلسطيني وتجنيده للعمل لصالح اليهود أكبر دليل على ذلك .

رابعا : الغزو الاقتصادي :

وذلك يجعل العالم الإسلامي مستودعا استهلاكيا لتصريف المنتوجات الصناعية الأجنبية والاستيلاء على خامات العالم الإسلامي بأبخس الأثمان وانتشار الشركات والاستثمارات الأجنبية في العالم الإسلامي بحيث تستنزف طاقاته ونجعله تابعا للغرب في كل مجالات الاقتصاد فلم تقم إلى الآن قاعدة للتصنيع في المجتمعات الإسلامية وكذلك قام المستعمرون بنشر التعامل بالربا وجعله قاعدة الاقتصاد في البلاد الإسلامية مما يضيع كل مجهودات المسلمين ويغرقهم في الديون . وقد كان لليهود الدور الأكبر في هذه المعاملات الربوية . ففي معظم بلدان العالم الرأسمالي يشكل اليهود الجزء الرئيسي في أرباب المال وأصحاب البنوك والمضاربات والبورصة .

خامسا : التبعية السياسية :

بحيث أبقت الدول الاستعمارية الأمة الإسلامية بعد استقلالها تابعة سياسيا لهذا المعسكر أو ذاك ووضعت في مراكز القيادة بعد خروجها منها قادة يأتمرون بأمر الغرب ويعتمدون عليه في المحافظة على عروشهم سواء في النظم الملكية المرتبطة

بالدول الاستعمارية الرأسمالية أو الدول التي تدعي الثورية المرتبطة بالمعسكر الشرقي عن طريق الأحزاب السياسية . فللحقيقة لا يكاد يوجد الآن بلد إسلامي مستقل تماما يملك إرادته بعيدا عن هيمنة الغرب وتأثير الغرب فيه بشكل أو بآخر .

وأخيرا فان الوجود اليهودي في فلسطين يمثل الوجه الحقيقي لهذا الصراع حيث يقول حاييم وايزمن حينما سأله أحد الساسة الإنجليز ماذا تعني بالوطن القومي اليهودي في فلسطين ؟ فقال : «أريد أن تكون فلسطين يهودية كما هي بريطانيا إنجليزية» من كتاب التجربة والخطأ .

ولعل المذابح التي قام بها اليهود للشعب الفلسطيني والتي أدت إلى تشريده من أرضه وحتى ملاحقته خارج أرضه أكبر دليل عن طبيعة الصراع بيننا وبين اليهود وكذلك في مذابح صبرا وشاتيلا نموذج للصراع مع الصليبيين واليهود معا .

إن قائمة المذابح التي قامت ضد أبناء الشعب الفلسطيني لا تنتهي ولكن نذكر هنا بعضها كأمثلة .

مذبحة دير ياسين :

كانت هذه القرية العرشبية تعيش في بحبوحة من العيش الرخي يسكنها ٧٧٥ نسمة من العرب المسلمين ويملكون ١٧٠٠ دونم للحبوب والثمار وبينهم تجار ومقاولون ويحيون حياة يسر ورخاء ، كان فيها مسجدان ومدرستان وناد للرياضة وكانت محاطة بمناطق يهودية يربو سكانها عن مائة وخمسين ألفا .

وبداية القتال بفلسطين اتصل قائد إحدى القرى المجاورة لدير ياسين بوجهائها قائلا : «ما لنا لغيرنا ، لا تعتدوا علينا ولا نعتدي عليكم» فوافقه الوجهاء ولم يحدث أي اعتداء بينهم .

وفي اليوم التاسع من ابريل «نيسان» ١٩٤٨ وقبل أن ترسل أنوار الفجر أشعتها ، والقرية نائمة هادئة ، كان اليهود يهاجمونها من جميع الجهات أرسلوا طائرة رمتها بعديد من القنابل ، وتقدم جنودهم تحميهم خمس عشرة دبابة ، وكانت الحملة اليهودية كبيرة جدا ولم يكن المسلمون بالقرية يزيدون عن خمسة وثمانين مسلحا وصحا أهل القرية على الثانية والنصف ظهرا ولم يثنهم طحن الدبابات اليهودية لبعض

أطفالهم ولا هدمها لمنازلهم وتحولت المعركة من بيت إلى بيت ومن ركن إلى ركن وشهد ذلك الصباح بطولات خالدة لسكان تلك القرية التي داهمها اليهود فجأة وعلى غرة.

ولم تتخلف النسوة في دير ياسين ، بل كن يمددن المقاتلين بالذخيرة ، ويقفن في صف المعركة . تلك المعركة التي لم تهدأ إلا عندما نفذت ذخائر العرب وعندما نفذت الذخيرة ، تمكن اليهود من تفتيش شوارع القرية ومنازلها واستحلوا القتل والتمثيل في سكانها ، لقد استطاع القليل من السكان اختراق صفوف اليهود بقوة بعض القنابل اليدوية ومثل من لم يستطع لا فرق بين الشيوخ والأطفال وكان بين النسوة خمس وعشرون حاملا رموهن كلهن بالرصاص ، وداهموا الدور فقتلوا كبار السن ورموا بجثثهم من الشرفات .

وبينما كانت امرأة عربية تحاول انقاذ زوجها الكفيف البصر محمد علي خليل وتقوده صارخة ضارعة أطلقوا رصاصهم صامين آذانهم من دعاء الإنسانية بينما كانت السيدة صالحية محمد عيسى مع طفلها الصغير أطلقوا عليها رصاصهم فقتلوهما معا ، وتلك الشهيدة حياة البلبيسي المدرسة في القرية والتي كانت تسعف الجرحى حاملة شارة الصليب الأحمر أردوها شهيدة وسط جرحاها وأناتهم وهناك أسر أبيد معظم أفرادها في تلك القرية في ذلك الصباح الذي لا ينسى.ولم يرحموا حتى النسوة العجز والشيوخ والكبار فقد كان رصاصهم يقصدهم ويحصدهم على مختلف أحوالهم من الأسرى فطافوا بهم في شوارع القدس الجديدة ، ثم عذبوهم في شوارع القرية على مرأى من أسرهم ، غابوا في غياهب المجهول إلى اليوم ، واتجهوا إلى نسوة القرية اللاتي فاتهن دور الموت ، وسلبوا حليهن وكل ما معهن وجردوهن من الحجاب وسيروهن حافيات الأقدام عاريات الرؤوس والوجوه ، وأخذت تلك الأشلاء الباقية من الأسر طوابير في شوارع القدس بين سب اليهود وتشهيرهم ، ثم أودعن المستشفى الإيطالي في ضواحي القدس الجديدة حيث توزع ذلك الجمع الحزين بين القدس العربية ومختلف القرى .

إن مناحم بيغن قائد عصابة الأرجون التي تولت مع غيرها مجزرة دير ياسين ، يتحدث عن دفاع العرب عن قريتهم فيقول : «إن نارهم كانت حامية وقاتلة ، وقد اضطر اليهود أن يحاربوا العرب من شارع إلى شارع ومن دار إلى دار» .

وقد تحدثت الحاجة زينت أحمد موسى إحدى نساء دير ياسين اللائي طوف بهن اليهود في شوارع القدس ، وتحدثت إلى المؤرخ عارف العارف فذكرت : أن اليهود أرغموها بعد المعركة على أن تحمل زهاء الثمانين جثة من قتلاهم في ذلك اليوم . أما مجموع ضحايا العرب في دير ياسين فكان مائتين وخمسين شهيدا وشهيدة . ويؤكد الكاتب اليهودي «هاري ليفين» أن الجماعات اليهودية الثلاث اشتركت في تلك المجزرة البشرية سواء في ذلك شترن والأرغون وجيش الهاجاناة اليهودي . وأفاد الدكتور دي رينيه الذي تمكن من دخول القرية يوم الحادث أن عددا كبيرا من المدنيين غير المسلحين من الرجال والنساء قد ذبحوا ذبح الأنعام .

لقد حدثت هذه المجزرة ، وبلغ من فظاعتها أن أخذ اليهود جثث العرب ورموا بها في الآبار وأقفرت تلك القرية من كل عربي فيها وكان هناك مائة مسلح من جيش الإنقاذ الذي كونته الجامعة وأشرفت عليه لجنتها العسكرية يعسكرون في عين كارم القريبة من دير ياسين ، وكان صوت الرصاص وصرخات النساء والأطفال يتردد في أصداء أجوائهم . ولكن أحدا منهم لم يتحرك لإنجاد دير ياسين ، أما الإنجليز فقد صرح وزير مستعمراتهم مستر كريتش جونز في مجلس العموم قائلا : «إن جميع الحقائق التي توافرت لدينا تثبت هذه الجريمة القاسية ، وإنني لا أستطيع سوى التعبير عن الكراهية والاحتقار اللذين تشعر بهما حكومة صاحب الجلالة تجاه هذه الأعمال التي هزت العالم كله . وبينما يعبر الوزير البريطاني عن أسفه وكرهه للجناة يتناسى أن حكومته الآسفة كانت المسئولة عن الأمن دوليا وقانونيا حتى الخامس عشر من مايو «أيار» ، وأن هذه المجزرة كانت في التاسع من ابريل «نيسان» تحت سلطان علم بريطانيا ، وبالسلاح الذي كونته ووزعته طوال انتدابها ، بل إنه يتناسى أن الجيش البريطاني والبوليس الخاضع للضباط البريطانيين كانوا يسمعون المعركة ويتابعونها من بعد ، لم يتحركوا لإنهائها أو حتى لإنقاذ الأطفال والنساء المدنيين غير المحاربين ولطالما أسرعت جيوش بريطانيا تفك حصار اليهود وتحارب العرب في كل موقعة تدرك أن جانب العرب فيها هو الغالب .

وفي عام ١٩٥٢م تكشفت في محكمة إسرائيل حقائق رهيبة عن تلك المعركة . فشهد السفاح «مردخاي نوفمان» واضع خطة مذبحة دير ياسين أنه اتفق مع «دافيد

إسرائيل» على أن تشترك عصابتا الأرغون وشتيرن تحت حماية مدافع الهاجانا ، وأنهما تتبعا المعركة التي استمرت من الرابعة صباحا حتى الخامسة مساء من قرية جبعات شاؤول .

وهكذا مرت معركة دير ياسين بعد يوم واحد من استشهاد البطل الفلسطيني عبد القادر الحسيني في معركة القسطل وتركت هذه المذبحة عديدا من الأطفال الأيتام والنسوة الأرامل (١) .

مذبحة كفر قاسم :

كانت الحياة في القرى العربية في إسرائيل تسير وفق نظام مستمر يقضي بمنع التجول ابتداء من السادسة مساء ، وكان فلاحو كفر قاسم يغادرون منازلهم إلى الحقول ، فلا يحين الموعد الرسمي إلا وقد وصل واستقر كل منهم في بيته إلى الصباح التالي ، وفي الثامن والعشرين من أكتوبر «تشرين الأول» ١٩٥٦ أصدر اليهود أمرا إلى عمدة كفر قاسم بأن الجميع يجب أن يكونوا داخل منازلهم في الخامسة مساء ، فقال المختار «إننا في الخامسة إلا ربعا الآن وقد تعود الفلاحون العودة في السادسة إلا ربعا وتوجد إستحالة في إبلاغهم هذا الأمر المفاجيء ولم يبق إلا ربع ساعة ، إني أرجوكم إعطاءنا فرصة نصف ساعة لإبلاغ الجميع الموعد الجديد» ولكن القائد اليهودي «ششنة شادمي كان يبيت أمرا وجاء رده «هذا أمر عسكري لابد من تنفيذه ، أخطر القرية واترك لنا أمر من في الحقول» .

وكجري العادة كل يوم أخذت جموع العرب الصغيرة تعود من حقولها في الخامسة والنصف قبل نصف ساعة من الموعد المحدد عادة لمنع التجول ، وبعد نصف ساعة من الموعد الجديد الذي لم يعلموه ولم يبلغ إليهم ، وعلى أبواب القرية استعد ضابطان وأحد عشر جنديا يهوديا بمدافعهم الرشاشة التي فتحوها على الأبرياء فسقط ٥٧ عربيا ، كان منهم سبع عشرة امرأة وطفلا وجرح ٢٧ شخصا .

كانت هذه الجريمة مصنوعة بيد ضباط ثلاثة من عصابات اليهود القائد «ششنة شادمي» والرائد «مالنكي» والملازم «غبريال دهان» والشاويش «شالوم دفير» وعشرة من الجنود .

---

(١) نقلا عن كتاب جهاد شعب فلسطين في نصف قرن ٤٢٤ - ٤٢٧ .

وأمام هياج الرأي العام العالمي ، تظاهرت إسرائيل بسخطها على الفاعلين وصدر أحكام على بعضهم بـ ١٧ سنة سجن وعلى البعض الآخر بـ ١٣ سنة سجن ، ولكن تمثيلية سبق لإسرائيل أن مثلتها في دير ياسين حين أصدرت بيانا استنكاريا ثم بعد عامين ثبت أن المؤامرة كانت رسمية ، وسبق لها أن اغتالت الكونت «برنادوت» في القدس الجديدة وأصدرت بيانا استنكاريا ثم ثبتت موافقتها وأنها لم تتخذ ضد الفاعلين أي إجراء .

على أن الصحف اليهودية ذكرت أن غرف المسجونين هؤلاء السفاحين تحولت إلى غرف من فنادق الدرجة الأولى ، وأنهم يغادرونها مساء كل يوم إلى ذويهم ومنازلهم حتى أن أحدهم تزوج خلال مدة سجنه القصيرة . ولم يمض أحد منهم مدة العقوبة وهي ربعها ، بل عادوا إلى وحداتهم العسكرية برتب أكبر .

لقد دار حديث صحفي مهم مع الضابط اليهودي «فالنكي» يثبت كم هي موغلة روحهم وآراؤهم بالنسبة لنا ، سأل الصحفي الضابط المذكور فدار الحديث على الوجه التالي :

س : هل أنت نادم على ما فعلت ؟ .

ج : بالعكس لأن الموت لأي عربي في إسرائيل معناه الحياة لأي إسرائيلي والموت لأي عربي خارج إسرائيل معناة الحياة لإسرائيل كلها .

س : ماذا كان شعورك بعد الحكم عليك ؟ .

ج : كنت مطمئنا للمعاملة التي سأعامل بها لأن العمل الذي قمت به واجب وطني وديني .

سئل الملازم «غبريال دهان» :

س : كم عربيا اصطدت في المجزرة ؟ .

ج : ١٣ فقط .

س : ماذا كان شعورك أثناء المجزرة ؟ .

ج : كنت متعطشا للدم العربي وقد شربت حتى سكرت .

س : هل في نيتك معاودة الشرب ؟ .

ج : إذا سمحت الظروف .

وسئل الشاويش «شالوم» :

س : كم عدد ضحاياك في المجزرة ؟ .

ج : ١٥ لقد ضربت الرقم القياسي وكان حظي أحسن زملائي في اختيار المكان الذي وقفت فيه (١) .

مذبحة صبرا وشاتيلا :

في أعقاب غزو إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ وانسحاب المقاتلين الفلسطينين من بيروت مقابل أن تتعهد إسرائيل بعدم دخول بيروت الغربية لم تف إسرائيل بتعهداتها بل قامت بدخول بيروت الغربية وجردت المواطنين المسلمين من سلاحهم تماما ، وفي ليل السابع عشر من سبتمبر حاصرت قوة من حزب الكتائب الصليبي اللبناني مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين وقد كانت الدبابات الإسرائيلية توفر لهم الحماية . وقاموا بحفر المقابر الجماعية بواسطة الجرافات ثم انقضوا على السكان العزل من السلاح وأصلوهم بوابل من الرصاص ولم يفرقوا بين شاب وشيخ ولا رجل وامرأة ولا بين طفل رضيع أو طاعن في السن . فحصدوا ما يزيد على ثلاثة آلاف نسمة ودفنوهم بالجرافات . وتركوا جثث العديد منهم في العراء ، لتدلل على وحشية الكفار حين يظهرون على المسلمين فلا يرقبون فيهم إلاً ولا ذمة ولتدلل على خيانة الزعماء العرب الذي لم يحركوا ساكنا أمام هذه المجزرة البشعة بل كان البعض منهم يدعم حزب الكتائب الصليبي هذا .

ولما هزت هذه المذبحة ضمير العالم الإنساني حين رأى من الصور ما تقشعر له الأبدان وأحرجت إسرائيل أمام دول العالم شكلت لجنة «كاهان» للتحقيق في شأن المذبحة والتي خرجت بتوصيات منها إقالة الجنرال شارون وزير الدفاع الإسرائيلي في حينه وبعض الضباط لامتصاص النقمة العالمية .

هذه النماذج الثلاث هي جزء من عشرات المذابح التي تعرض لها الفلسطينيون على يد اليهود والصليبيين تكشف طبيعة هذا الصراع عمليا على أرض الواقع لكل ذي

---

(١) نقلا عن كتاب جهاد شعب فلسطين في نصف قرن ٤٤٦ - ٤٤٧ .

عينيين وتكشف بوضوح عن حقيقة نوايا من يطالبون بالسلام . وأي سلام هو الذي يريدون .

وفي نهاية هذا الفصل ننقل هذه الفقرة للشهيد سيد قطب يكشف فيها القناع عن الذين يحاولون تزييف الصراع ووصفه بغير صفته الحقيقية .

„ هنالك حقيقة أخرى يشير إليها أحد التعقيبات القرآنية على قصة الأخدود في قوله تعالى «وما نقموا منهم إلى أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد» حقيقة ينبغي أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كل أرض وفي كل جيل . إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة وليست شيئا آخر على الإطلاق . وإن خصومهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان ، ولا يسخطون منهم إلا العقيدة .

إنها ليست معركة سياسية ولا معركة اقتصادية ولا معركة عنصرية .. ولو كانت شيئا من هذا لسهل وقفها ، وسهل حل إشكالها ولكنها في صميمها معركة عقيدة - إما كفر وإما إيمان .. إما جاهلية وإما إسلام ! .

ولقد كان كبار المشركين يعرضون على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المال والحكم والمتاع في مقابل شيء واحد : أن يدع معركة العقيدة وأن يدهن في هذا الأمر ! ولو أجابهم - حاشاه - إلى شيء مما أرادوا ما بقيت بينهم وبينه معركة على الإطلاق .

إنها قضية عقيدة ومعركة عقيدة . وهذا ما يجب أن يستيقنه المؤمنون حيثما واجهوا عدوا لهم . فانه لا يعاديهم لشيء إلا لهذه العقيدة «إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد» ويخلصوا له وحده الطاعة والخضوع ! وقد يحاول أعداء المؤمنين أن يرفعوا للمعركة راية غير راية العقيدة راية اقتصادية أو سياسية أو عنصرية كي يموهوا على المؤمنين حقيقة المعركة ، ويطفئوا في أرواحهم شعلة العقيدة . فمن واجب المؤمنين ألا يخدعوا ومن واجبهم أن يدركوا أن هذا التمويه لغرض مبيت وأن الذي يغير راية المعركة إنما يريد أن يخدعهم عن سلاح النصر الحقيقي فيها . النصر في أية صورة من الصور . سواء جاء في صورة الانطلاق الروحي كما وقع للمؤمنين في حادث الأخدود ، أو في صورة الهيمنة - الناشئة عن الإنطلاق الروحي - كما حدث للجيل الأول من المسلمين .

ونحن نشهد نموذجا من تمويه الراية في محاولة الصليبية العالمية اليوم أن تخدعنا عن حقيقة المعركة ، وأن تزور التاريخ ، فتزعم لنا أن الحروب الصليبية كانت ستارا للاستعمار .. كلا .. إنما كان الاستعمار الذي جاء متأخرا هو الستار للروح الصليبية التي لم تعد قادرة على السفور كما كانت في القرون الوسطى ! والتي تحطمت على صخرة العقيدة بقيادة المسلمين من شتى العناصر ، فيهم صلاح الدين الكردي وتوران شاه المملوكي ، العناصر التي نسيت قوميتها وذكرت عقيدتها فانتصرت تحت راية العقيدة .

«وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد» ...

صدق الله العظيم وكذب الممولون الخادعون» (١) .

---

(١) نقلا عن كتاب معالم في الطريق ٢٤٧ - ٢٤٩ .

الباب الثالث

الفعل ورد الفعل

الباب الثالث

الفعل ورد الفعل

رأينا في الفصول السابقة أوضاع المشاركين الرئيسيين في القضية الفلسطينية قبل ابتدائها الفعلي في المؤتمر الصهيوني سنة ١٨٩٧م ورأينا طبيعة الصراع بين هذه القوى وأبعاده . والآن نحاول في هذا الباب دراسة الأدوار التي قام بها كل فريق ومدى توفيقه وإخفاقه .

رأينا كيف بدأ اليهود في مؤتمرهم الصهيوني الأول وهم في مرحلة نمو من الوعي والإدارة لتحقيق ما يريدون ، أي أنهم بدأوا في مرحلة العلو والإفساد في الأرض الجديدة ، فلقد كان البعث الصهيوني موجودا قبل هرتزل حتى وقبل أن يولد . يقول حاييم وايزمن في كتابه التجربة والخطأ : (مجيء هرتزل كان حدثا ذا أهمية هائلة ، ولكن ليس حدثا غريبا ، إنه لم يكن ثورة . إنه إنجاز ولكن كما قلت إيجاده للمنظمة الصهيونية كان يعني بالنسبة لنا أكبر بكثير من كتابه «الدولة اليهودية» . إنه لم يكن ضروريا أن يزودنا بنظريات عن الصهيونية ، لقد كنا دائما نملكها وما كان يلزمنا كان القيادة والمبادرة بالتنفيذ) (١) .

لقد كان هذا المؤتمر بداية الوجود للدولة اليهودية ، وبدأ اليهود عملهم المنظم وفق المخطط الثلاثي الذي وضعه هرتزل في كتابه «الدولة اليهودية» وتبناه المؤتمر الصهيوني ويتمثل في :

١- الحصول على دعم الدول العظمى لإقامة الدولة اليهودية في ظلها وتحت حمايتها أو بمعنى آخر الضمانات الدولية .

٢- الاستعمار الزراعي لفلسطين وذلك عن طريق تجنيد اليهود في شتى أنحاء العالم وإعدادهم روحيا وثقافياً لتحمل مسؤولياتهم في بناء الدولة . وكذلك تدريبهم على الزراعة والأعمال اللازمة لإنشاء الوطن الجديد .

---

(١) التجربة والخطأ ص ٤٠٣ .

٣- بناء الصندوق القومي اليهودي «الكيرن هايسود» لجمع الأموال اللازمة لهذا المشروع الكبير .

ومن هنا تتبين لنا الحقيقة الخطيرة وهي أن اليهود ومنذ المؤتمر الصهيوني الأول بدأوا وفق مخطط مدروس بخطوات مبرمجة ، خطوة بعد خطوة ، وكانوا في مؤتمراتهم الصهيونية والتي بلغت سبعة عشر مؤتمرا عند قيام الدولة . يتابعون منجزاتهم ويدرسون العقبات التي تواجههم ، وفي كل عمل من أعمالهم كانوا هم دائما المبادرين وكان كل أعمالهم تسير في التيار الذي يريدون أما المسلمون فقد فوجئوا بمخططات أعدائهم وكانوا دائما يتحركون وفق رد الفعل حين يبادر اليهود إلى الاحتكاك ، وكثيرا ما كانت الأعمال التي يقوم بها المسلمون عفوية خالية من التخطيط والا تزا وفي نفس الوقت الذي بدأ فيه اليهود عملهم المنظم بقيادة واحدة للمنظمة الصهيونية ظل المسلمون يتخبطون ، وظل الصراع على الزعامة قائما ، ولم تجتمع كلمتهم على زعيم واحد إلا بعد فوات الأوان وبعد أن أصبح الوجود اليهودي في فلسطين أمرا واقعا وسنرى ذلك واضحا من تتبع الأحداث ودراستها دراسة واعية .

بدأ اليهود عملهم في تنفيذ المخطط الثلاثي وانتخب ثيودور هرتزل رئيسا للهيئة التنفيذية للمنظمة الصهيونية ، وكان هم هرتزل الأول منصبا على كسب تأييد الدول العظمى لإقامة الو طن القومي اليهودي في فلسطين ، وكان أول أهدافه محاولة كسب عطف السلطان عبد الحميد «الخليفة العثماني» على الأماني اليهودي بحكم أن فلسطين تقع ضمن ولاية الدولة العثمانية ، ولذلك ذهب هرتزل إلى السلطان عبد الحميد وقابله كصحفي وليس كممثل للصهيونية ، وعرض على السلطان مساعدة اليهود لتركيا التي كانت تمر بأزمة اقتصادية خانقة . فعرض عليه «المساعدة على إنشاء أسطول عثماني بحري ، ومساعدة السلطان في سياسته الأوربية ، وإنشاء جامعة عثمانية في بيت المقدس تغني عن الذهاب لأوربا ، والمساعدة في المشروعات العمرانية وأن يعقدوا له قرضا ماليا يكفي لتنفيذ المشروعات المقررة ، وأن يسددوا ديون الدولة العثمانية وكانت كبيرة ثقيلة ، وأن يدفعوا إتاوة سنوية تساعد الدولة على إصلاح اقتصادها المنهار وأن يكونوا لها عونا لدى الدول الغربية وكانت هذه الدول

تعد العدة للقضاء على تركيا» (١) .

ولكن السلطان عبد الحميد رفض ذلك رفضا قاطعا وقد كتب هرتزل في مذكراته عن رد عبد الحميد «انصحوا الدكتور هرتزل بألا يتخذ خطوات جدية في هذا الموضوع ، إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض فهي ليست ملك يميني بل ملك شعبي ، لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه فليحتفظ اليهود بملايينهم ، إذا مزقت امبراطوريتي يوما فانهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن أما وأنا حي فان عمل المبضع في بدني لأهون علي من أن أرى فلسطين قد بترت من امبراطوريتي ، وهذا أمر لا يكون ، إني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة» (٢) .

وأرسل هرتزل إلى أحد المقربين إلى السلطان يهدده يقول فيها : «قدمت إلى عظمة السلطان عروضنا العامة وإني واثق أنه بفضل ذكائه الفائق سوف يوافق مبدأيا على الفكرة على أن يبحث مستقبلا تفاصيل إخراجها إلى حيز التنفيذ أما إذا رفض فسنواصل البحث وصدقني سوف نهتدي إلى مكان آخر وفقا لما نريده ، وفي هذه الحالة سيضيع على تركيا بلا رجعة آخر سهم في متناول يدها لتنظيم ماليتها والنهوض باقتصادها . إن من يصارحكم بهذا القول هو صديق مخلص للأتراك فاذكروا ذلك دوما» (٣) . وعمل الصهاينة بعدها على خلع السلطان عبد الحميد وتدمير تركيا .

ولما يئس هرتزل من السلطان عبد الحميد قابل القيصر الألماني «ويلهلم» وعرض عليه الفكرة الصهيونية ، وطلب منه مساعدة ألمانيا ، «وقد قابله ثيودور هرتزل عند زيارة القيصر لفلسطين على ظهر فرس عند المستوطنة اليهودي «ميكفي يسرائيل» على طريق القدس - يافا في ٢ نوفمبر سنة ١٨٩٨م وسأل هرتزل القيصر أن يصبح الراعي الحارس لمنظمة الاستيطان الصهيونية في فلسطين وسوريا ، ولعله لم يتملص من القضية بل عبر عن تشجيعه للمستعمرات الألمانية واليهودية في البلاد وقال

---

(١) جهاد شعب فلسطين ص ٣٠ (٢) نفس المصدر ص ٣١ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٣ .

لهرتزل : حركتكم مبنية على فكرة سليمة» (١) .

ولكن القيصر الألماني خشي غضب السلطان عبد الحميد والذي كان يسعى للحظوة لديه حتى يواجه أطماع إيطاليا في الشرق الإسلامي فتوقف عن تبني المشروع الصهيوني .

عندها توجه هرتزل إلى بريطانيا كملاذ أخير خصوصا بعد أن فشل ناحوم سوكولوف - أحد القادة الصهاينة - في إقناع الفرنسيين بتبني الفكرة الصهيونية . عند اتجاه هرتزل إلى بريطانيا قابل جوزيف تشامبر لن - وزير المستعمرات البريطانية في ذلك الوقت - وعرض عليه تشامبر لن الاستيطان في شمال سيناء وذلك كحيلة لتوفير الحماية لقناة السويس .

وهكذا استقر تفكير هرتزل والحركة الصهيونية على بريطانيا بأنها الدولة الوحيدة القادرة والراغبة في مساندة اليهود على إقامة الدولة اليهودية ، وقد كان الإنجليز يعرفون صعوبة ما هم مقدمون عليه ولكنهم كانوا معنيين بمساعدة اليهود لأسباب كثيرة تكلمنا عنها في الباب الأول . ولذلك عرض الإنجليز على هرتزل أن يستوطن اليهود في أوغندا - وقد كانت مستعمرة بريطانية في ذلك الوقت - وحين انعقد المؤتمر الصهيوني السادس كانت هناك آثار مذبحة «كشنيف» - وهي مدينة روسية - تهيمن على جو المؤتمر ، وكان كثير من المندوبين اليهود من غرب أوربا بالذات متأثرا بواقع اليهود في روسيا وفي هذا المؤتمر عرض هرتزل على المؤتمرين العرض الذي تقدمت به بريطانيا لإسكان اليهود في أوغندا ، وثار نقاش عارم بين المؤتمرين انتهى بقبول المشروع بالأغلبية ، ولكنه لم ينفذ ، لأن الأقلية كانت ذات نفوذ قوي وفرض رأي حاييم وايزمن - رئيس المنظمة الصهيونية فيما بعد - .

وحول الموضوع يقول حاييم وايزمن : «كيف يمكن أن تعرف كيف تحول تفكير هرتزل عن هدفه - حين قبل مشروع أوغندا - إنها النتيجة المنطقية لوجهة نظره في الصهيونية والدور الذي يجب أن تلعبه في حياة اليهود . بالنسبة له

---

(١) إسرائيل بلا صهاينة تأليف أوري أفنيري .

والكثيرين معه وربما الأغلبية من الممثلين عن اليهود المؤتمرين في بازل . الصهيونية كانت تعني حلا سريعا للمشاكل المنصبة على شعبهم المتعب المرهق ، إن لم يكن كذلك فليس هناك شيء إطلاقا.وجهة النظر هذه كانت ساذجة وطيبة ، ليس هناك حل سريع للمشاكل التاريخية العظمى ، هناك فقط حركة في اتجاه الحل ، هرتزل القائد حتى يعيش هذا الاعتقاد . وقوبل بمعارضة شديدة . الحالة اليهودية تزداد سوءا كل ساعة ، هرتزل ذهب إلى روسيا وألقى نظرة سريعة على المقاطعات وأوضاعها البائسة ، في كل مكان قابلته الجماهير البائسة كمنقذها ، إذا لم تكن فلسطين مملكته في هذه اللحظة ، فانه لا يستطيع الانتظار ، لأن فيضان العداء للسامية كان يرتفع دقيقة دقيقة ولأستعمل كلماته نفسها (الطبقة التحتية للصرح اليهودي قد غرقت فعلا) إذا كان من الممكن أن يحدث شيء بعد ذلك فلن يجد يهودا لكي يعمروا فلسطين .

ومن هنا كان عرض الحكومة البريطانية مفيدا .. لقد جاء في الوقت المناسب ومساعدة عاجلة جدا في وقت المأزق .. إنه سيكون شريرا عديم القلب ، ليس يهوديا ولا صهيونيا من يرفض فرصة كهذه من الممكن ألا تتكرر في تاريخ الشعب اليهودي .

كلمة هرتزل في المؤتمر كانت حذرة محترمة بعيدة عن المرح وفي ردهة المؤتمر كان يبدو أقل دبلوماسية وأكثر عاطفية وحماسا هو والذين وقعوا تحت تأثيره فكروا قليلا في عرض أوغندا ، الشيء الذي عرضه ليس إلا خدعة وتضليلا ، لم يكن هناك مشروع على الأرض مهما كان مكبرا في النظرة ، وهذا العمل من الممكن في وقت سريع أن يخفف حدة التوتر ويزيل آثار الكارثة التي وقعت علينا بقدرة القدر . الهجرة من روسيا التي كانت ترتفع باستمرار قبل مذبحة كشنيف وصلت إلى رقم مائة ألف في السنة بعد المذبحة ، هؤلاء الذين كانوا يتكلمون بهدوء عن تحويل الهجرة إلى أوغندا لم يتوقفوا ليعرفوا أن أوغندا بلد لم يعرف عنه إلا شيء واحد وهو أنه بلد منعزل بري مسكون بقبائل بدائية ، فلا طبيعته ولا مناخه ولا زراعته ولا كل الإمكانيات يمكنها مع كل تفاؤل أن تتلاءم مع حاجات الساعة الراهنة إن من الصعب التصور كم كان هرتزل مأخوذا بعرض أوغندا . وفي مسارات الدبلوماسية المتوية فكر هرتزل أيضا في استعمال عرض أوغندا ليخيف السلطان عبد الحميد كمن

يقول له إذا لم تعطنا فلسطين سنسقطك من الحساب وسنذهب إلى شرق إفريقيا البريطانية» (١) .

«« إذن كان قبول هرتزل لعرض أوغندا هو حل مؤقت وليس تنازلا عن الحلم اليهودي ولتكمل وجهة نظر وايزمن - الذي قاد الحركة الصهيونية فيما بعد هرتزل - حول الموضوع يقول وايزمن : «سألني بلفور لماذا يعارض بعض اليهود الصهيونيين بشدة عروض أوغندا ؟! لقد كانت الحكومة البريطانية عازمة حقيقة لعمل شيء لمساعدة اليهود للخروج من وضعهم البائس ومسألة أوغندا كانت عملية ، وداعية إلى حل ممكن .... للرد على ذلك غصت في شرح الفكرة الصهيونية وما تعني وركزت على الجانب الروحي في الصهيونية لقد أوضحت لبلفور أنه لا يمكن لأي قناعة غير الفكرة الدينية مقولبة بقالب عصري أن تحفظ الحركة الصهيونية حية . وهذه القناعة يجب أن تكون مبنية على فلسطين . وإن أي انحراف عن فلسطين يعتبر وثنية وكفرا ، وأضفت لو جاء موسى (عليه السلام) إلى المؤتمر الصهيوني السادس الذي نجم عنه قبول فكرة أوغندا لكان بالتأكيد سيلقي الألواح ويكسرها مرة أخرى ، ونحن نعرف أن عرض أوغندا كان حقيقيا ومن الظاهر يمكن اعتباره حلا أكثر عملية وقابلية للتحقيق ولكنني متأكد أنه بعيد عن الإمكانية وطبيعة الأرض أن الشعب اليهودي لن يقدم المال ولا الطاقة اللازمة من أجل بناء أرض مقفرة وجعلها مأهولة إن لم تكن هذه الأرض هي فلسطين .

فلسطين لها تلك الخاصية السحرية والرومانسية لدى اليهود وتاريخنا كان بهذا الشكل لأننا ظللنا مرتبطين بفلسطين ارتباطا وثيقا ، لم نقبل الهزيمة ولن نتخلى عن فلسطين أبدا ولن ننسى ذكرى فلسطين . هذه العقيدة من الممكن أن تنعكس إلى قوة حقيقية ، ونحن نحاول أن نفعل ذلك ، ونناضل ضد العقبات العظمى ولكننا متأكدون بأن اليوم الذي ننجح فيه سيأتي»(٢) .

---

(١) عن كتاب التجربة والخطأ ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢) عن كتاب التجربة والخطأ ص ١١٠ .

وهكذا ظل اليهود يخططون لهذا الهدف بعد وفاة هرتزل سنة ١٩٠٤ وتولى حاييم وايزمن رئاسة المنظمة الصهيونية وانتقل وايزمن للعيش في بريطانيا وهناك عمل جادا من خلال اليهود الإنجليز وأصدقائهم لكسب ود بريطانيا وتبنيها لإقامة الدولة اليهودية في فلسطين ، وحافظوا على توجه الحركة الصهيونية الأساسي نحو فلسطين ولا انحراف عنها .

ونتيجة للنشاط الصهيوني في بريطانيا ظهرت فئة من النصارى الإنجليز عرفت باسم الصهيونية المسيحية . وضمت هذه الفئة العديد من الشخصيات البريطانية التي قدر لها أن تلعب دورا رئيسيا في السياسة العالمية وفي دعم فكرة الوطن القومي لليهود ومن هؤلاء (لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا في الحرب العالمية الأولى ، ونستون تشرتشل وزير المستعمرات ثم رئيس الوزراء في الحرب العالمية الثانية ، مارك سايكس صاحب الاتفاقية الشهيرة وأرثر بلفور صاحب الوعد المشهور وغيرهم) . وما إن جاءت الحرب العالمية الأولى حتى نجحت الدبلوماسية الصهيونية في كسب بريطانيا إلى جانبها . وفي الوقت الذي كان فيه هنري مكماهون يعطي الوعود الكاذبة للشريف حسين باستقلال العرب في كلمات دبلوماسية مبهمة تحمل أكثر من تفسير . كان وايزمن في بريطانيا يواصل اتصالاته مع الساسة الإنجليز والتي توجت بحصوله على وعد بلفور الشهير والذي تتعهد فيه بريطانيا بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين بعد تخليصها من يد الأتراك ، وكان هذا الوعد من خلال رسالة وجهها اللورد بلفور بصفته وزير خارجية بريطانيا إلى اللورد روتشيلد جاء فيها : (يسرني جدا أن أبعث إليكم باسم حكومة جلالة الملك بالتصريح التالي تصريح العطف على الأماني اليهودية الصهيونية الذي رفع إلى الوزراة ووافقت عليه . إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي وستبذل أفضل مساعيها لتسهيل الحصول على هذا الهدف ويجب أن يكون واضحا ألا يعمل شيء من شأنه أن يمس الحقوق المدنية والدينية للسكان المحليين من غير اليهود في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسي لليهود في أي بلد آخر) .

ولقد ذكرت عدة دوافع وراء إصدار وعد بلفور نذكر منها :

١- إيمان البريطانيين العميق بالكتاب المقدس وقد سبق شرح علاقة المذهب البروتستانتي الذي تؤمن به بريطانيا بالديانة اليهودية .

٢- محاولة كسب اليهود الأمريكيين من أجل الحصول على مساندتهم في إدخال الولايات المتحدة في الحرب إلى جانب الحلفاء .

٣- محاولة كسب يهود روسيا حتى لا يتحولوا إلى الشيوعية .

٤- مكافأة حاييم وايزمن على خدماته لبريطانيا أثناء الحرب حيث شارك في إنتاج الأسيتون بطريقة صناعية جديدة والأسيتون مادة لازمة في صناعة المتفجرات .

كل ذلك كان ممكنا ولكن في الحقيقة كان الوعد عبارة عن صفقة بين بريطانيا والمنظمة الصهيونية لتكسب بريطانيا بعض الشرعية لاحتفاظها بفلسطين بالرغم من التزامها للعرب والفرنسيين (١) .

وبهذا تم المخطط الأول للمؤتمر الصهيوني وهو الحصول على دعم الدول الكبرى لإقامة الوطن القومي اليهودي .

ولو قارنا هذا العمل بما قام به المسلمون لوجدنا الفرق واضحا .

ففي الطرف اليهودي كان هناك التخطيط المسبق الواعي لأبعاد الصراع والعمل المتواصل المخطط حتى الوصول إلى الهدف ، بينما كان المسلمون منشغلين بصراعهم الداخلي بين العرب والأتراك ، وكان الطرفان كالعميان عما ينتظرهم من مصير على أيدي أعداء الإسلام . وكانت النتيجة في النهاية هي خسارة الاستقلال للعرب والأتراك على السواء بل إن العرب لم يكونوا يدرون شيئا عن المخططات الصهيونية لدرجة أن الشريف حسين حين أرسل له جمال باشا بمخططات الإنجليز والفرنسيين لتقسيم بلاد الشام والعراق التي كشفها البلاشفة في موسكو - معاهدة سايكس بيكو - أرسل الشريف حسين بهذه المخططات إلى هنري مكماهون في مصر واستفسر عنها ، واقتنع

---

(١) عن كتاب إسرائيل بلا صهاينة . أوري أفنيري ص ٧٥ .

منه برد سخيف يقول فيه إن جمال باشا دفعه إلى اختلاق هذه القضية الغيرة من بريطانيا .

وحتى السلطان عبد الحميد الذي كان على علم تام بمخططات الصهيونية لم يزد على أن أصدر قانونا يمنع استيطان اليهود في فلسطين ، ولكنه كان عاجزا عن متابعة تنفيذ هذا القانون حيث أن فساد الإدارة التركية كان متفشيا في كل شيء ، فكان اليهود يأتون إلى فلسطين عن طريق رشوة الموظفين الأتراك فقد أستوطن في فلسطين من سنة ١٨٨١م إلى سنة ١٩٠٣م ٢٥ ألف يهودي ، وحتى بعد أن جاءه هرتزل وعرض عليه مشروع الصهاينة رفض ذلك ولكنه كان عاجزا عن اتخاذ أي إجراءات من شأنها أن تمنع اليهود من تنفيذ مخططاتهم .

وباختصار بحث اليهود عن حليف يضمن لهم إنشاء دولتهم حتى وجدوه وقيدوه بكل وسائل التقييد كما سنرى للمحافظة على ولائه لفكرتهم ، فكانت بريطانيا رهينة للفكر الصهيوني . بينما وجدنا المسلمين يوهنون أسباب قوتهم ويضعون أنفسهم تحت ولاية أعدائهم ولعل هذا هو العجب العجاب فما عرف التاريخ أمثال هذا التهافت ، ففي الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تصدر وعد بلفور وتخطط لتنفيذ الحلم الصهيوني كان معظم الحكام العرب مرتبطين ببريطانيا . والغريب أن العرب لا يتعلمون ، ففي الوقت الذي تحافظ فيه روسيا وأمريكا على حد سواء على إمداد إسرائيل بكل ما يلزمها من الرجال والمال والتكنولوجيا ووسائل القتال نجد أن العرب موزعون بولاءاتهم بين روسيا وأمريكا رغم ما مر بهم من نكبات .

وعلى صعيد المخطط الثاني وهو أخطر المخططات بدأ اليهود ينظمون أنفسهم على مستوى العالم فأقاموا عشرات التنظيمات التابعة للمنظمة الصهيونية في كل بلد تواجد فيه اليهود في العالم وبدأوا يبشرون بالحلم وشيك التحقيق .. وبعثوا اللغة العبرية من تراب القبور وأحيوا الفكر اليهودي وبدأوا ينشرون الفكرة الصهيونية القائلة «وقت الخلاص قد اقترب» .. وأن المكان الذي سوف يعيش فيه اليهود بلا معاناة - وهو فلسطين - أصبح قريب المنال . ألم تتعهد بذلك لهم أكبر امبراطورية في الدنيا .. وما عليهم إلا أن يتقدموا بأنفسهم لأخذ زمام المبادرة وبناء الوطن القومي في فلسطين تحت مظلة الامبراطورية البريطانية .

وهنا برز تياران في الحركة الصهيونية . تيار بقيادة «ماكس نورداو» ينادي بتهجير مليون يهودي دفعة واحدة إلى فلسطين حتى يتم بناء الدولة بأسرع ما يمكن خشية تقلبات السياسة وتغير وجهة نظر بريطانيا وكمحاولة لإقناع اليهود بأن الأمر جد لا هزل فيه وليس مجرد حلم .

والتيار الآخر بقيادة «حاييم وايزمن» الأكثر واقعية ووعيا والذي كان يتصور أن بناء الحضارات والدول لا يتم عن طريق الطفرة . فهناك مشكلة إقناع هؤلاء المليون يهودي بالهجرة إلى فلسطين وهناك السكان المحليون وكيف سيواجههم اليهود وهناك مسألة الإمكانيات الاقتصادية اللازمة لنقل مثل هذا العدد وإقامة حياة على شكل دولة في فلسطين .

" يقول حاييم وايزمن معلقا على تصورات ماكس نورداو - التي تبناها الأمريكيون فيما بعد - : أصدقاؤنا الأمريكيون ذهبوا بالأمر بعيدا حتى أنهم حددوا شكل الدولة وتبنوا الجمهورية اليهودية، بينما كنا نتقبل مثل هذه المظاهرات من كل قلوبنا كتعبير عن الإرادة القومية اليهودية ، لم نكن نستطيع قبولها كأسلوب لإقامة الدولة ، الدول يجب أن تبنى ببطء وبالتدريج بطريق منظمة وبصبر (١) .

وهكذا وبناء على هذا المخطط بدأت الهجرات اليهودية إلى فلسطين بشكل مبرمج ومنظم ، تعبئة في الخارج وتنظيم ، ثم مؤسسات خاصة للتهجير ، ومؤسسات أخرى في فلسطين لاستقبال المهاجرين الجدد واستيعابهم وإيجاد وسائل العمل الضرورية لهم ، وتعليمهم اللغة العبرية ومؤسسات أخرى لشراء الأراضي وإقامة المزارع عليها وكذلك منظمات عسكرية بدأت في إعداد الشباب وتدريبهم بحجة الدفاع عن المستوطنات في الوقت الحالي ، ولكنها استعدادا للحرب الحاسمة في المستقبل ، وإعداد السلاح وتجهيزه وتخزينه بشكل جيد بحيث يكون صالحا للاستعمال في الوقت المناسب .

وحين لا تجد الحركة الصهيونية الحماس الكافي لدى اليهود في بلد ما للهجرة

---

(١) التجرة والخطأ ص ٢٠١ .

إلى فلسطين كانت تعمد إلى إثارة العداء لليهود «العداء للسامية» في تلك الدول التي يعيش فيها اليهود عن طريق عملاء الحركة الصهيونية وافتعال مؤامرات تخرج العداء الكامن لليهود في أعماق الإنسان المسيحي وبذلك كانت تحدث المذابح في بلاد مثل روسيا القيصرية والتضييق في بلدان أخرى في غرب أوربا وهكذا يجد اليهودي نفسه مضطرا إلى الهجرة إلى فلسطين خوفا على مستقبله بل إن الصهاينة ضيقوا عن المناطق التي من الممكن أن يهاجر إليها اليهود غير فلسطين ، فحين عرضت بعض دول أمريكا اللاتينية عقب الحرب العالمية الثانية أن تفتح أبوابها لليهود من مذابح أوربا ذهب الزعماء الصهاينة وخوفوا زعماء هذه الدول بأن اليهود سوف يأتون ويمتصون خيرات هذه الدول ، وهكذا عدل هؤلاء الزعماء عن فكرة استقبال اليهود في بلادهم .

ولعل طلب اسحق شامير (رئيس وزراء الكيان الصهيوني) حديثا من الزعماء الأمريكيين أن يضعوا العراقيل في وجه اليهود القادمين من روسيا إلى أمريكا تجعل قبولهم في أمريكا شبه مستحيل ، بحيث يضطرون للهجرة إلى إسرائيل.ليس ببعيد (١) .

وحتى في بعض الدول التي لا تستجيب بطبيعتها لفكرة العداء للسامية كالدول الإسلامية لجأ الصهاينة لإرهاب اليهود أنفسهم كما حصل في العراق ، فقد بدأ عملاء من الصهاينة في حرق الحوانيت اليهودية في العراق وإلقاء القنابل على بعض اليهود (سرا بالطبع) مما جعل اليهود يشعرون بأنهم مهددون في أوطانهم ولا نجاة لهم إلا بالهجرة إلى فلسطين - ولقد شارك الزعماء العرب بمجهوداتهم في تهجير اليهود من بلادهم إلى إسرائيل بعد قيام الدولة كاجراء ظاهره وطني أمام الشعوب المغلوبة على أمرها وباطنه خدمة للدولة اليهودية ليزيدوا من عدد اليهود الموجودين في فلسطين . ولعل آخر القصص (الفلاشا) وتهجيرهم عن طريق السودان بواسطة جعفر نميري الذي قبض ثمن عمالته من اليهود .

---

(١) عن صحيفة الجيروزالم بوست . فبراير ١٩٨٧ .

هذا ولا تزال الهجرة اليهودية مستمرة إلى فلسطين دون انقطاع من المؤتمر الصهيوني الأول وحتى الآن . فماذا يا ترى كان يفعل المسلمون أمام هذا العمل المنظم ؟ .

نجد أن سلاح المسلمين كان الاحتجاج الذي لم يكن يساوي ثمن الورق الذي يكتب عليه ... احتجاج لدى المندوب السامي .. احتجاج إلى وزير المستعمرات - احتجاج لدى حكومة جلالة الملك .. وفد فلسطيني يتشكل لعرض عدالة قضية شعب فلسطين أمام الرأي العام البريطاني . وكانت هناك المؤتمرات العربية في دمشق ثم في القدس ونابلس ويافا التي كانت تخرج بقرارات لا تنفذ لأنه لا يوجد من ينفذ أو من يريد التنفيذ فقد كان المسلمون يفتقرون إلى القيادة الحازمة وإلى التنظيم الذي يستطيع أن ينفذ هذه القرارات ، وفي كثير من الأحيان كانت هذه المؤتمرات تنفض دون التوصل إلى قرار لأن المجتمعين لم تكن تجمعهم أي رابطة وكانوا يرشحون لحضور المؤتمر نتيجة لأوضاع عائلية وقبلية ووجاهية دون النظر إلى كفاءاتهم وإخلاصهم وجهادهم . ولذلك كانت مصالحهم الذاتية أهم من مطالب الأمة . واستمر هذا الحال إلى حوالي سنة ١٩٣٦ حينما أصبح الحاج أمين الحسيني رئيسا للجنة العربية العليا التي تشكلت من مختلف الأحزاب الفلسطينية وأصبح بيده الحل والعقد . ولكن هذا الوضع جاء متأخرا جدا . فقد كان اليهود قد قطعوا شوطا بعيدا نحو تحقيق أهدافهم ، ولكن وحتى بعد إيجاد هذه القيادة إلا أن القاعدة لم تكن بتلك المتانة فقد شكلت لجنة قومية في كل قرية في فلسطين تقريبا ولكن الرابطة فيها كانت هشة والتعبئة كثيرا ما كانت تقوم على الخطب الحماسية دون تعميق الولاء والوعي الإسلامي لطبيعة الصراع ودون مستوى الإعداد العسكري اللازم والتنظيم الجيد ولذلك لم تستطع الاستمرار والنمو نحو تحقيق أهدافها وكثيرا ما كانت الثورات تقوم في فلسطين بدون تخطيط مسبق من قبل الفلسطينيين ، وكانت نتيجة احتكاك يقوم به اليهود في هذه المناسبة أو تلك ، أو نتيجة لخطبة حماسية في المسجد الأقصى أو في المواسم أو حادث احتكاك في إحدى المدن ردا على بعض المواقف اليهودية ولنضرب أمثلة على ذلك :

أحداث ١٩٢٠ أو أحداث النبي موسى :

كان لحالة الإحباط التي شعر بها المسلمون بعد أن خذلتهم بريطانيا بعد نجاحها في الحرب العالمية دافع رئيس في تغيير طبيعة العلاقة بين المسلمين وبين بريطانيا الحليفة السابقة وصاروا ينظرون إليها بعين الشك والارتياب وقد كان موسم النبي موسى وهو موسم استحدثه القائد البطل صلاح الدين الأيوبي ليكون نوعا من استعراض القوة أمام الصليبيين وذلك في يوم عيد الفصح عند النصارى ليريهم قوة المسلمين .

وكانت مسيرة حاشدة تنطلق من المسجد الأقصى حتى منطقة النبي موسى على طريق أريحا مسافة ٢٠ كم تقريبا . وظل هذا الموسم مستمرا إلى يومنا هذا . وفي سنة ١٩٢٠م انطلقت الجماهير بعد سماعها عدة خطب في المسجد الأقصى المبارك . وفي الطريق إلى المسار التقليدي تعرض الموكب للاحتكاك من قبل اليهود الذين جاءوا يشاهدون الموكب فهاج الناس وأخذوا يضربون اليهود في كل اتجاه ، وقامت قوات الشرطة الإنجليزية بقمع المتظاهرين وكانت نتيجة الحدث قتل خمسة من اليهود وأربعة من العرب وأصيب ٢٤٢ منهم سبعة جنود بريطانيين و٢٨ عربيا والباقي من اليهود . وعلى أثر ذلك صدرت أحكام مختلفة على مجموعة من الناس فحكم الحاج أمين الحسيني وعارف العارف بالإعدام(ثم صدر عفو عام عنهما بعد مدة) وحكم على عدد آخر بمدد سجن مختلفة . وقد تنبأ هربرت صمويل (المندوب السامي البريطاني) بدور أكبر لرجال الدين المسلمين في المستقبل لقدرتهم على تحريض الجماهير .

أحداث البراق ١٩٢٩م :

ترجع أسباب هذه الثورة أيضا إلى احتكاك ديني مباشر له علاقة بحائط البراق الذي يعتبر جزءا من المسجد الأقصى المبارك وقد ظل وضعه منذ الفتح الإسلامي حتى عام ١٩٢٨م كما هو لم يتغير . واليهود يعتبرونه من بقايا هيكلهم ليجتمعون عنده ليبكوا ويندبوا الهيكل ولذلك يسمونه حائط المبكى بينما يسميه المسلمون حائط البراق لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ربط به البراق الذي أسرى

عليه من مكة إلى القدس وقد كان المسلمون يسمحون لليهود بالذهاب إلى حائط البراق والصلاة عنده والبكاء دون أن يقيموا أي مبانٍ أو حواجز قد تؤدي إلى ادعاء اليهود ملكية هذا الحائط ، وفي عام ١٩٢٨ قامت مجموعة من أتباع جابوتنسكي (الحزب التصحيحي) بمحاولة لوضع ستار يفصل الرجال عن النساء وأمرت الحكومة بازالة هذا الحاجز الفاصل كوسيلة لحفظ الهدوء. ولكن هذا العمل نبه المسلمين إلى نوايا اليهود الخبيثة وقد شكى الحاج أمين الحسيني هذا الأمر للمندوب السامي وأن اليهود يأتون بالمقاعد والمناضد بأعداد متزايدة إلى الحائط ويدقون المسامير ويعلقون الصلبان عليها وهذا يشكل إخلالا بالوضع الراهن الذي كان حكم الكتاب الأبيض بشأنه قاسيا تماما» (١) .

وفي الرابع عشر من آب ١٩٢٩م كانت تظاهرة في تل أبيب بمناسبة ذكرى تدمير هيكل سليمان ، وفي اليوم الثاني قام أتباع جابوتنسكي (الحزب التصحيحي) بمسيرة في القدس عند حائط البراق ورفعوا العلم اليهودي وأنشدوا النشيد القومي (هاتكفا) وشتموا المسلمين . هذا الاحتكاك كان من شأنه استثاره الشعور الإسلامي لدى المسلمين ، ففي اليوم التالي وكان يوم جمعة حيث ألقى الشيخ حسن أبو السعود - أحد شيوخ المسجد الأقصى المبارك ومن أشد المقربين إلى الحاج أمين الحسيني - خطابا حماسيا ألهب مشاعر المسلمين فحطموا منضدة اليهود عند حائط البراق وأحرقوا الأوراق التي يضعها اليهود في شقوق الحائط ، وفي السابع عشر من آب نشب شجار بين شاب عربي وشاب يهودي انتهى باصابة الاثنين إصابات مختلفة ، ولدى وصول قوة من الشرطة ألقت القبض على العربي المتهم ببدء أول حادث دموي فهاجم جمهور من اليهود فأصاب المعتقل العربي وكذلك واحدا من أفراد البوليس البريطاني بجروح مختلفة ، ثم قام الجمهور اليهودي بالاعتداء على منازل العرب في المنطقة المجاورة وأصابوا بعض سكانها بجروح في عضون الأيام الأربعة التالية التي تلت القبض على عدد من العرب واليهود داخل القدس وخارجها وفي العشرين من آب عندما

---

(١) الموجز في تاريخ فلسطين الحديث . عبد الوهاب الكيالي .

توفي الشاب اليهودي الجريح تحولت جنازته إلى مسيرة سياسية ضد الحكومة والعرب على السواء ، وجاء المسلمون في الجمعة التالية إلى المسجد الأقصى من كل صوب مسلحين بالهراوات والعصي وشنوا هجوما على اليهود بالعصي والمسدسات والسيوف ، وفتح البوليس البريطاني النار على المتظاهرين وحلقت الطائرات فوق القدس . وفي الساعة الرابعة من مساء ذلك اليوم كانت السيارات المدرعة البريطانية تجوب شوارع القدس وعاد الهدوء إلى البلدة القديمة ولكن إطلاق النار على الأحياء اليهودية ظل مستمرا ، كذلك استمرت الغارات على المستعمرات اليهودية في مناطق تقع على بضعة أميال من القدس ، وعندما وصلت أنباء اضطرابات القدس إلى نابلس والخليل قامت الجماهير الهائجة بمظاهرات صاخبة ، وفي إحدى الهجمات على إحدى المدارس اليهودية في الخليل قتل يهودي واحد ، وفي اليوم الثاني قام المسلمون في الخليل بهجوم على الحي اليهودي وعلى المنازل اليهودية المعزولة المتفرقة الواقعة بعيدا عن أحياء المدينة المزدحمة فقتل أكثر من ستين يهوديا وجرح أكثر من خمسين ، وفي اليوم نفسه قام جمهور من العرب بمحاولة عنيدة لانتزاع الأسلحة من أحد مراكز البوليس في نابلس فنشبت اضطرابات عنيفة بسبب إطلاق النار على الجمهور . وفي بيسان شن العرب هجوما على اليهود ، وفي يافا قامت اضطرابات مماثلة تخللها هجوم على عدة معسكرات يهودية . وفي الخامس والعشرين والسادس والعشرين من آب شن العرب هجوما على المناطق اليهودية البعيدة نسبيا وقامت كذلك هجمات متفرقة على بعض المستعمرات اليهودية وكان تدمير هذه المستعمرات كاملا في ست حالات . ونشبت اضطرابات في الحي القديم في حيفا رافقتها عدة غارات على الضاحية اليهودية في المدينة ، أما في يافا فقد أطلق ضابط بوليس النار على جمهور العرب وبذلك نجح في صد الهجوم على الحي الواقع في يافا وتل أبيب . وفي هذا الحي وقع أسوأ حادث هجوم يهودي على العرب وقتل فيه إمام أحد المساجد وستة أشخاص آخرين في السادس والعشرين من آب وقع هجوم آخر على مسجد عكاشة في القدس وأصيب المسجد بأضرار بالغة وانتهكت قدسية أضرحة الأنبياء التي يضمها . وفي التاسع والعشرين من آب شن العرب هجوما على الحي اليهودي في صفد حيث قتل وجرح ٤٥

يهوديا وأضرمت النار في عدة منازل وحوانيت يهودية . وقد بلغ مجموع القتلى من اليهود ١٣٣ نسمة وبلغ عدد الجرحى ٣٢٩ بينهم ١٩٨ إصابة بالغة استوجبت إدخال أصحابها إلى المستشفيات ، أما العرب فقد بلغ عدد قتلاهم ١١٦ نسمة بينما بلغ عدد الجرى ٢٧٢ جريحا» (١) .

إضراب ١٩٣٦ أو الثورة الفلسطينية الكبرى :

ربما اختلفت هذه الثورة عن سابقتها في أنها جاءت بعد شيء من التخطيط وكانت تسير تحت قيادة موحدة ممثلة في الحاج أمين الحسيني كرئيس للجنة العربية العليا التي شكلت من جميع الأحزاب الفلسطينية إلا أنها جاءت كرد فعل لأحداث سابقة وظروف صنعها اليهود ولم ينضج العمل التنظيمي نضوجا جيدا وتحتاج هذه الثورة إلى تحليل أوسع ولكن في هذا المقام نعرج على الخطوط الرئيسية .

فمن أسباب ومقدمات الثورة نجد أن :

١- تزايد أعداد المهاجرين اليهود في السنوات السابقة نتيجة هجرة اليهود الألمان بعد أن استولى هتلر على دفة الحكم في ألمانيا فقد هاجر إلى فلسطين من اليهود في عام ١٩٣٣ خمسة وثلاثون ألفا من اليهود وفي سنة ١٩٣٤م أربعون ألفا وفي سنة ١٩٣٥م اثنان وستون ألفا . وهذا بالطبع زاد من مخاوف المسلمين حينما رأوا هذه الأعداد الكبيرة وبدأوا يحسون أن اليوم الذي يصبحون فيه أقلية بات قريبا .

٢- الضغط الاقتصادي الذي ولده قدوم هؤلاء المهاجرين بحيث أصبحت البطالة بين اليهود أنفسهم وتعاملت الحركة الصهيونية بشكل عنصري بحيث جعلت أصحاب العمل اليهودي لا يسمحون للعمال العرب بالعمل في مصالحهم مما أدى إلى شعور العمال بالخطر اليهودي شعورا متزايدا وهؤلاء كانوا في السابق أقل بصيرة من

---

(١) من كتاب الموجز في تاريخ فلسطين الحديث . عبد الوهاب الكيالي بتصرف .

المثقفين إلى مخاطر الصهيونية ولكن حين شعروا بالخطر يهددهم في لقمة العيش وجدوا أن كل ما قاله لهم زعماؤهم صحيحا .

٣- ازدياد تسرب الأراضي إلى أيدي اليهود وانتشار فئة السماسرة والجواسيس أشعر الفلاحين في القرى بما يتهددهم في المستقبل من النزوح عن أراضيهم وعدم قدرتهم على مزاحمة رؤوس الأموال الكبيرة التي يجلبها معهم اليهود والتسهيلات الممنوحة لليهود من دولة الانتداب .

٤- يأس المسلمين من بريطانيا التي كانوا ينظرون إليها كحليف في السابق وكانوا طيلة المدة السابقة بعد غدرها بهم بعد الحرب العالمية الأولى يسعون إلى صداقتها ساطمعا في أن يكسبوا رضاها وتعاطفها مع أمانيهم أو خوفا من بطشها، وشعورا بعجزهم أمام قوتها الغاشمة فقد كانت في ذلك الوقت أكبر امبراطورية في الدنيا .. هذه السنون التي مرت لم تزد المسلمين إلا قناعة بأن بريطانيا عدوهم اللدود وأنه لولا بريطانيا لما استطاع اليهود أن يجدوا لهم موطىء قدم في فلسطين .

٥- تبلور قيادة فلسطينية قادرة إلى حد ما على توجيه الجماهير في كل أنحاء البلاد فقد غدا الحاج أمين الحسيني الزعيم المسموع الكلمة في فلسطين كلها من خلال حزبه المنتشر في كل أنحاء البلاد وإن كان هذا الانتشار هشا ويقوم في الغالب على الخطب الحماسية التي يلقيها خطباء المساجد الذين يحركهم الحاج أمين الحسيني من خلال رئاسته للمجلس الإسلامي الأعلى .

٦- كان لثورة الشيخ عز الدين القسام المسلحة وإن كانت قصيرة العمر أثرها في إذكاء روح المقاومة وفي إحراج الزعماء الذين كانوا لا يؤمنون بالتفاوض وسنفرد فصلا خاصا لدراسة هذه الثورة وتقييمها .

هذه العوامل مجتمعة متشابكة أدت إلى الانفجار الذي حصل في ابريل سنة ١٩٣٦ والذي قام على أثره المسلمون بالإضراب لمدة ستة شهور وامتدت حرب العصابات ضد الإنجليز واليهود على السواء ثلاث سنوات من سنة ١٩٣٦ - سنة ١٩٣٩م .

أعلن الإضراب في ابريل سنة ١٩٣٦ وقد شل كل أنحاء فلسطين واستثنى من

ذلك المطاحن والمواني والأفران لكي تحافظ على قوت السكان ، وشل الإضراب فلسطين شللا تاما ، وبعد شهرين من الإضراب تكونت الهيئة العربية العليا برئاسة الحاج أمين الحسيني وأصبحت تشرف على الإضراب وتوفير الحاجيات اللازمة للناس وبدأت عصابات المجاهدين في العمل في الجبال وقد استطاع المفتي أن يتصل ببعض الضباط السوريين لتدريب المجاهدين وأصبح المجاهدون يعملون في عدة محاور في الجليل وفي جبال جنين ونابلس وفي منطقة يافا وفي المنطقة الجنوبية وفي الخليل وبدأت عصابات المجاهدين بالتعرض للقوافل البريطانية واقتناص الجنود الإنجليز واليهود على الطرق الجبلية الضيقة وقامت بالإغارة على المستوطنات اليهودية وشارك في هذه الإغارة مجموع الفلاحين فخرب الكثير من المستعمرات وأتلف أشجارها وزرع الكثير من الألغام وخربت خطوط المواصلات وخطوط السكك الحديدية ، ولكن بريطانيا استدعت جنودا إضافيين حتى أنه في وقت ما بلغ الجيش البريطاني في فلسطين ثمانين ألف جندي مزودين بأحدث الأسلحة بما فيها الطائرات .. وهذا جيش ضخم إذا ما قيس بحجم السكان المحليين (المسلمين) الذين لم يصلوا إلى المليون نسمة في ذلك الوقت . هذا بالإضافة إلى مشاركة المستوطنين اليهود الذين كانوا منظمين جيدا ومدربين على السلاح إما في البوليس البريطاني أو في منظمة الهاجانا ، ولكن المقاومة ظلت مستمرة ولم يقبل المفتي بأقل من وقف الهجرة وإقامة دولة مستقلة في فلسطين ، وهنا سعت بريطانيا لاعتقاله فاعتصم فترة في المسجد الأقصى ثم تسلل هاربا إلى لبنان وأخيرا اضطر المسلمون إلى وقف الإضراب نتيجة للإرهاق الطويل وقلة الموارد .

فقبل الفلسطينيون وقف الإضراب بناء على نداء وجه إليهم الملوك العرب في ذلك الوقت ولكن الثورة المسلحة ظلت مستمرة حتى سنة ١٩٣٩ حيث أجهضت تماما نتيجة للظروف السياسية غير المواتية،غياب قيادة الثورة عن الساحة وانعدام التنظيم الجيد بالإضافة إلى كبر حجم القوة الغاشمة والإصابات الكثيرة في القيادات العسكرية الميدانية التي كان آخرها استشهاد عبد الرحيم الحاج محمد وهو أشهر قائد عسكري في الثورة .

وعند اندلاع الحرب العالمية الثانية كان المجال جيدا أمام الفلسطينيين لأن يبدأوا ثورة تنتهي بتحررهم لانشغال بريطانيا في حربها مع ألمانيا النازية ولكن غياب القادة عن فلسطين وغياب التنظيم والتعبئة الجيدة وبشكل أكثر خطورة إصدار بريطانيا للكتاب الأبيض سنة ١٩٣٩ الذي تعهدت فيه بريطانيا بتخفيف الهجرة وإنهائها بعد خمس سنوات كتحذير للعرب ، وبذلك سحبت فتيل الاشتعال من نفوس الفلسطينيين فتحول الفلسطينيون من ثوار إلى عمال في معسكرات جيش الاحتلال ، وإلى جنود يخدمون الامبراطورية البريطانية .

ولكن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وإعلان بريطانيا عن تخليها عن الكتاب الأبيض كان على الفلسطينيين أن يعيدوا تنظيم صفوفهم ويبدأوا من جديد ، ولكن هذا لم يحدث إلا بعد صدور قرار التقسيم في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ وحينها شعر الفلسطينيون ثانية بالخطر وبدأوا في التصدي لمخططات البريطانيين واليهود ولكن بعد فوات الأوان فقد سبقهم اليهود في التخطيط والإعداد بفترة طويلة وكانت قوات اليهود في ذلك الوقت تقدر بستين ألف جندي حسن التدريب وكانوا يملكون مصانع السلاح في تل أبيب ، كل هذا أو معظمه كان خافيا على العرب ، ولقد تحلى اليهود طيلة الفترة السابقة بقدرة عجيبة على ضبط النفس ، فلقد كانوا مدججين بالسلاح ولكنهم لم يستعملوا كل قواتهم حتى حين كانت مزارعهم تقتلع وتخرب حتى لا يشعر العرب بمدى استعدادهم بينما كان الفلسطينيون يتباهون بأتفه الأشياء ويحولون أي عمل صغير إلى أمجاد وبطولات .

وهذا الأمر أظهر اليهود طيلة الفترة السابقة بمظهر الضعفاء الذين هم بحاجة إلى العطف وأظهر المسلمين كمتطرفين ودمويين مما أفقدهم عطف العالم مع أن العكس هو الصحيح .

وحدثت معارك سنة ١٩٤٨ ورأينا نفس الظاهرة اليهود في موقع التخطيط والمبادرة ، يعلنون دولتهم في الوقت الذي يريدون ويجهزون خططهم والمسلمون في موقع رد الفعل يبدأون بلا خطة ولا إعداد ، وكان لسان حالهم تلك المقولة المشهورة «على النجدة هيا يا رجال» ولقد كانت هذه العبارة تتردد في قرى فلسطين كثيرا

وبالذات في معارك سنة ١٩٤٨ فقد كان اليهود يهاجمون القرى غير المحصنة جيدا فترسل هذه القرى في طلب النجدة من القرى المجاورة ، فيهب الفلاحون بما يملكون من أسلحة ضعيفة وتدريب أضعف لنجدة هذه القرى ، وكثيرا ما أبدوا بطولات ولكن أنى لهذا أن يصمد في وجه جيش منظم مجهز بأسلحة أفضل وقيادة منظمة ، وكانت النتيجة الحتمية لهذه الحرب هي الفشل العربي في مواجهة اليهود ، فشل الارتجال في مواجهة التخطيط - مما أدى إلى النكبة الأولى لعام ٤٨ التي ضاع فيها أكثر من ٨٠ ٪ من أراضي فلسطين .

** ثم في سنوات ما بعد النكبة جاء تكوين منظمة فتح كرد فعل للهجمات الإسرئيلية على قطاع غزة مما أدى إلى مظاهرات الطلبة التي تبلور على أساسها فكر قادة فتح وظلت فتح قليلة العدد والتأثير حتى جاءت حرب سنة ١٩٦٧ وبمنطق رد الفعل أيضا نمت المقاومة الفلسطينية نموا سريعا بدون إعداد وتخطيط جيد ، مما أدى بها إلى الدخول في صراعات مع الدول العربية لم تحسب لها حسابا بحيث صرفتها هذه الصراعات في النهاية عن القيام بدورها في مواجهة إسرائيل وأدخلتها في متاهات لا نهاية لها كما يحصل الآن في لبنان .

أما بالنسبة للمخطط الثالث وهو تكوين صندوق الدعم اليهودي الذي تكفل بتمويل إقامة الدولة اليهودية فقد قام اليهود بمجهودات صارمة في هذا السبيل فأسسوا عدة صناديق ومؤسسات مالية كل منها يختص بجانب من جوانب الدعم وكلها تصب في نفس التيار وهو بناء الوطن القومي ، ونضرب بعض الأمثلة :

١- الكيرن هايسود (صندوق الدعم اليهودي) وهو أحد الطرفين الرئيسين في بناء الوطن القومي .

٢- صندوق الرهن العقاري الزراعي الذي شارك مشاركة فعالة في شراء أرض «مرج ابن عامر» وإيجاد مستوطنة نهلال .

٣- مؤسسة هداسا وكانت تجمع التبرعات لإقامة الخدمات الصحية في فلسطين ولا تزال تقوم بأكبر الخدمات الصحية في الكيان الصهيوني وقد جمعوا عن طريق هذه

المؤسسات أموالا طائلة ساهمت في شراء الأراضي وإقامة المستوطنات والمصانع والمؤسسات التعليمية والصحية قدرت هذه الأموال بالملايين في البداية ثم بمئات الملايين ثم بالمليارات ولا تزال إلى اليوم تمد الكيان الصهيوني بالمال اللازم لمواصلة حياته ولعل الإنسان يتساءل . لقد عرف اليهود بالبخل وحب المال فلماذا دفعوا كل هذه التبرعات لبناء دولتهم ، والواقع أن هذه الظاهرة بحاجة إلى وقفة للتأمل . فمن يقرأ مذكرات قادة الصهيونية يجد المعاناة التي كابدوها في سبيل الحصول على هذه الأموال فكثيرا ما كانت هذه الأموال تجمع بالإكراه والتهديد وفرض الإتاوات أحيانا باستغلال دافع حب الشهرة لدى المتبرعين ، وهذه الظاهرة يلمسها كل من يشاهد أي مؤسسة عامة في إسرائيل كالمستشفيات أو الكنيست وما إلى ذلك ، فكل غرفة مكتوب عليها اسم من تبرع بها وكل مستوطنة مكتوب عليها اسم من اشترى أرضها أو ساهم في ذلك ، وكذلك كل مصنع للقطاع العام وكل كيبوتس ... إلخ .

ومن ناحية أخرى فقد استطاع القادة الصهاينة الحصول على إذن من الحكومة الأمريكية باعتبار كل تبرع للمنظمة الصهيونية كأنه تبرع لمؤسسة خيرية أمريكية ولفهم هذه الظاهرة لابد لنا من توضيحها .. من المعروف في نظام الضرائب الأمريكي أن الدخل يخضع لنظام الضريبة التصاعدية فمثلا إذا كان الدخل يساوي عشرة آلاف دولار فإن الضريبة تكون مثلا ٥ ٪ وإذا زاد الدخل إلى عشرين ألفا دولار كان الضريبة في العشرة آلاف الجديدة ١٠ ٪ وإذا زاد الدخل إلى ثلاثين ألف دولار كانت الضريبة في العشرة آلاف الثالثة ١٥ ٪ وهكذا إلى أن يصل الحال إلى ضريبة بواقع ١٠٠ ٪ على شرائح معينة فاذا وصل هذا الدخل إلى تلك الشرائح أصبح كله ملكا للدولة . وهذا يعلل كيف أن بعض ذوي الدخل الجيد يعملون نصف العام فقط لأنهم لن يستفيدوا كثيرا من العمل في النصف الآخر من العام . ومن ضمن النظام الضرائبي الأمريكي تستثنى التبرعات التي يقدمها صاحب الدخل إلى المؤسسات الخيرية من ضريبة الدخل أي وتحسب هذه التبرعات في كثير من الأنظمة من دفعات هذه الضريبة . وهذه النقطة تفسر أيضا كثرة المؤسسات الخيرية في المجتمعات الرأسمالية لأنها تحصل على التبرعات من الأغنياء الذين يحسون بأن هذا المال سيذهب إلى الدولة إذا لم يدفع

لهذه المؤسسات . وبالطبع هذا يكون في حدود معينة . وحصول اليهود على اعتبار المنظمة الصهيونية مؤسسة خيرية أمريكية جعل أغنياء اليهود الأمريكيين يبعثون بكل تبرعاتهم إلى الصناديق اليهودية مفضليها على وطنهم أمريكا . فهم بذلك لا يخسرون شيئا ، وفي نفس الوقت يدعمون المؤسسات اليهودية .

وإذا علمنا مدى تسلط اليهود وأغنيائهم على رأس المال الأمريكي عرفنا كيف تتدفق الأموال الأمريكية على إسرائيل .

** نقول في الوقت الذي تدفقت فيه هذه الأموال كسيل لا نهاية له على اليهود لبناء الوطن القومي فاننا نجد أن محاولات المسلمين للحصول على الدعم اللازم للمحافظة على الأراضي العربي أو لشراء الأسلحةودعم المجاهدين كانت واهنة ضعيفة ، لقد حاولت اللجنة التنفيذية برئاسة موسى كاظم باشا الحسيني ومن بعدها الهيئة العربية العليا برئاسة الحاج أمين الحسيني حاولت القيام بجمع التبرعات وأسست بعض المؤسسات كصندوق الأمة للمحافظة على الأراضي وكصندوق أسر الشهداء كرد فعل وتقليد لما قام به اليهود . ولكن هذه الأموال المجموعة لم تكن لتساوي شيئا أمام السيل المتدفق من المال اليهودي . ولنضرب مثالا :

في أعقاب أحداث سنة ١٩٢٩ ذهب الفلسطينيون إلى العالم الإسلامي ليجمعوا التبرعات لدعم العائلات الثكلى وتعويض الخسائر فجمعوا مبلغ أربعة عشر ألف جنيه واشترط بعض الحكام العرب حين تبرع بمبلغ مائتي جنيه أن يكتب له شكر في الجريدة مقابل ذلك .

وذهب اليهود للغرب لنفس الغرض فجمعوا من يهود أمريكا مبلغ خمسين مليون جنيه ، وكذلك الحال في عام ١٩٤٨ كانت التبرعات تفد على الشعب الفلسطيني بالقطارة بينما تنهال المساعدات على اليهود بالمال والسلاح والرجال المدربين من كل يهود العالم ، ولا ننسى أن هناك عامل هام آخر وهو أن دولة الاحتلال (بريطانيا) وقد كانت تحتل معظم العالم الإسلامي كانت تمنع وتقف في وجه الكثير من التبرعات التي يقدمها المسلمون لدعم فلسطين ولكن ذلك لا يغطي الحقيقة من أن وعي المسلمين واستعدادهم للتضحية من أجل فلسطين كان دون المستوى المطلوب .

** خلاصة القول أنه في مسألة الدعم الاقتصادي والمؤسسات الاقتصادية أن المسلمين في فلسطين كانوا يقومون بتأسيس هذه المؤسسات كرد فعل لما يقوم به اليهود من مؤسسات ولكن رد الفعل هذا كان ضعيفا ولم يستطع أن يوازي الدعم اليهودي .

في نهاية هذا الباب نجد أن سياسة التخطيط والبناء والعمل والجهد المنظم مكنت اليهود من تحقيق أطماعهم وانتصاراتهم المتتالية على العرب بينما قادت سياسة رد الفعل والانفعال والحماس المؤقت والفوضى الفكرية وضياع التخطيط العربي إلى التراجع والهزيمة في كل المعارك التي خاضوها . لقد وصل المسلمون لدى قيام دولة إسرائيل إلى قاع المنحنى الحضاري ولابد من النهوض والتحرير ، ولابد من بناء متكامل وعمل مخطط دؤوب في جميع مجالات الحياة ولابد من استلام زمام المبادرة بحيث نصبح نحن الذين نسير الأحداث في اتجاهنا الذي نريد .

باختصار يجب أن نخرج من دائرة رد الفعل والانفعال والحماس الوقتي وندخل في دائرة الفعل والتخطيط والمبادرة .

الباب الرابع

القضية الفلسطينية والحلول الترويضية المطروحة

الباب الرابع

القضية الفلسطينية والحلول الترويضية المطروحة

منذ أن بدأ الاحتلال البريطاني لفلسطين وتبني هذا الاحتلال لوعد بلفور وتحقيق الحلم اليهودي باقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين واجه الاحتلال البريطاني والحركة الصهيونية معضلة وجود الشعب الفلسطيني وكيف سيتصرفون معه . وكيف سيقوم الوطن القومي لليهود على حساب الفلسطينيين ، هل سيقبل الفلسطينيون بالأمر الواقع : . كيف سيتم ترويض هذا الشعب وجعله يقبل بالوجود اليهودي ؟؟ لقد كانت هذه المشكلة مصدر الأرق بالنسبة لبريطانيا وحتى قيام دولة إسرائيل ، ولا تزال مشكلة الوجود الفلسطيني هي لب المشاكل التي تواجه الدولة اليهودية على الرغم من التفوق اليهودي والضعف الفلسطيني .. إن السارق لا يستطيع أن ينام في الوقت الذي يعلم فيه أن صاحب الحق موجود وأنه يعرف السارق وأنه لابد من يوم يأتي ليسترد فيه حقه .

لقد مكث الاحتلال البريطاني في فلسطين ثلاثين سنة جرب فيها عشرات الوسائل لتطويع الشعب الفلسطيني وعرض عليه عشرات الحلول كلها تحمل طابعا واحدا وهدفا واحدا هو جعل هذا الشعب يقبل طواعية بالوجود اليهودي الغريب على أرضه ، وبعد قيام دولتهم لا يزال اليهود يضعون الخطط والعروض والمبادرات ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب ، ظاهرها المطالبة بالسلام وفي حقيقتها يقبلون بوجود دولة اليهود على أرضهم !! . يريدون من الفلسطينيين أن يوقعوا بمحض إرادتهم على أن فلسطين ليست وطنهم وإنما هي وطن لليهود .. وفي هذا التيار يصب العالم الصليبي بأجمعه بقيادة أمريكا والعالم الشيوعي بأجمعه بقيادة الاتحاد السوفيتي والدول العربية المهزومة بقيادة الحكام الفجرة ..

وأخيرا يصب في هذا التيار بعض الفلسطينيين ، إما عمالة مع العدو ، أو عجزا وضعفا وتخاذلا . ولم يبق هناك أمل في وجه هذا التيار الجارف إلا في شباب الحركة الإسلامية باعتمادهم على الله وفي وعيهم لطبيعة دورهم وتصديهم لكل هذه

المخططات وفي هذا الباب سنستقرىء المحاولات والمبادرات لنجد إلى أين يقودنا دعاة السلام هنا وهناك .

— ١ —

المجلس الاستشاري

«يبدو أن الإنجليز اعتقدوا أن اشتراك عدد من أبناء البلاد في إدارتها سيخفف من غضبهم فأعلنوا أنهم يعتزمون استشارة السكان في إدارة البلاد . وقد أسس بالفعل في أكتوبر سنة ١٩٢٠ مجلسا استشاريا من عشرة أعضاء رسميين هم من أعضاء حكومة فلسطين (إنجليز) . وعشرة غير رسميين يعيّنهم المندوب السامي البريطاني أربعة من المسلمين وثلاثة من المسيحيين وثلاثة من اليهود ولكنهم عادوا فعدلوا عن الفكرة عندما أيقنوا أن العرب لم يتحمسوا لها» (١) .

ونظرة عجلى على طبيعة هذا المجلس المقترح نجد أن المسلمين لهم أربعة أعضاء مقابل ثلاثة لكل من اليهود والنصارى في الوقت الذي كان فيه اليهود لا يشكلون ٥ ٪ من السكان وكذلك النصارى وهذا يوضح تصميم بريطانيا على تنفيذ وعد بلفور وعلى هضم حقوق المسلمين منذ البداية . وكان رفض الفلسطينيين المسلمين لمثل هذا المجلس أمرا طبيعيا ، فهو يحرمهم من كل حقوقهم في الاستقلال ويجعلهم مساوين للقلة من اليهود الدخلاء على بلادهم .

كان من أول مطالب العرب بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى الاستقلال الذي وعدهم به الإنجليز ولكن العرب استيقظوا من سكرتهم ليجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام وجه بريطانيا القبيح وكل الحقد الصليبي والصفات الاستعمارية .. وجدوا تنكرا للعهود وتمهيدا آخر لليهود بأن يقيموا لهم وطنا قوميا في فلسطين .

بدأت المؤتمرات العربية في دمشق أولا حين كان يحكمها فيصل بن الحسين قائد الثورة على الأتراك المسلمين .. وحين احتلت فرنسا دمشق تحولت هذه المؤتمرات

---

(١) تاريخ بيت المقدس . عارف العارف ص ٣٩٢ .

إلى فلسطين . إلى نابلس والقدس وحيفا ويافا وحاولت هذه المؤتمرات تأصيل فكرة رفض الوطن القومي اليهودي ورفض وعد بلفور فقامت في فلسطين أحداث النبي موسى التي مر ذكرها وتوجه وفد إلى لندن ليشرح وجهة نظر الفلسطينيين أمام الرأي العام البريطاني في ١٩٢١/٨/١٤م - وكأن الإدارة الاستعمارية في فلسطين لا تمثل الرأي العام البريطاني - .

— ٢ —

المجلس التشريعي

وخلال وجود الوفد الفلسطيني في لندن استقر رأي الإدارة البريطانية في فلسطين على إنشاء مجلس تشريعي مؤلف من ٢٢ عضوا يكون عشرة منهم من أعضاء المجلس الاستشاري ويكون الاثنا عشر الآخرون منتخبين على النحو التالي ثمانية من المسلمين واثنان من النصارى واثنان من اليهود . وقد وصل المشروع إلى لندن لأخذ موافقة الوفد عليه ، ولكن الوفد الذي ذهب من أجل الاستقلال وقيام حكومة فلسطينية ، رفض المشروع لأن أكثر من نصف أعضاء المجلس كانوا من الإنجليز واليهود ولأن صلاحيات الحكومة كانت استشارية ولأن المجلس محروم من حق التصويت في الأمور الهامة كالهجرة والميزانية والضرائب والأراضي . وكان المشروع يخول المندوب السامي حق تعطيل المجلس وحله وإصدار القوانين التي يريد دون اعتبار إرادته وقراراته . ولم يكن غريبا أن يقبل اليهود بمثل هذا المشروع» (١) .

والأهم من كل ما سبق أن المجلس التشريعي ممنوع من مناقشة وعد بلفور صفته تعهدا . وكذلك يعد المجلس شكلا من أشكال الإدارة الذاتية المقيدة بشتى القيود بحيث يعطى للمسلمين في فلسطين تمثيلا شكليا يسترضي عواطفهم كأنهم شاركون في حكم البلاد وفي نفس الوقت يكرس الآتي :

١ - إعطاء الشرعية للاحتلال البريطاني لتنفيذ قرارات وعد بلفور وغيره من القوانين تحت غطاء من المجلس وإعطاء الشرعية لبيع الأرض والاستيطان .

---

(١) المقاومة العربية في فلسطين . تأليف ناجي علوش ص ٥١ - ٥٢ .

٢- إظهار حكومة بريطانيا على أنها أعطت العرب ما يطلبون وأنهم ممثلون في الحكومة .

٣- امتصاص غضب الجماهير الفلسطينية حتى لا تطالب بحقوقها ولا تقف في الاستيطان اليهودي والمشاريع الصهيونية الإنجليزية .

٤- تكريس الوجود اليهودي من خلال المؤسسات اليهودية كالوكالة اليهودية والمصا والمدارس والهجرة الواسعة .

٥- كان أكثر أعضاء المجلس من الإنجليز واليهود والمندوب السامي منهم وه صهيوني بيده أمور البلاد والتشريعات .

لذلك رفضت اللجنة التنفيذية العربية هذا المجلس ورفض العرب الذين عي الاشتراك فيه .

— ٣ —

مشروع الوكالة العربية

وفي الثالث عشر من أكتوبر سنة ١٩٢٣ طلب المندوب السامي من العرب تأليف وكالة عربية لها ما للوكالة اليهودية من الصلاحيات فرفض العرب ذلك لأنه لا توجد فائدة حقيقية تعود على العرب منه ، وفي ديسمبر سنة ١٩٢٣ أنشأت الحكومة مجلسا استشاريا مؤلفا من كبار الموظفين الإنجليز وتابعت حكم البلاد دون النظر إلى رأي الشعب الفلسطيني ، ورفضت ما طلبه العرب من إنشاء حكومة وطنية متعللة في ذلك بتعارض مع الوعود التي أعطيت لليهود في دورتين متتابعتين لاجتماع عصبة الأمم سنة ١٩٢٤م وسنة ١٩٢٥م .

— ٤ —

لجنة وولترشو

ولما عين السر جون تشانسلور في ديسمبر ١٩٢٨ مندوبا ساميا في فلسطين أولى مسألة الحكم الذاتي اهتمامه بعد أن أخذ رأي السكان ورأى أصحاب البلاد وعلم

وقعت الاضطرابات في آب ١٩٢٩ تأجل البحث فيها وأرسلت الحكومة البريطانية لجنة تحقيق برئاسة السر «وولترشو» الذي قرر فيه أن سبب الاضطرابات هو الاستياء من الحكومة البريطانية لعدم إعطاء العرب حقوقهم وحكم ذاتي لهم .. ولذلك يجب استئناف المباحثات لإقامة حكم ذاتي يكوم مقدمة من الانتداب لتحقيق الدولة .. وبعد أن درست وزارة المستعمرات تقرير لجنة وولترشو والخبير جون هوب سمبسون وضعت الحكومة الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٠ والذي أنصف العرب بعض الإنصاف حيث اقترحت فيه تشكيل مجلس تشريعي ينطبق مع أصول الخطة السياسية التي أعلنها تشرشل سنة ١٩٢٠ باعطاء العرب حكما ذاتيا ولكن هذا الكتاب أثار الصهاينة على الحكومة البريطانية وأخذوا ينتقدون هذه السياسة وقام دعاتهم في البرلمان البريطاني بحملة شديدة على وزير المستعمرات اللورد باسفيلد وهدد الصهيونيون الحكومة البريطانية باعلان حرب اقتصادية عليها إن هي نفذت محتويات الكتاب الأبيض ، فهاب ذلك رئيس الوزراء ماكدونالد وأرسل لوايزمن تفسيرا لما جاء في الكتاب الأبيض قضى فيه على ما جاء في الكتاب الأبيض لصالح العرب .

ولم تكتف الصهيونية بهذا الفوز وأرادت الانتقام من السير تشانسلور ونقل بعض كبار البريطانيين وخلفه «آرثر واكهوب» في أكتوبر عام ١٩٣١ .

إن مجرد بادرة إنصاف واحدة - مع أنه ليس هناك إنصاف حقيقي - أظهرت هذه النوايا اليهودية والبريطانية على حقيقتها ووضحت لنا كم كانت بريطانيا جادة في تخفيف معاناة الشعب الفلسطيني حيث يقول عارف العارف : (حاول الدكتور وايزمن إثر صدور الكتاب الأبيض أن يقابل رئيس الوزراء البريطاني المستر رامزي ماكدونالد وكان هذا رئيسا لحزب العمال وبعد أن رفض ماكدونالد أن يقابله وافق وقابله ، والفضل في ذلك عائد كما يقول وايزمن في مذكراته للسيدة «استر» وهي إنجليزية تعطف على القضية اليهودية التي مهدت السبيل للاجتماع الذي جرى بيننا (وايزمن - ماكدونالد) في جنيف وتم بعد قليل اجتماع آخر بين الفريقين حضره من الجانب اليهودي الدكتور وايزمن واللورد ويدبيج العضو في مجلس الأعيان واللورد ميلشت والأمون بنحاس روزنبرج ومن الجانب البريطاني رئيس الوزراء ماكدونالد واللورد

باسفيلد وعدد آخر من كبار رجال الحكومة . ورغم مقاومة اللورد باسفيلد لمطالب اليهود فقد نجح هؤلاء في إقناع أعضاء الوفد البريطاني الآخرين أن يسترد ماكدونالد وعده ولما ينقض على صدروه عشرون يوما ولم ينشر بيانا رسميا باسم الحكومة كما فعلت الحكومة في بيانها السابق الذي أصدرته بتاريخ ٢١ تشرين الأول عام ١٩٣٠ ولكنه اكتفى بخطاب ألقاه في جلسة عقدها مجلس العموم البريطاني بتاريخ ١٩٣١/٢/١٢م وقد وجهه إلى الدكتور حاييم وايزمن بوصفه رئيسا للوكالة اليهودية وقد ألغي بجرة قلم ما جاء في الكتاب الأبيض)(١).

إذن فهذا مصير أي قرار يكون فيه جانب من الإنصاف للشعب الفلسطيني .

— ٥ —

مشروع المجلس التشريعي الجديد ١٩٣٥

وفي عام ١٩٣٥ وبعد عدة سنوات من الاضطرابات في فلسطين حاول المندوب السامي البريطاني آرثر واكهوب طرح مشروع للمجلس التشريعي كمحاولة جديدة ، وكانت البلاد تمر بمقدمات الثورة نتيجة لزيادة الهجرة وتوسع اليهود في الاستيلاء على الأراضي ومزاحمة السكان الأصليين في معيشتهم ، وقد كان واكهوب هذا من أشد المتحمسين لفكرة الوطن القومي اليهودي ومن الخادمين المخلصين للصهيونية ، وقد بدأ سلسلة من المشاورات مع الزعماء العرب قبل أن يخرج عليهم بمشروعه الذي تبين سلفا أنه مرفوض حتى يظهر للعالم أن الفلسطينيين هم المتصلبون فقد بدأت المشاورات والمناقشات الأولية لمشروع المجلس التشريعي في يوليو سنة ١٩٣٥ مع الحاج أمين الحسيني ودارت المناقشة حول المواضيع التالية :

* تطوير مؤسسات الحكم الذاتي .

* تركيبة المجلس من حيث صفة أعضائه وأجناسهم رسميين وغير رسميين ، منتخبين ومعينين وشروط العضوية .

---

(١) عن كتاب عارف العارف تاريخ بيت المقدس ص ٤٠٦ راجع أيضا مذكرات وايزمن .

* رئاسة المجلس شروطها وصلاحياتها .

* مدة المجلس ودورة انعقاده .

* التصويت وطرق الانتخاب والشروط الواجب توفرها في المنتخبين .

* صلاحيات المجلس .

وواصل المشاورات حول المجلس التشريعي مع العرب واليهود . وكانت تركيبته على النحو التالي :

أعضاء منتخبون : ٨ مسلمون ، ٣ يهود ، ٣ مسيحيون .

أعضاء معينون : ٣ مسلمون ، ٢ تجاريون ، ٥ رسميون بريطانيون .

والمجموع ٢٤ . (١)

والمتفحص في هذا المشروع يجده لا يخرج عن المشاريع السابقة فهناك نسبة المسلمين الأعلى من اليهود ولكن هذه النسبة كان يعادلها ويتفوق عليها وجود الرسميين الإنجليز . بل هذه المرة نجد أن اليهود ازدادت نسبتهم عن السابق في التمثيل نتيجة لزيادة نسبتهم في السكان .. وأبدى الفلسطينيون بعض الاستعداد لمناقشة هذا الاقتراح ، وإذا باليهود يضعون العراقيل ويسخرون أنصارهم في بريطانا لرفض المشروع ، فقد تمكنوا من اكتساب الرأي العام في البرلمان البريطاني في ٢٤ مارس ١٩٣٦ ولم يكتفوا بذلك بل عملوا على إقالة توماس وزير المستعمرات الذي دافع عن المشروع وعينوا داعيتهم وصديقهم أورمسبي جور .

— ٦ —

لجنة بيل الملكية

وعلى أثر الثورة الفلسطينة سنة ١٩٣٦ حضرت إلى البلاد لجنة بيل الملكية وكالعادة درست الأوضاع الفلسطينية وخرجت بالتوصيات التي عملت لها منذ زمن فقد قررت اللجنة تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية وجعلت جميع الجليل

---

(١) دراسة بين حزبين . د. علي سعود عطية ص ٢٣٤ - ٢٣٩ .

ومرج ابن عامر والسهل الساحلي وعكا وحيفا ويافا واسدود في الدولة اليهودية وكذلك القسم الواقع إلى الجنوب والشرق من هذا الخط تكون منطقة عربية تتحد مع شرق الأردن ، أما القدس وما حولها فقد اقترحت بقاءها تحت الانتداب على ألا يسري عليها وعد بلفور . وكذلك قالت عن الناصرة وشواطىء طبرية . فقد اقترحت حينها ضمها إلى منطقة القدس على أن ييسر لها الاتصال بالبحر بواسطة ممر يمتد من القدس إلى يافا شمال مدينتي اللد والرملة ، ونصحت اللجنة في تقريرها بالاستغناء عن خدمات الموظفين الذين يرتاب في إخلاصهم ، والاستمرار في الاستعانة بموظفي الإنجليز وانتقدت في تقريرها سياسة الحكومة من حيث انتقال الأراضي العربية إلى اليهود بعد أن اعترفت أن الأراضي التي يمتلكها اليهود ارتفعت في عشر سنين من ٨٤٤ر٠٠٠ دونم سنة ١٩٢٢ إلى ١ر٣٣٢ر٠٠٠ دونم سنة ١٩٣٦ وأما من حيث الهجرة فقد اقترحت اللجنة أن تحدد هذه باثني عشر ألف مهاجر في السنة وذلك للسنوات الخمس المقبلة وكان عدد اليهود يوم جاءت اللجنة إلى فلسطين ٤٠٠ ألف نسمة .

هذا هو ملخص التقرير في ٧ تموز سنة ١٩٣٧ والذي قالت الحكومة البريطانية أنها توافق اللجنة فيما ذهبت إليه لأن التجارب التي مرت بها خلال الأعوام المنصرمة برهنت على أنه لا يمكن التوفيق بين العرب واليهود في فلسطين . وإن تلك الأماني لا يمكن تحقيقها عن طريق الانتداب .

وللتعليق على مقترحات هذه اللجنة يكفي أن نتذكر أن حاييم وايزمن رئيس المنظمة الصهيونية حينما وافق على قرارات اللجنة في المؤتمر الصهيوني . سأله أحد أعضاء المؤتمر ،ماذا عن النقب والجليل ؟ فأجاب ببساطة .. إنهما لن تهربا . أي أنه في الوقت الذي يملك فيه اليهود القوة الكافية فان الجليل والنقب في مكانهما وسيكون ضمهما إلى إسرائيل سهلا .

إذن فهذه القرارات تأخذ دورها الطبيعي في الهضم التدريجي للأراضي المحتلة من قبل اليهود ولعل أوضح دليل على هذا التصور اليهودي قول بن جوريون (أول رئيس وزراء إسرائيلي) : إن حدود دولة إسرائيل يحددها جيش الدفاع الإسرائيلي .

لقد رفض بعض اليهود هذه القرارات من منطلق عقائدي وهو أنهم يريدون أن تكون كل فلسطين بما فيها شرق الأردن أرضا يهودية ، ولكن وايزمن بمنطقه العملي تفوق في النهاية . ووافقت المنظمة الصهيونية على التقسيم ، أما الفلسطينيون فقد رفضوا هذه القرارات واعتبروها سلبا لحقوقهم بطريقة سهلة .

— ٧ —

مؤتمر لندن والكتاب الأبيض

بعد مجابهة العرب لاقتراح التقسيم واستمرارهم في الثورة ، والخطر من أن الحرب العالمية الثانية باتت على الأبواب أرادت بريطانيا أن تؤمن شيئا من الهدوء في فلسطين وبالذات بسبب خوفها من التهديد لقناة السويس - الشريان الحيوي - فاقترحت مؤتمرا يضم العرب واليهود في فلسطين . ووافق كلا الطرفين على الحضور فلبى العرب دعوة تلقوها من الحكومة البريطانية لحضور مؤتمر لندن وأيضا حضروا المؤتمر نفسه ، ولكن الفريقين - العرب واليهود - لم يجلسوا معا ، فبينما جلس العرب مع الإنجليز في الصباح جلس اليهود مع الإنجليز في المساء . وكان الاجتماع في مقر سان جيمس واستمر المؤتمر بضعة أسابيع وقد بسط العرب خلالها قضيتهم وكذلك فعل اليهود ، ولكن المؤتمر فشل في الوصول إلى حل يرضي الطرفين ونشرت الحكومة بعد انفراط عقد المؤتمر بيانها في شكل كتاب أبيض في السابع عشر من مايو ١٩٣٩ وقد ذكرت فيه مطالب الفريقين والحجج التي يستند إليها كلاهما وإلى أن يتم ذلك لابد من مرور فترة انتقال تساعد على نشوء علاقات طبيعية بين العرب واليهود وفي خلال تلك الفترة تحتفظ الحكومة البريطانية بالمسؤولية النهائية بوصفها الدولة المنتدبة ، وعلى ضوء هذا البيان أعلنت الحكومة البريطانية أنها :

أولا : ستمنح الفلسطينيين خلال عشر سنوات نصيبا متزايدا في حكومة بلادهم وتسليمهم زمام الحكم بمساعدة مستشارين بريطانيين .

ثانيا : تكون الهجرة اليهودية خلال السنوات الخمس التالية بمقدار من شأنه أن يزيد عدد اليهود في فلسطين إلى ما يقارب ثلث السكان وعلى هذا الأساس سيسمح

بادخال ٧٥٫٠٠٠ يهودي مهاجر خلال السنوات الخمس التالية اعتبارا من أول نيسان سنة ١٩٤٠ ولدى انقضاء السنوات الخمس لا يسمح بهجرة يهودية أخرى إلا إذا كان عرب فلسطين على استعداد لقبولها .

ثالثا : سيمنح المندوب السامي سلطات عامة تخوله منع وتنظيم انتقال الأراضي العربية لليهود» (١) .

وإن هذا الكتاب رغم أنه أصدر في ظروف خاصة والهدف الرئيس منه هو استرضاء العرب حتى يهدأوا في فترة الحرب إلا أنه احتفظ بحق اليهود في الهجرة وجعل حصول العرب على الاستقلال مرتبطا بموافقة اليهود - الأمر الذي كان يرفضه اليهود قطعا ما لم يكونوا أكثرية - بالإضافة إلى أن بريطانيا احتفظت لنفسها بالقرار النهائي حيث الموافقة على إعلان الاستقلال وتأجيله بعد فترة الانتقال . ولكنه على أي حال ساهم - ضمن عوامل أخرى - في إخماد الثورة الفلسطينية ، أما بالنسبة لليهود فاعتبروه عائقا في سبيل تحقيق أهدافهم فحاربوه بشدة ، إما إعلاميا كما فعلت المنظمة الصهيونية وإما عسكريا كما فعلت منظمتي الأرجون وشتيرن .

إن اليهود - وباختصار - كانوا يعتبرون كل الحلول مجرد محطات تدفعهم إلى الأمام وتكرس وجودهم . وإذا كان هناك أي اقتراح من الممكن أن يقف في سبيل أهدافهم فانهم يحاربونه بكل شدة وعنف .

— ٨ —

اللجنة الأنجلوأمريكية

* انتهت الحرب العالمية الثانية وتم لبريطانيا ما أرادت من الانتصار على هتلر ولم تعد في حاجة إلى هدوء العرب فأرادت أن تتنكر للكتاب الأبيض فأرادت وسيلة لذلك لا تبدو فيها كأنها تتنكر لوعودها فحاولت إدخال الولايات المتحدة في القضية

---

(١) عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ص ٤١٨ .

الفلسطينية لتلقي على عاتقها كل السياسات الجديدة دون أن تفقد بريطانيا مكانها في العالم العربي والإسلامي وهنا قامت لجنة أنجلوأمريكية بالتحقيق في القضية وخرجت بتوصيات تنسف الكتاب الأبيض من الأساس ، وبدأت عصرا جديدا من الانحياز الكامل الصريح لجانب اليهود وخرجت هذه اللجنة بتوصياتها في ١٩٤٦/٤/٢٠ «وأوضحت في تقريرها عن ضرورة إصدار ١٠٠ر٠٠٠ شهادة هجرة حالا لليهود قالت عنهم إنهم من ضحايا الاضطهاد النازي ومما جاء في تقريرها إن أي نوع من الحكم في فلسطين يجب أن يستهدف سيطرة العرب على اليهود أو سيطرة اليهود على العرب ، فان فلسطين لن تكون دولة عربية ولا يهودية وريثما تتلاشي الشحناء بين العرب واليهود أوصت اللجنة أن تبقى فلسطين تحت الانتداب كما هي الآن إلى أن يتسنى عقد اجتماع توضع بموجبه تحت وصاية الأمم المتحدة . وأوصت اللجنة أيضا بالغاء نظام الأراضي لسنة ١٩٤٠ واستبداله بنظام يقوم على سياسة حرية بيع الأراضي واستغلالها) وعلى إدارة فلسطين ضمان عدم إلحاق الضرر بحقوق وضع فئات الأهالي الأخرى وأن تسهل الهجرة اليهودية إلى فلسطين في أحوال ملائمة» (١) .

إن تقرير هذه اللجنة قد أنهى الكتاب الأبيض الذي وعد بتقليص الهجرة فأتاح لمائة ألف يهودي أن يدخلوا دفعة واحدة لفلسطين غير الهجرة اليومية ، وبعد أن التزم الكتاب الأبيض بمراقبة انتقال الأراضي لليهود طالبت هذه اللجنة بحرية بيع الأراضي .

إن وجود مثل هذه اللجنة يعتبر دليلا واضحا على طبيعة اللجان والاقتراحات التحذيرية التي كانت توجه للعرب بين فترة وأخرى حتى إذا أتت الظروف المناسبة كشرت عن أنيابها وباتت الأهداف واضحة .. هجرة بلا حدود ، وابتلاع أرض جديدة بلا حدود .

---

(١) عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ص ٤٢٣ .

— ٩ —

قرار التقسيم

وبعد أن فشلت بريطانيا في الحفاظ على الأمن في فلسطين وبعد أن شعرت أن الثمرة اليهودية قد نضجت وأصبح الإعلان عن الدولة اليهودية وشيكا أرادت بريطانيا أن تساعد اليهود في الإعلان عن دولتهم ، وفي الوقت نفسه لا تظهر أمام العرب بمنظر المنحاز لليهود . فحاولت بريطانيا نقل القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة حيث تأثير الولايات المتحدة كبير وهناك تأخذ قضية دولة اليهود تأييدا دوليا كبيرا وتكون الأمم المتحدة هي المسؤولة عن ذلك وتبقى بريطانيا كأنها لم تعمل شيئا يسيء للعرب وهي التي مكثت ثلاثين عاما تحمي الوجود اليهودي في فلسطين وتحت مظلتها تم بناء الدولة اليهودية .

ألقى المستر بيڤن «وزير الخارجية البريطانية» خطابا أمام مجلس العموم البريطاني في ٢١ شباط سنة ١٩٤٧ وأعلن عن عزم الحكومة على رفع القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة ومما قال المستر بيڤن في هذا الصدد «إن هذه القضية معقدة كل التعقيد وأنه لم يعرف في حياته قضية معقدة مثلها ، وإن نظام الانتداب تضمن وعودا متضاربة متناقضة حيث سمح بغزو اليهود لفلسطين بينما حتم عدم الإضرار بسكانها الآخرين ، وإن البرلمان وافق على الكتاب الأبيض وذلك بسبب تشدد العرب وإصرارهم .. وإن حشر أمريكا نفسها في القضية وتصريحات ترومان مما زاد في تعقيدات القضية وإن الأمر لو كان يقف عند إدخال المائة ألف يهودي لأمكن تسويته ولكن اليهود يتحدثون عن الملايين . وإنه ليس من الحق التسوية بين مصالح العرب أصحاب البلاد وبين اليهود الطارئين .. غير أن بريطانيا لا تستطيع أن تفرض حلا نهائيا بالقوة لأنها منتدبة انتدابا ولذلك أصبح من واجبها رفع الأمر إلى هيئة الأمم المتحدة لتقرر وتفرض الحل الذي تراه ، وإن بريطانيا إذا لم ترفع القضية فإن العرب مصممون على رفعها» (١) .

---

(١) المسألة الفلسطينية . مهدي عبد الهادي ص ٧٧ .

وأرسلت الأمم المتحدة لجنة خاصة إلى فلسطين لتقصي الحقائق ولتقديم تقرير إلى الأمم المتحدة عن الأوضاع واقتراح حلول للقضية . وبعد مناقشات طويلة وترغيب وتهديد من جانب الولايات المتحدة للدول الأعضاء في الأمم المتحدة عدا عن ضغوط المنظمات اليهودية العالمية أقرت الأمم المتحدة قرار التقسيم في ١٩٤٧/١١/٢٩ والذي جاء فيه :

* إنهاء الانتداب في وقت لا يتجاوز الأول من آب (أغسطس) سنة ١٩٤٨م .
* الجلاء وإعلان الدولتين العربية واليهودية بعد شهرين .
* إشراف لجنة انتقال دولية تعينها هيئة الأمم المتحدة على إدارة فلسطين .
* تنفيذ التقسيم في فترة الانتقال وإنهاء الانتداب وإعلان الدولتين .
* تؤلف حكومة مؤقتة في كل دولة وتجرى انتخابات لجمعية تأسيسية لوضع دستور ديمقراطي على أساس حكومة مسؤولة أمام مجلس نيابي وضمان الحقوق للجميع وعدم التحيز وإنشاء قوة وطنية في كل من الدولتين لحفظ الأمن والحدود .

والناظر إلى قرار التقسيم والظروف التي أحاطت باصداره يحس بمدى خطورة هذا القرار الذي بذل اليهود قصارى جهدهم للحصول عليه ، وعده وايزمن قمة انتصار الدبلوماسية اليهودية .

ومن دراسة هذا القرار نتبين ما يلي :

١- إن هذا القرار قد أعطى الدولة اليهودية في فلسطين اعترافا دوليا ظل اليهود يحلمون به منذ مؤتمرهم الصهيوني الأول سنة ١٨٩٧ ، كيف لا وقد اعترفت بدولتهم أكبر منظمة عالمية وهي منظمة الأمم المتحدة بالإضافة إلى الدول العظمى التي أيدت المشروع .

٢- أعطى قرار التقسيم للدولة اليهودية ٥٦ ٪ من أراضي فلسطين في الوقت الذي كان فيه اليهود لا يملكون حقيقة في ذلك الوقت أكثر من ٦ ٪ من الأراضي .. وعلى هذا الصعيد يعتبر قرار التقسيم خطوة استعمارية جديدة في سبيل التوسع الإسرائيلي وفرت على اليهود ملايين الجنيهات بالإضافة إلى الجهود المضنية التي سيبذلونها لإعمار هذه الأرض في ظل المقاومة العربية .

٣- اختيار التوقيت المناسب للقرار لصالح الصهيونية ، ففي الوقت الذي أعلن فيه هذا القرار كان اليهود قد بلغوا أوج قوتهم في فلسطين تحت رعاية الانتداب البريطاني فقد جندوا ستين ألف جندي في الوقت الذي كانت المقاومة العربية قد قضي عليها أو كادت نتيجة للقمع الذي تعرضت له على أيدي القوات البريطانية .. وكذلك الدول العربية المحيطة بفلسطين كانت مكبلة بمعاهدات مع بريطانيا تمنعها من تقديم عون حقيقي لفلسطين ، وليس أدل على ذلك من أنه حين أقام العرب مركزا لتدريب المتطوعين في سوريا لجيش الإنقاذ بعد قرار التقسيم احتجت بريطانيا على ذلك واعتبرت هذا العمل عملا عدائيا ضد بريطانيا العظمى طالما أنها لم تنسحب من فلسطين ، وعلى الفور خضع الحكام العرب وأقفلوا المركز .

٤- القرار يشكل ضغطا ضد الشعب الفلسطيني يجعله يقبل بتسليم أرضه لأعدائه ويجعل نصف أبنائه يعيشون كأقلية في الدولة اليهودية ويحشر البقية الباقية منهم في جزء صغير غير خصب من أراضي فلسطين بدون مبرر ولا سبب إلا إرضاء الصهيونية العالمية ومن ورائها الصليبية الحاقدة والشيوعية الطامعة في المنطقة .

لقد كان طبيعيا أن يرفض المسلمون هذا القرار وأن يتحدوه وأن يبدأوا في فلسطين حربا شاملة ضد الانتداب واليهود معا بغية منع هذا القرار عن التنفيذ ولكن بريطانيا كانت ساهرة على تطبيق هذا القرار فلم تكن تنسحب من جزء من الأراضي المقرر لليهود حسب قرار التقسيم حتى يكون اليهود قد استولوا عليه بالقوة تحت حماية بريطانيا . وهكذا حال الإنجليز دون أن يأخذ الشعب الفلسطيني وضعا دفاعيا جيدا يكون فيه حرا في إدخال الأسلحة والمتطوعين لمواجهة اليهود ، وكانت النتيجة أن خرج الإنجليز من فلسطين واليهود في أيديهم مساحات شاسعة من الأراضي تفوق ما قرر لهم في التقسيم . وحين دخلت الجيوش العربية إلى فلسطين بعد ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ لتكمل المهزلة ، وجدنا اليهود يسيطرون على ٨٢ ٪ من أرض فلسطين .

إن هذا وحده دليل كاف على معنى القرارات الدولية بالنسبة لليهود .. إنها وسيلة فقط لهضم أرض جديدة واتخاذ خطوات أوسع في سبيل توسيع دولتهم التي لا حدود لها .

لقد ناضلوا من أجل الحصول على قرار التقسيم وحين كان باستطاعتهم خرقه خرقوه أمام سمع العالم وبصره والذي طالب باقامة دولة فلسطينية بجانب الدولة اليهودية ، لم يتحرك العالم لخرق اليهود لقرار التقسيم ولكنه يقوم ولا يقعد إذا قتل يهودي واحد على أحد الطرق . بل والأدهى من ذلك أن اليهود قد أخذوا أكثر مما قبلوا به في قرار التقسيم ، عادوا إلى العدوان والتوسع في سنة ١٩٥٦ وفي سنة ١٩٦٧ . لتزداد الحقائق وضوحا من أن القرارات الدولية ليست لدى اليهود إلا وسيلة لإضفاء الشرعية على الاغتصاب .

— ١٠ —

مشروع دالاس وإيدن

وبعد النكبة الأولى سنة ١٩٤٨ تعددت الاقتراحات والحلول المطروحة حتى أن الانسان ليمل من متابعة هذه الاقتراحات لكثرتها والقاسم المشترك بينها أنها تصب في مجرى واحد هو الاعتراف باليهود ودولتهم وإتاحة الفرصة لهم بالتوسع ونذكر من هذه الاقتراحات على سبيل المثال مشروع دالاس ١٩٥٦/٥/٢٦م وقد قدم هذا المشروع (جون فوستر دالاس) وزير الخارجية الأمريكي وجاء فيه :

- وضع حد لبؤس مليون لاجىء فلسطيني وتأمين حياة كريمة لهم عن طريق العودة إلى ديارهم الأول ضمن الحدود الممكنة .
- توطينهم في المناطق العربية المتواجدين فيها عن طريق :
- استصلاح المزيد من الأراضي من خلال مشاريع الري وتحقيق التنمية المائية .
- إيجاد عمل ثابت ومستقر للاجئين هناك .
- دفع تعويضات إسرائيلية إلى اللاجئين ويتم تحويل هذه التعويضات لقرض دولي تضمنه الولايات المتحدة فيه بشكل رئيس .
- إدراكا للخوف الذي يسيطر على دول المنطقة مما جعلها عاجزة عن الشعور بالأمان والاطمئنان يتم اتخاذ الخطوات التالية :
- إجراءات جماعية لردع أي عدوان بشكل قوي وحاسم .

٢- استعداد الولايات المتحدة للدخول في معاهدات رسمية لمنع أي عمل من قبل أي من الطرفين من شأنه تغيير الحدود فيما بينها .

٣- فتح المجال لدول أخرى للمساهمة مع أمريكا في مثل هذه الضمانات الأمنية .

٤- أن يتم ذلك تحت إشراف الأمم المتحدة .

* يجب التوصل إلى حل لمشكلة الحدود باعتبار أن الخطوط الحالية التي تفصل إسرائيل عن الدول العربية ناتجة عن اتفاقات لجنة الهدنة سنة ١٩٤٩ ولا تشكل حدودا دائمة .

وأمريكا على استعداد للمساهمة في عملية البحث عن حل لمشكلة الحدود وهذا الحل يمهد لحل بقية القضايا ، بما فيها قضية القدس (١) مشروع إيدن ١٩٥٥/٦/٩م . أعلن أنطوني إيدن رئيس وزراء بريطانيا في خطاب سياسي ألقاه في قاعة بلدية لندن والتي تعرف باسم «جيلد هول» اقتراحا بريطانيا لحل النزاع العربي الإسرائيلي يستهدف تحديد وتثبيت «حدود جيدة» لإسرائيل تقع بين حدودها الحالية (خطوط الهدنة سنة ١٩٤٩م) وحدود قرار التقسيم سنة ١٩٤٧م وأوضح أن تصوره لطبيعة الصراع العربي الإسرائيلي على النحو التالي :

١- «موقف حكومة إسرائيل ويستند إلى الواقع العسكري القائم في حدود الهدنة التي رسمتها اتفاقات سنة ١٩٤٩ بين إسرائيل وحكومات الدول العربية المجاورة .

٢- موقف حكومات الدول العربية ويستند إلى التمسك بقرارات هيئة الأمم المتحدة وبالتحديد قرار التقسيم لعام ١٩٤٧ من ناحية وإلى أن حكومات الدول العربية المجاورة ستبدي الاستعداد للدخول في مفاوضات مع حكومة إسرائيل على هذا الأساس من جانب آخر .

٣- ترى الحكومة البريطانية أن فجوة الخلاف بين الطرفين العربي والإسرائيلي ليست على درجة كبيرة من الاتساع بحيث لا يمكن لأية مفاوضات جدية أن تسدها .

٤- لا يمكن إهمال قرارات الأمم المتحدة وأنه لا يمكن تطبيقها بحرفيتها دون تعديل

---

(١) المسألة الفلسطينية د. مهدي عبد الهادي ص ٢٠٤ .

مهما كانت الأطراف المعنية راغبة في السلام لأنه يخدم مصالح الطرفين فلابد من تنازلات من كلا الطرفين لسد الثغرة بين الموقفين المتعارضين .

٥- تبدي الحكومة البريطانية استعدادها لتقديم كل الخدمات الممكنة لتحقيق تسوية سلمية عن طريق المفاوضات» (١) .

وعلى الرغم من وضوح الفكرة في كلا الاقتراحين وهي الحصول على شرعية الوضع القائم الإسرائيلي مع خدمة بعض الأحلام العربية كالمساعدات الإنسانية للاجئين والتعديلات الطفيفة على الحدود إلا أن رد حكومة إسرائيل على مقترحات إيدن يوضح لنا ماذا تعني هذه الاقتراحات والحلول بالنسبة لليهود .

ففي فترة ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٥٥ أعلن دافيد بن جوريون في خطاب ألقاه في الكنيست رفض إسرائيل للمشروع البريطاني لتسوية الصراع العربي الإسرائيلي وقال : إن غزو الدول العربية لأرض إسرائيل في حرب سنة ١٩٤٨قد جعل كافة قرارات الأمم المتحدة حول فلسطين لاغية وباطلة وبدون إمكانية إعادتها إلى الحياة . وإن هذه الاقتراحات البريطانية لا يبررها القانون ولا الأخلاق ولا المنطق (٢) .

هل هناك أكبر من هذا دليل على أهمية قرارات الأمم المتحدة في نظر اليهود ؟! إنها ليست إلا محطات مرحلية للحصول على مكاسب جديدة ثم تنسى أمام الأمر الواقع الجديد .

— ١١ —

قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢

وبعد هزيمة الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧م وظهور وقائع جديدة على الساحة الدولية أطل علينا القرار البغيض قرار مجلس الأمن ٢٤٢ ليكون حلقة جديدة في

---

(١) المسألة الفلسطينية د. مهدي عبد الهادي ص ٢٠٥ .

(٢) المسألة الفلسطينية د. مهدي عبد الهادي ص ٢٠٧ .

السلسلة اللانهائية من سياسة اليهود الخبيثة ، فلقد أرادت إسرائيل ومن ورائها الدول الاستعمارية أمريكا وروسيا أن تستثمر الواقع الجديد الذي خلفته الكارثة ، والنفسية المهزومة التي بدا فيها حكام العار عبد الناصر ، وحسين ، ونور الدين الأتاسي بعد هذه الكارثة والتي يعتبرها الشيخ محمد الغزالي - بحق - أكبر عار في تاريخ البشرية ، كان هؤلاء الحكام المهزومين حتى النخاع على استعداد لأن يوقعوا على شيء ، لقد أشبعوا الدنيا ضجيجا قبل الحرب وتهريجا وضحكا على شعوبهم ، فكانوا بعدالحرب يتلهفون على أي حل يرد لهم ماء وجوههم فما إن جاء هذا القرار حتى سارع عبد الناصر والملك حسين إلى قبوله ليغطوا سوءاتهم وتلكأت سوريا في قبوله لبعض الوقت ثم وافق عليه حافظ الأسد صاغرا . والآن لنر ما هو هذا القرار .

جاء هذا القرار بناء على طلب مصري باجتماع لمجلس الأمن في جلسة عاجلة للنظر في الوضع الخطير في الشرق الأوسط إثر عدوان سنة ١٩٦٧ واجتمع مجلس الأمن وناقش أعضاؤه مشروع قرار أمريكي وآخر سوفيتي ورفضوهما ، ثم قبل المشروع البريطاني الذي أعده «اللورد كاردون» بالإجماع والذي أعدبشكل دقيق وخبيث وفي لغة تحمل أكثر من تفسير - كل يفسر كما يشاء - وكان نص هذا القرار كما يلي :

«إن مجلس الأمن إذ يعرب عن قلقه المتواصل بشأن الوضع الخطير في الشرق الأوسط ويؤكد عدم القبول بالاستيلاء على أرض الغير بواسطة الحرب ، والحاجة إلى العمل من أجل سلام دائم وعادل تستطيع كل دولة في المنطقة أن تعيش فيه بأمن ، وإذ يؤكد أيضا أن جميع الدول الأعضاء بقبولها ميثاق الأمم المتحدة وقد التزمت بالعمل وفقا للمادة الثانية من الميثاق :

١- يؤكد أن تحقيق مبادىء الميثاق يتطلب إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط ويستوجب تطبيق كلا المادتين التاليتين :

أ - سحب القوات المسلحة الإسرائيلية من أراض احتلتها في النزاع الأخير (النص الفرنسي من الأراضي المحتلة) .

ب - إنهاء جميع ادعاءات أو حالات الحرب واحترام واعتراف بسيادة ووحدة

رضي كل دولة في المنطقة واستقلالها السياسي وحقها في العيش بسلام ضمن حدود
منة ومعترف بها وحرة من التهديد أو أعمال القوة .

٢- يؤكد أيضا الحاجة إلى :

أ - ضمان حرية الملاحة في الممرات المائية الدولية في المنطقة .

ب - تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين .

ج - ضمان الحصانة الإقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة عن طريق إجراءات إقامة مناطق مجردة من السلاح .

٣- يطلب الأمين العام تعيين ممثل خاص للذهاب إلى الشرق الأوسط كي يجتمع ويجري اتصالات مع الدول المعنية بغية إيجاد اتفاق ودعم الجهود لتحقيق تسوية سلمية مقبولة وفقا لنصوص ومبادىء هذا القرار .

٤- يطلب من الأمين العام أن يرفع تقريرا إلى مجلس الأمن حول تقويم جهود الممثل الخاص في أقرب وقت ممكن .

هذه هي نصوص القرار ، ولو أمعنا النظر في طبيعة هذا القرار الذي قبله عبد الناصر وحسين لوجدنا أن الدول الاستعمارية التي صاغته أرادت استثمار الانتصار الإسرائيلي إلى أقصى حد ممكن . ففي الوقت الذي كان هؤلاء الزعماء غارقين فيه لآذانهم في وحل الهزيمة ، كانوا حريصين على الحصول على انسحاب إسرائيل بأي ثمن .. وإذا حصل هذا الانسحاب فما أسهل بعدها أن تبرر الهزائم وتستبدل بانتصارات وهمية فكم سمعنا عن انتصار سنة ١٩٥٦م واحتفلنا بعيد النصر في ٢٣ ديسمبر من كل عام وفي الحقيقة كانت حرب ٥٦ هزيمة سيئة .وكذلك كان تعمير مدن قناة السويس بعد حرب أكتوبر هو أول شرط وضعه اليهود للانسحاب . وجدنا السادات يسمي هذا القبول المذل «بمعركة التعمير» بعد معركة العبور وقد أراد اليهود تعمير مدن قناة السويس حتى لا تفكر مصر بالحرب بعد ذلك فتخسر كل ما أنفقته على التعمير ، والواقع أن تحويل الهزائم إلى انتصارات في وسائل الإعلام أصبح مهنة للحكام العرب حتى قال محمد جلال كشك متهكما «سيحصل في حالة السلام أن تمر إسرائيل في قناة السويس وسنقول عندها ، لقد مرت إسرائيل صاغرة في قناة

السويس ، وحين يكون لها تواجد في ميدان التحرير في القاهرة سنقول : وستمر مجبرة في ميدان التحرير» .

أليس هذا ما فعله السادات بعد معاهدة الخيانة التعسة ادعى أنه حرر سيناء وطمس على الجماهير المسكينة الثمن الذي دفعه وهو التنازل عن فلسطين وخروج مصر من دائرة الأمة العربية وربطها بالولايات المتحدة مقابل الحصول على سيناء منزوعة السلاح تستطيع إسرائيل احتلالها في أي لحظة .

* لقد كان القرار صريحا وواضحا حين طلب من الدول العربية الاعتراف باسرائيل كحقيقة واقعة وكدولة لها حق العيش في أمان داخل حدود آمنة ومعترف بها .

* كانت عبارة انسحاب من «أراض» عبارة موضوعة بهذا الشكل الغامض حتى تفسرها كل دولة كما تشاء وبذلك تمسكت إسرائيل في تفسيرها لهذه الفقرة بأن القرار ينص على انسحاب من (أراض) نكرة وليس من (الأراضي) بأل التعريف ، بينما يستطيع الحكام العرب خداع شعوبهم عن طريق وجود (أل التعريف) في النص الفرنسي وإلا فهل كان صعبا إضافة أل التعريف في النص الإنجليزي الخبيث .

* وهناك النقطة الأخطر في هذا القرار أن الشعب الفلسطيني كان غائبا من القرار كشعب وأصبح مجرد «لاجئين» وهذه النقطة لابد من الوقوف عندها طويلا فانها تحدد هدف كل الطروحات والحلول والقرارات بشكل جيد . إنها تؤكد أن هذه الحلول والأطروحات ما هي إلا حلقات في السلسلة الصهيونية لإقامة دولة إسرائيل الكبرى .

في وعد بلفور وحين كان اليهود قلة لا يشكلون أي قوة في فلسطين جاء الوعد باعطاء اليهود وطنا قوميا لهم في فلسطين مع عدم المساس بالحقوق الدينية والمدنية للطوائف الأخرى الموجودة في فلسطين ، إنها تعرف المسلمين في فلسطين بأنهم طائفة في الوقت الذي كانوا فيه يشكلون أكثر من ٩٠ ٪ من السكان . أقول على الرغم من ذلك فقد اعترف الوعد بحقوق مدنية ودينية لهم فهكذا كانت تقتضي طبيعة المرحلة .

وفي قرار التقسيم اعتبر من حق الفلسطينيين أن يشكلوا دولة مستقلة على أقل من نصف بلادهم وعلى الرغم من الإجحاف والظلم الذي تعرض له شعب فلسطين على

لدى الصهيونية والدول الاستعمارية إلا أنها اعترفت بحق إيجاد دولة له مهما كانت صغيرة ، فهكذا كانت طبيعة المرحلة أيضا .. أما في قرار مجلس الأمن ٢٤٢ فشعب فلسطين ليس له وجود .. إنها مشكلة لاجئين .. إذن فهذه نهاية المطاف أن تكون إسرائيل هي الأمر الواقع وهي الحق الذي يجب على الكل أن يعترف به ، أما الشعب الفلسطيني ، فعمن تتحدثون ؟! .. أي شعب هذا ؟! هل سمع به أحد ؟! هل له وجود على خارطة العالم ؟! يوجد هناك بعض اللاجئين تركوا ديارهم طواعية وعلى إخوانهم العرب أن يستوعبوهم وبامكان أمريكا أن تمدهم ببعض الدقيق إلى أن يتمكنوا من إعالة أنفسهم .

" هناك حقوق للدولة اليهودية على العرب احترامها والوفاء بها .

إن إسرائيل لم تعد دولة معتدية ، لقد أصبحت صاحبة حق في الممرات المائية حتى فيما هو مصري محض كقناة السويس ، ولقد قبلت مصر والأردن بهذا القرار وزايدت سوريا فلم تقبله في حينه ثم عاد حافظ الأسد فقبله بعد حرب أكتوبر فهل قبله به إسرائيل رغم كل المزايا التي منحها إياها ؟! لقد قبلت به نظريا ولكنها أصرت على الطلب من العرب أن يقابلوها على مائدة المفاوضات المباشرة وبذلك يكونوا قد وضعوا ما يملكون وهو حق الاعتراف قبل أن يبدأوا المفاوضات إذ عندما يجلسون إلى مائدة المفاوضات مع إسرائيل يكونون قد اعترفوا باسرائيل فماذا تريد منهم إسرائيل بعد ذلك حتى تقدم تنازلات .

— ١٢ —

كامب ديفيد

وبعد قرار مجلس الأمن هذا ومماطلات إسرائيل بدا في الأفق عشرات المحاولات لإيجاد صيغة سلمية لإنهاء الصراع العربي الإسرائيلي كما يتصور الغرب . ونذكر على سبيل المثال المبادرة التي قام بها وزير البحث والعمل الفرنسي في ديسمبر سنة ١٩٦٨ ، ولجنة خدمة الكويكرز الأمريكية سنة ١٩٦٩ ، مشروع الملك حسين أو «المملكة العربية المتحدة» ، ومشروع العمل الإسرائيلي ، ومشروع روجرز ، ومشروع الدول الكبرى الأعضاء في مجلس الأمن وغيرها .

وكل هذه المشاريع كانت تصب في تيار واحد وهو تيار القبول باسرائيل كعضو معترف به بين دول الشرق الإسلامي ، ومحاولات الترويض للشعب الفلسطيني حتى يقبل بالفتات ومسخ وجوده السياسي وتوزيعه على الدول العربية ، وظلت إسرائيل تصد وتتمنع في انتظار الثمرة التي سعت لها منذ زمن ، حتى تصل الدول العربية إلى مائدة المفاوضات بتخليها عن كل سلاح يمثل تهديدا لإسرائيل وهنا تفرض ما تريد من حلول .

وقد تم لها ذلك حين جاء الرئيس المصري الخائن أنور السادات إلى القدس جاثيا على ركبتيه يطلب السلام من أعداء الله اليهود جاء معترفا بوجود الظلم مقرا به ومن خلال مفاوضات مذلة استقال خلالها وزير خارجيته ، استطاعت إسرائيل أن تحصل عى ما تريد ، فقد حصلت على اعتراف أكبر دولة عربية بها فأحبطت بذلك أية إمكانية لدى العرب للهجوم على إسرائيل في المستقبل القريب وأبعدت مصر عن العالم العربي ، مما زاد في أوضاعها الاقتصادية ترديا وكسرت حاجز العداء النفسي الذي كان يحول دون توسعها في المنطقة وألغت وجود الشعب الفلسطيني كشعب له حقوق وقبل زعيم أكبر دولة عربية أن يعامل الشعب الفلسطيني كلاجئين وترك مصير القدس في مهب الرياح وإليك النص الكامل لوثائق كامب ديفيد وهي النتيجة النهائية لمفاوضات السادات :

اتفاقيات كامب ديفيد . الوثيقة الأولى :

نص الوثيقة الأولى المتعلقة باطار السلام في الشرق الأوسط والتي تمت الموافقة عليها في مؤتمر كامب ديفيد والتي أطلق عليها «إطار السلام في الشرق الأوسط» .

* اجتمع الرئيس محمد أنور السادات رئيس جمهورية مصر العربيةومناحيم بيجن رئيس وزراء إسرائيل مع جيمي كارتر رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في كامب ديفيد من ٥ إلى ١٧ أيلول سنة ١٩٧٨ واتفقوا على الإطار التالي للسلام في الشرق الأوسط وهم يدعون أطراف النزاع العربي الإسرائيلي الأخرى إلى الانضمام إليه .

المقدمة : إن البحث عن السلام في الشرق الأوسط يجب أن يسترشد بالآتي :

١- القاعدة المتفق عليها للتسوية السلمية للنزاع بين إسرائيل وجيرانها هو قرار مجلس الأمن ٢٤٢ بكل أجزائه .. سيرفق القرار ٢٤٢ ، ٣٣٨ بهذه الوثيقة» . بعد أربع حروب خلال ثلاثين عاما ورغم الجهود الإنسانية المكثفة ، فان الشرق الأوسط مهد الحضارات ومهبط الديانات العظيمة الثلاث ، لم ينعم بعد بنعيم السلام . إن شعوب الشرق الأوسط تتشوق للسلام حتى يمكن تحويل موارد الإقليم البشرية والطبيعية الشاسعة لمتابعة أهداف السلام ، وحتى تصبح هذه المنطقة نموذجا للتعايش والتعاون بين الأمم .. إن المبادرة التاريخية للرئيس السادات ، ومقدرات السلام التي تقدم بها كلا الزعيمين .. وما لقيته هذه المهام من استقبال حار من شعبي البلدين ، كل ذلك خلق فرصة للسلام لم يسبق لها مثيل ولا يجب إضاعتها ، إن كان مراد إنقاذ هذا الجيل والأجيال المقبلة من مآسي الحروب . وإن ميثاق الأمم المتحدة والقواعد الأخرى المقبولة للقانون الدولي والشرعية توفر الآن مستويات مقبولة لسير العلاقات بين جميع الدول أن تحقق علاقة سلام وفقا لروح المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة . وإجراء مفاوضات في المستقبل بين إسرائيل وأي دولة مجاورة مستعدة للتفاوض بشأن السلام والأمن هو أمر ضروري لتنفيذ جميع البنود لمبادىء قراري مجلس الأمن ٢٤٢ ، ٣٣٨ .

معنى السلام : إن السلام يتطلب احترام السيادة والوحدة الإقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة وحقها بالعيش في سلام داخل حدود آمنة ومعترف بها غير متعرضة لتهديدات أو أعمال عنف . وإن التقدم تجاه هذا الهدف من الممكن أن يسرع بالتحرك نحو عصر جديد من التصالح في الشرق الأوسط يتسم بالتعاون على تنمية التطور الاقتصادي وفي الحفاظ على الاستقرار وتأكيد الأمن . وإن السلام يتعزز بعلاقة السلام والتعاون بين الدول التي تتمتع بعلاقات طيبة وبالإضافة إلى ذلك في ظل معاهدات السلام يمكن للأطراف الموافقة على ترتيبات أمن خاصة مثل مناطق منزوعة السلاح ومناطق ذات تسليح محدود ومحطات إنذار مبكر ووجود قوات دولية وقوات اتصال وإجراءات إنذار مبكر .

إن الأطراف إذ تضع هذه العوامل في الاعتبار مصممة على التوصل إلى تسوية

عادلة وشاملة ودائمة لصراع الشرق الأوسط عن طريق عقد معاهدات سلام تقوم على قراري مجلس الأمن ٢٤٢ ، ٣٣٨ بكل فقراتهما ، وهدفها من ذلك هو تحقيق السلام وعلاقات حسن جوار . وهم يدركون أن السلام لكي يصبح معمرا يجب أن يشمل جميع هؤلاء الذين تأثروا بالصراع أعمق تأثير لذا فانهم يتفقون على أن هذا إ طار مناسب في رأيهم لتشكيل سلام لا بين مصر وإسرائيل فحسب بل وكذلك بين إسرائيل وكل جيرانها الآخرين ممن يبدون استعدادا للتفاوض على السلام مع إسرائيل على هذا الأساس . إن الأطراف التي تضع هذا الهدف في الاعتبار قد اتفقت على المضي قدما على النحو التالي :

أ - الضفة الغربية وقطاع غزة : (١) ينبغي أن تشترك مصر وإسرائيل والأردن وممثلو الشعب الفلسطيني في المفاوضات الخاصة بحل المشكلة الفلسطينية بكل جوانبها ولتحقيق هذا الهدف فان المفاوضات المتعلقة بالضفة الغربية وغزة ينبغي أن تتم على ثلاث مراحل :

أ - تتفق مصر وإسرائيل على أنه من أجل ضمان نقل منتظم وسلمي مع الأخذ في الاعتبار الأمن من جانب كل طرف يجب أن تكون هناك ترتيبات انتقالية بالنسبة للضفة الغربية وغزة لفترة لا تتجاوز خمس سنوات ، ولتوفير حكم ذاتي كامل لسكان الضفة الغربية وغزة فان الحكومة الإسرائيلية وإدارتها المدنية ستنسحبان منهما بمجرد أن يتم انتخاب سلطة حكم ذاتي من قبل السكان في هذه المنطقة عن طريق الانتخاب الحر لتحل محل الحكومة العسكرية الحالية .

ولمناقشة تفاصيل الترتيبات فان حكومة الأردن ستكون مدعوة للانضمام للمباحثات على أساس هذا الإطار ويجب أن تعطي هذه الترتيبات الجديدة الاعتبار اللازم لكل من مبدأ الحكم الذاتي لسكان هذه الأراضي واهتمامات الأمن الشرعية لكل من الأطراف التي تشملها النزاع .

ب - أن تتفق مصر وإسرائيل والأردن على وسائل إقامة إدارة الحكم الذاتي المنتخبة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، أو فلسطينيين آخرين وفقا لما يتفق عليه ، وستتفاوض الأطراف بشأن اتفاقية تحدد مسؤوليات الحكم الذاتي التي ستمارس في

الضفة الغربية وغزة ، وسيتم انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية وسيكون هناك إعادة توزيع القوات الإسرائيلية التي ستبقى في مواقع أمن حصينة ، وستضمن الاتفاقية أيضا ترتيبات لتأكيد الأمن الداخلي والخارجي والنظام العام ، وسيتم تشكيل قوة بوليس محلية قوية قد تضم مواطنين أردنيين ، بالإضافة إلى ذلك ستشترك القوة الإسرائيلية والأردنية في دوريات مشتركة وفي تقديم الأفراد لتشكيل مراكز مراقبة لضمان أمن الحدود .

ج - وستبدأ الفترة الانتقالية ذات السنوات الخمس عندما تقوم سلطة حكم ذاتي «مجلس إداري» في الضفة الغربية وغزة في أسرع وقت ممكن دون أن تتأخر عن العام الثالث بعد بداية الفترة الانتقالية وستجري هذه المفاوضات لتحديد الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة وعلاقاتها مع جيرانها ولإبرام معاهدة سلام بين إسرائيل والأردن بحلول نهاية الفترة الانتقالية وستدور هذه المفاوضات بين مصر وإسرائيل والأردن والممثلين المنتخبين لسكان الضفة الغربية وغزة .

وسيجري انعقاد لجنتين منفصلتين ولكنهما مترابطتان إحدى هاتين اللجنتين تتكون من ممثلي الأطراف الأربعة التي ستتفاوض وتوافق على الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة وعلاقاتها مع جيرانها . وتتكون اللجنة الثانية من ممثلي إسرائيل وممثلي الأردن والتي سيشترك معها ممثلو السكان في الضفة الغربية وغزة للتفاوض بشأن معاهدة السلام بين إسرائيل والأردن واضعة في تقديرها الاتفاق الذي تم التوصل إليه بشأن الضفة الغربية وغزة . وستركز هذه المفاوضات على أساس جميع النصوص والمبادىء لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ .

وستقرر هذه المفاوضات - ضمن أشياء أخرى - موضع الحدود وطبيعة ترتيبات الأمن .. ويجب أن يعترف الحل الناتج عن المفاوضات بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومتطلباته العادلة . وبهذا الأسلوب سيشارك الفلسطينيون في تقرير مستقبلهم من خلال :

١- أن يتم الاتفاق في المفاوضات بين مصر وإسرائيل وممثلي السكان في الضفة الغربية وغزة على الوضع النهائي للضفة الغربية وغزة والمسائل البارزة الأخرى بحلول نهاية الفترة الانتقالية .

٢- أن يعرضوا اتفاقهم للتصويت من جانب الممثلين المنتخبين لسكان الضفة الغربية وغزة .

٣- إتاحة الفرصة للمثلين المنتخبين عن السكان في الضفة الغربية وغزة لتحديد الكيفية التي سيحكمون بها أنفسهم تمشيا مع نصوص الاتفاق .

٤- المشاركة - كما ذكر أعلاه - في عمل اللجنة التي تتفاوض بشأن معاهدة السلام بين إسرائيل والأردن .

د - سيتم اتخاذ كل الإجراءات والتدابير الضرورية لضمان أمن إسرائيل وجيرانها خلال الفترة الانتقالية وما بعدها . وللمساعدة على توفير مثل هذا الأمن ستقوم سلطة الحكم الذاتي بتشكيل قوة قوية من الشرطة المحلية . وتشكل هذه القوة من سكان الضفة الغربية وغزة .. وستكون قوة الشرطة على اتصال مستمر بالضباط الإسرائيليين والأردنيين والمصريين المعنيين لبحث الأمور المتعلقة بالأمن الداخلي .

هـ- خلال الفترة الانتقالية يشكل ممثلو مصر وإسرائيل والأردن وسلطة الحكم الذاتي لجنة تعقد جلساتها باستمرار وتقرر باتفاق الأطراف صلاحيات السماح بعودة الأفراد الذين طردوا من الضفة الغربية وغزة في عام ١٩٦٧ مع اتخاذ الإجراءات الضرورية لمنع الاضطراب وأوجه التمرد ويجوز أيضا لهذه اللجنة أن تعالج الأمور الأخرى ذات الاهتمام المشترك .

و - ستعمل مصر وإسرائيل مع بعضهما البعض ومع الأطراف الأخرى المهتمة لوضع إجراءات متفق عليها للتنفيذ العاجل والدائم لحل مشكلة اللاجئين .

ب - مصر وإسرائيل :

١- تتعهد كل من مصر وإسرائيل بعدم اللجوء للتهديد بالقوة أو استخدامها لتسوية المنازعات وأن أي نزاعات ستتم تسويتها بالطرق السلمية وفقا لما نصت عليه المادة ٣٣ لميثاق الأمم المتحدة .

٢- توافق الأطراف من أجل تحقيق السلام فيما بينهم على التفاوض باخلاص بهدف توقيع معاهدة سلام بينهم خلال ثلاثة أشهر من توقيع هذا الإطار ، بينما تتم دعوة

الأطراف الأخرى في النزاع للتقدم في نفس الوقت للتفاوض وإبرام معاهدات سلام مماثلة لفرض تحقيق سلام شامل في المنطقة وأن إطار إبرام معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل سيحكم مفاوضات السلام بينهما وستتفق الأطراف على الشكليات والجدول الزمني أو تنفيذ التزاماتهم في ظل المعاهدة .

ج - المبادىء المرتبطة :

١- تعلن مصر وإسرائيل أن المبادىء والنصوص المذكورة أدناه ينبغي أن تطبق على معاهدات السلام بين إسرائيل وجيرانها مصر والأردن وسوريا ولبنان .

٢- على الموقعين أن يقيموا فيما بينهم علاقات طبيعية كتلك القائمة بين الدول التي هي في حالة سلام كل منها مع الأخرى .

وعند هذا الحد ينبغي أن يتعهدوا بالالتزام بنصوص ميثاق الأمم المتحدة ويجب أن تشمل الخطوات التي تتخذ في هذا الشأن على :

أ - اعتراف كامل .

ب - إلغاء المقاطعات الاقتصادية .

ج - الضمان في أن يتمتع المواطنون في ظل السلطة القضائية بحماية الإجراءات القانونية في اللجوء للقضاء .

٣- يجب على الموقعين استكشاف إمكانيات التطور الاقتصادية في إطار اتفاقيات السلام النهائية بهدف المساهمة في صنع جو السلام والتعاون والصداقة التي تعتبر هدفا مشتركا لهم .

٤- يجب إقامة لجان للدعاوى القضائية للحسم المتبادل لجميع الدعاوى القضائية المالية .

٥- يجري دعوة الولايات المتحدة للاشتراك في المحادثات بشأن موضوعات متعلقة بشكليات تنفيذ الاتفاقيات وإعداد جدول زمني لتنفيذ تعهدات الأطراف .

٦- سيطلب من مجلس الأمن التابع للولايات المتحدة المصادقة على معاهدات السلام وضمان عدم انتهاك نصوصها وسيطلب من الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن التوقيع

على معاهدات السلام وضمان احترام نصوصها . كما سيطلب منهم مطابقة سياستهم وتصرفاتهم مع التعهدات التي يحتويها هذا الإطار .

عن حكومة جمهورية مصر العربية
محمد أنور السادات

عن حكومة إسرائيل
مناحيم بيغين

ثانيا : معاهدة السلام
بين جمهورية مصر العربية ودولة إسرائيل
١- النصوص

الديباجة

إن حكومة جمهورية مصر العربية وحكومة دولة إسرائيل ،

اقتناعا منهما بالضرورة الماسة لإقامة سلام عادل وشامل ودائم في الشرق الأوسط وفقا لقراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ ،

إذ تؤكدان من جديد التزامهما باطار السلام في الشرق الأوسط المتفق عليه في كامب دافيد ، المؤرخ في ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ ،

وإذ تلاحظان أن الإطار المشار إليه إنما قصد به أن يكون أساسا للسلام ، ليس بين مصر وإسرائيل فحسب بل أيضا بين إسرائيل وأي من جيرانها العرب كل فيمايخصه ممن يكون على استعداد للتفاوض من أجل السلام معها على هذا الأساس ،

ورغبة في إنهاء حالة الحرب بينهما وإقامة سلام تستطيع فيه كل دولة في المنطقة أن تعيش في أمن ،

واقتناعا منهما بأن عقد معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل يعتبر خطوة هامة في طريق السلام الشامل في المنطقة والتوصل إلى تسوية للنزاع العربي الإسرائيلي بكافة نواحيه ،

وإذ تدعوان الأطراف العربية الأخرى في النزاع إلى الاشتراك في عملية السلام مع إسرائيل على أساس مبادىء إطار السلام المشار إليها آنفا واسترشادا بينهم بها .

وإذ ترغبان أيضا في إنماء العلاقات الودية والتعاون بينهما وفقا لمبادىء القانون الدولي التي تحكم العلاقات الدولية في وقت السلم ،

قد اتفقا على الأحكام التالية بمقتضى ممارستهما الحرة لسيادتهما من أجل تنفيذ الإطار الخاص بعقد معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل :

(المادة الأولى)

١- تنتهي حالة الحرب بين الطرفين ، ويقام السلام بينهما عند تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة .

٢- تسحب إسرائيل كافة قواتها المسلحة والمدنيين من سيناء إلى ما وراء الحدود الدولية بين مصر وفلسطين تحت الانتداب ، كما هو وارد بالبروتوكول الملحق بالمعاهدة (الملحق الأول) وتستأنف مصر ممارسة سيادتها الكاملة على سيناء .

٣- عند إتمام الانسحاب المرحلي المنصوص عليه في الملحق الأول ، يقيم الطرفان علاقات طبيعية وودية بينهما طبقا للمادة الثالثة (فقرة ٣) .

(المادة الثانية)

إن الحدود الدائمة بين مصر وإسرائيل ، هي الحدود الدولية المعترف بها بين مصر وفلسطين تحت الانتداب كما هو واضح بالخريطة في الملحق الثاني وذلك دون المساس بما يتعلق بوضع قطاع غزة ، ويقر الطرفان بأن هذه الحدود مصونة لا تمس ، ويتعهد كل منهما باحترام سلامة أراضي الطرف الآخر بما في ذلك مياهه الإقليمية ومجاله الجوي .

(المادة الثالثة)

١- يطبق الطرفان فيما بينهما أحكام ميثاق الأمم المتحدة ومبادىء القانون الدولي التي تحكم العلاقات بين الدول في وقت السلم ، وبصفة خاصة .

(أ) يقر الطرفان ويحترم كل منهما سيادة الآخر وسلامة أراضيه واستقلاله السياسي .

(ب) يقر الطرفان ويحترم كل منهما الآخر في أن يعيش في سلام داخل حدوده الآمنة والمعترف بها .

(ج) يتعهد الطرفان بالامتناع عن التهديد باستخدام القوة أو استخدامها أحدهما ضد الآخر على نحو مباشر أو غير مباشر ، وبحل كافة المنازعات التي تنشأ بينهما بالوسائل السلمية .

٢- يتعهد كل طرف بأن يكفل عدم صدور فعل من أفعال الحرب أو الأفعال العدوانية وأفعال العنف أو التهديد بها من داخل أراضيه وبواسطة قوات خاضعة لسيطرته أو مرابطة على أراضيه ضد السكان أو المواطنين أو الممتلكات الخاصة بالطرف الآخر ، كما يتعهد كل طرف بالامتناع عن التنظيم أو التحريض أو الإثارة أو المساعدة أو الاشتراك في فعل من أفعال الحرب أو الأفعال العدوانية أو النشاط الهدام أو أفعال العنف الموجهة ضد الطرف الآخر في أي مكان . كما يتعهد بأن يكفل تقديم مرتكبي مثل هذه الأفعال للمحاكمة .

٣- يتفق الطرفان على أن العلاقات الطبيعية التي ستقام بينهما ستتضمن الاعتراف الكامل والعلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية وإنهاء المقاطعة الاقتصادية والحواجز ذات الطابع التمييزي المفروضة ضد حرية انتقال الأفراد والسلع ، كما يتعهد كل طرف بأن يكفل تمتع مواطني الطرف الآخر الخاضعين لاختصاصه القضائي بكافة الضمانات القانونية ، ووضع البروتوكول الملحق بهذه المعاهدة (الملحق الثالث) الطريقة التي يتعهد الطرفان بمقتضاها بالتوصل إلى إقامة هذه العلاقات وذلك بالتوازي مع تنفيذ الأحكام الأخرى لهذه المعاهدة .

(المادة الرابعة)

١- بغية توفير الحد الأقصى للأمن لكلا الطرفين وذلك على أساس التبادل تقام ترتيبات أمن متفق عليها بما في ذلك مناطق محدودة التسليح في الأراضي المصرية والإسرائيلية وقوات أمم متحدة ومراقبون من الأمم المتحدة ، وهذه الترتيبات موضحة تفصيلا من حيث الطبيعة والتوقيت في الملحق الأول ، وكذلك أية ترتيبات أمن أخرى قد يتفق عليها الطرفان .

٢- يتفق الطرفان على تمركز أفراد الأمم المتحدة في المناطق الموضحة

بالملحق الأول ويتفق الطرفان على ألا يطلبا سحب هؤلاء الأفراد ، وعلى أن سحب هؤلاء الأفراد لن يتم إلا بموافقة مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بما في ذلك التصويت الإيجابي للأعضاء الخمسة الدائمين بالمجلس وذلك ما لم يتفق الطرفان على خلاف ذلك .

٣- تنشأ لجنة مشتركة لتسهيل تنفيذ هذه المعاهدة وفقا لما هو منصوص عليه في الملحق الأول .

٤- يتم بناء على طلب أحد الطرفين إعادة النظر في ترتيبات الأمن المنصوص عليها في الفقرتين ١ ، ٢ من هذه المادة وتعديلها باتفاق الطرفين .

(المادة الخامسة)

١- تتمتع السفن الإسرائيلية والشحنات المتجهة من إسرائيل وإليها بحق المرور الحر في قناة السويس ومداخلها في كل من خليج السويس والبحر الأبيض المتوسط وفقا لأحكام اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨ المنطبقة على جميع الدول . كما يعامل رعايا إسرائيل وسفنها وشحناتها وكذلك الأشخاص والسفن والشحنات المتجهة من إسرائيل وإليها معاملة لا تتسم بالتمييز في كافة الشئون المتعلقة باستخدام القناة.

٢- يعتبر الطرفان أن مضيق تيران وخليج العقبة من الممرات المائية الدولية المقترحة لكافة الدول دون عائق أو إيقاف لحرية الملاحة أو العبور الجوي . كما يحترم الطرفان حق كل منهما في الملاحة والعبور الجوي من وإلى أرضه عبر مضيق تيران وخليج العقبة .

(المادة السادسة)

١- لا تمس هذه المعاهدة ولا يجوز تفسيرها على أي نحو يمس حقوق والتزامات الطرفين وفقا لميثاق الأمم المتحدة .

٢- يتعهد الطرفان بأن ينفذا بحسن نية التزاماتهما الناشئة عن هذه المعاهدة بصرف النظر عن أي فعل أو امتناع عن فعل من جانب طرف آخر وبشكل مستقل عن أية وثيقة خارج هذه المعاهدة .

٣- كما يتعهدان بأن يتخذا كافة التدابير اللازمة لكي تنطبق في علاقاتهما

أحكام الاتفاقيات المتعددة الأطراف التي يكونان من أطرافها بما في ذلك تقديم الإخطار المناسب للأمين العام للأمم المتحدة وجهات الإيداع الأخرى لمثل هذه الاتفاقيات .

٤- يتعهد الطرفان بعدم الدخول في أي التزام يتعارض مع هذه المعاهدة .

٥- مع مراعاة المادة ١٠٣ من ميثاق الأمم المتحدة ، يقر الطرفان بأنه في حالة وجود تناقض بين التزامات الأطراف بموجب هذه المعاهدة وأي من التزاماتهما الأخرى فان الالتزامات الناشئة عن هذه المعاهدة تكون ملزمة ونافذة .

(المادة السابعة)

١- تحل الخلافات بشأن تطبيق أو تفسير هذه المعاهدة عن طريق المفاوضة .

٢- إذا لم يتيسر حل هذه الخلافات عن طريق المفاوضة فتحل بالتوفيق أو تحال إلى التحكيم .

(المادة الثامنة)

يتفق الطرفان على إنشاء لجنة مطالبات للتسوية المتبادلة لكافة المطالبات المالية .

(المادة التاسعة)

١- تصبح هذه المعاهدة نافذة المفعول عند تبادل وثائق التصديق عليها .

٢- تحل هذه المعاهدة محل الاتفاق المعقود بين مصر وإسرائيل في سبتمبر ١٩٧٥ .

٣- تعد كافة البروتوكولات والملاحق والخرائط الملحقة بهذه المعاهدة جزءا لا يتجزأ منها .

٤- يتم إخطار الأمين العام للأمم المتحدة بهذه المعاهدة لتسجيلها وفقا لأحكام المادة ١٠٣ من ميثاق الأمم المتحدة .

حررت في واشنطن دي سي في ٢٦ مارس سنة ١٩٧٩م ، ٢٧ ربيع الثاني سنة ١٣٩٩هـ . من ثلاث نسخ باللغات العربية والعبرية والإنجليزية ، وتعتبر جميعها

متساوية الحجية وفي حالة الخلاف في التفسير فيكون النص الإنجليزي هو الذي يعتد به .

عن حكومة	عن حكومة
جمهورية مصر العربية	إسرائيل
(توقيع) محمد أنور السادات	(توقيع) مناحم بيجين

شهد التوقيع
جيمي كارتر
(رئيس الولايات المتحدة الأمريكية)

** إن المتفحص لاتفاقيات كامب ديفيد يلاحظ أن اليهود استغلوا انهيار السادات استغلالاً تاماً فحصلوا منه على أشياء خطيرة وصبروا وقتا طويلا على أمل أن يحصلوا عليها ، وأعطاهم السادات ما يريدون من أجل مكسب بسيط بأن ترجع سيناء منزوعة السلاح إلى مصر .

** لقد حصلوا منه على اعتراف أكبر دولة عربية بهم وهذا يعني - من جانب - أن العرب لا يستطيعون أن يهددوا أمن إسرائيل في المستقبل القريب ومن جانب آخر عن الدول العربية الأخرى وهي أضعف من مصر ستحذوا حذو مصر في النهاية كما حصل في اتفاقيات سنة ١٩٤٩ حين بدأت مصر بتوقيع اتفاقية الهدنة مع إسرائيل .. مكث العرب يزايدون عليها بعض الوقت ثم جعلوا يوقعون على معاهدات الهدنة كل على حدة بشروط أسوأ من الشروط المصرية . وهذا ما حدث فعلا بعد كامب ديفيد ، قطعت كل الدول العربية علاقاتها مع النظام المصري ثم بدأت تعود واحدة بعد الأخرى وبدأت الأردن تغازل وتطالب بالمؤتمر الدولي وسوريا تتمنع تمنع الراغب (١) .

** انهار الحاجز النفسي عند الإنسان العربي ضد اليهود وأصبح اليهودي مقبولا في المجتمع العربي . إذ يزور مصر كسائح ويقابل بالاحترام ويفرض وجوده في كل مكان بكل وقاحة ويحتج إن وجد بعض الصدود هنا وهناك بل إنه يطالب بأن تكون

---

(١) كتبت هذه الدراسة في سنة ١٩٨٦ ولم تنشر لظروف قاهرة وها هي مفاوضات السلام تؤكد ما ذهبنا إليه حيث يفاوض العرب على أقل من كامب ديفيد .

اتفاقيات كامب ديفيد اتفاقية حب ولو بالإكراه إنهم لا يكتفون بمجرد القبول ... يجب على العرب أن يحبوهم ويعجبوا بهم وإلا فانهم لا يطبقون اتفاقيات السلام.

** انفتاح السوق الاستهلاكي الكبير للبضائع والمنتوجات الإسرائيلية مما ينتج ... دعم للاقتصاد الإسرائيلي وخصوصا بعد أن أصبح المصريون وسطاء لتمرير البضائع الإسرائيلية إلى بلدان أخرى إن لم تكن وصلتها إسرائيل بشكل سري ، وكذلك ترك النظام المصري لإسرائيل ووعد السادات باعطائهم ماء النيل .

** مطالبة إسرائيل المستمرة بالتدخل في مجال الثقافة والتعليم في مصر ومطالبتها بتغيير برامج الإعلام والتدريس في المدارس بحيث يدرس الطالب المصري عن إسرائيل وكأنه يدرس عن سوريا أو الأردن إن لم يكن أفضل .

** جعلت معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية وثائق كامب ديفيد لها السيادة على كل الاتفاقات السابقة مثل الدفاع العربي المشترك وحظرت على مصر الدخول في أي حلف ضد إسرائيل وهذا مكن إسرائيل أن تضرب الفلسطينيين في لبنان عام ١٩٨٢ وكل أقصى ما فعلته مصر هو سحب السفير المصري من تل أبيب ، وعتبت إسرائيل لمصر تبارك مصر خطوتها ، بل وفي أثناء المباحثات التي سبقت كامب ديفيد ضربت إسرائيل قواعد الفلسطينيين في الجنوب اللبناني واحتلت أراضٍ لبنانية فما كان من السادات حين أيقظه وزير خارجيته (محمد إبراهيم كامل) ليعلمه بالخبر ويطلب منه وقف المباحثات مع إسرائيل ، وحين استيقظ السادات وسمع الخبر قال لمحمد إبراهيم كامل : هل أدبوهم ؟! (١) .

** لقد كان من نتائج تدخل مناحيم بيجن لدى السادات وطلبه وقف الحملات التي تشنها الصحف الإسلامية ضد إسرائيل أن أوقف السادات كل الصحف الإسلامية واعتقل قادة الحركة الإسلامية إرضاء لأسياده حتى لا يتهم بأنه اخترق معاهدة كامب ديفيد مما دفع الشباب المسلم إلى تصفيته .

** لقد كرست اتفاقيات كامب ديفيد نظرة إسرائيل إلى الشعب الفلسطيني فاعتبرته

---

(١) السلام الضائع في اتفاقيات كامب ديفيد - محمد إبراهيم كامل .

الفلسطينيين خارج الضفة والقطاع لا شأن لهم بفلسطين وحتى الفلسطينيين الموجودين في الضفة والقطاع سمتهم سكان الضفة والقطاع ، وفي نصوص بيجن (سكان يهودا والسامرة) أو عرب أرض إسرائيل ، وهو بهذا يتيح الفرصة لليهود لتعريب الشعب الفلسطيني وتهجيره عن أرضه بوسائل الضغط النفسي والاقتصادي بالتعاون مع مصر والأردن بعد أن فشل العدوان العسكري في القضاء عليه وهذا يفسر لماذا يحرص حزب العمل على طرح *إعطاء المناطق المحتلة في الضفة الغربية للملك حسين* ، فهم يعلمون مشكلة التواجد الفلسطيني الكثيف وتهديده للدولة العبرية ويطمئنون لقدرة الملك حسين والدول الأخرى على اجتذاب الفلسطينيين بالهجرة مع الزمن ، في الوقت الذي يضيق اليهود عليهم الخناق في الأرض المحتلة .

** إن زيارة السادات للقدس حين قام بمبادرته المشؤومة تعني اعترافا ضمنيا بأنها خصمة للكيان الصهيوني .

وباختصار كانت اتفاقيا "كامب ديفيد هي قمة العلو والإفساد الإسرائيلي وقمة الانهيار للأنظمة العربية التي فرطت في أرض الإسلام نتيجة تفرقها وضعفها وكانت تتويجا لكل الإنجازات التي حققها اليهود في السابق ولكل الهزائم والتراجعات التي منها العرب ، وكانت أيضا تفسيرا واضحا للخط الذي سارت عليه كل الأطروحات والحلول السابقة . فقد حصل اليهود بالمفاوضات على ما لم يحصلوا عليه بالحرب .

*** وإذا أردنا أن نحدد خطوطاً رئيسية من هذا الاستطلاع الواسع للحلول والمقترحات المطروحة على الشعب الفلسطينين ستجد التالي :

١- إنها كلها ذات خط واضح يهدف في النهاية إلى ترويض العرب والمسلمين وجعلهم يقبلون بوجود دولة اليهود في قلب بلاد الإسلام في فلسطين .

٢- إنها كانت تقدم للشعب الفلسطيني في وقت يظن فيه أنه يستطيع الحصول على أكثر مما يعرض عليه ، ولذلك سيضطر إلى رفضها فيظهر أمام العالم وكأنه الشعب المتعنت المتعطش للدماء .

٣- في الوقت الذي كان يظهر فيه قادة الشعب الفلسطيني بعض القبول لأي مقترحات ، سرعان ما تسارع الدول الاستعمارية إلى سحبها مما يدلل على كذب المبادرات السلمية .

٤- كانت هذه العروض تتناقص مع الزمن لتعكس الواقع الذي وصل إليه اليهود ولم تكن تمثل أي اعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني ، إذ أن الحق لا يتغير مع الزمن وهكذا لم تحدد إسرائيل حدودها إلى الآن بل قال بن جوريون : «إن جيش الدفاع هو الذي يحدد حدود إسرائيل» .

٥- لقد أثبتت التجارب أن كل الادعاءات التي يدعيها الانهزاميون من أن القيام بالمبادرات السلمية يحرج إسرائيل أمام المجتمع الدولي ، إن كل هذه الادعاءات عقيمة ، فاسرائيل حين تملك القوة لا تقيم وزنا للمجتمع الدولي ولا احتراما . وقد أثبتت حقائق التاريخ أن الناس من الممكن أن يعطفوا على الضعيف ولكنهم لا يعطونه غير هذا العطف ، أما القوي فانهم يحترمونه ويهابونه ويحسبون له الحساب .

٦- تؤكد هذه المبادرات الحقيقة القرآنية «كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة» وتؤكد أيضا الحقيقة التاريخة بأن «الأرض لمن غلب» وأن الطريق الوحيد لنيل الحقوق هو القوة وليس الاستجداء ولا مائدة المفاوضات وأن مائدة المفاوضات لا يلجأ إليها الأقوياء إلا ليفرضوا على الضعفاء إرادتهم ، وأن الرأي العالمي لا وجود له حين يتعلق الأمر بالمسلمين .. فممن يتكون هذا الرأي من الصليبية العالمية والشيوعية الدولية التي تتحكم فيهما الصهيونية تحكما تاما بالإضافة إلى كرهه الطبيعي للإسلام .

إن هذا الرأي العالمي لن يكون إلا ضد المسلمين . لقد عمل اليهود كل الجرائم والفظائع التي لم يرتكبها بشر - فماذا كانت النتيجة . ضجة مفتعلة لعدة أيام ثم تنسى . ولكن حين يموت يهودي نتيجة لعمل فدائي تقوم الدنيا ولا تقعد .

قتل امرىء في غابة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر (١)

** وإلى أولئك الذين يعولون على اتفاقيات سلام مع إسرائيل نسوق هذا المثال من

---

(١) كتبت هذه الدراسة سنة ١٩٨٦ كما أسلفنا ومنع من طباعتها ظروف قاهرة وحدث بعد ذلك حرب الخليج وحرب البوسنة والهرسك لتؤكد ما ذهبنا إليه .

احترام الاتفاقيات التي يعقدها اليهود ويرويها رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق (إسحق رابين) في مذكراته . عن اتفاق الهدنة مع مصر سنة ١٩٤٨ يقول :

«خطتنا المسماة (عملية يوأف) ضمنت تشريح الجيش المصري إلى ثلاثة أجزاء ثم نهاجم كل مجموعة على حدة ، في آخر مرحلة من العملية كنا نتمنى الاستيلاء على بئر السبع وعلى غزة إذا كان ذلك ممكنا ، وبالاستفادة من الهدنة كنا جاهزين ومشتاقين للعمل ... ولكن كان هناك ممسك علينا كيف نتحاشى اللوم الذي سيقع علينا سياسيا إذا اخترقنا الهدنة ؟! . كان لابد أن نجد ذريعة لتجديد القتال ... الاتفاقية التي تضمنتها الهدنة كانت تقضي بارسال سياراتنا للدخول إلى النقب ، ولكن لم يكن المصريون يحترمون هذه الناحية من الاتفاقية ، وعلى هذا قررنا أن نرسل رتلا من السيارات تحمل المؤن إلى النقب كعمل استفزازي مدروس وعندما يطلق المصريون النار سيزودوننا بالذريعة اللازمة لتجديد القتال . وخوفنا الوحيد كان هو أن يغير المصريون أسلوبهم ويسمحوا للرتل بالعبور ، نفذت العملية في ١٥ أكتوبر وهذا ما حصل بالضبط .. كلما قطع الرتل ميلا جديدا بدون إيذاء كانت أعصابنا تتمدد إلى درجة الانفجار ، والحجة التي نريدها لهجومنا تفلت من أيدينا ، وفي النهاية بمساعدة بعض الطلقات الطائشة واحدة هنا وأخرى هناك بدأنا القتال وغيرنا خطتنا في اختراق الخطوط المصرية ، ولكن اللواء المدرع الوحيد في جيش الدفاع الإسرائيلي الذي كان مكلفا بالاستفادة من تمزيق الجيش المصري فشل في هجوم نهاري في الاستيلاء على منطقة حصينة وأخرج من ساحة المعركة في أول يوم من القتال ومن الواضح أنه سيأخذ وقتا طويلا ليعود إلى مكانه في المعركة ، فاضطررنا إلى أن نغير خطة (فرق تسد) واتبعنا سياسة الاستيلاء على مناطق حصينة على مفترق الطرق الرئيسية والاندفاع أماما تجاه النقب في سبعة أيام من القتال الشديد العنيد وأحيانا يدا بيد (بالسلاح الأبيض) .

فتحت الطريق (شمال - جنوب) إلى النقب في آخر يوم من الهدنة والقتال ضد المصريين وضد ساعة هدنة الأمم المتحدة المرتقبة استولينا على مدينة بئر السبع وعندما وضعت الهدنة موضع التنفيذ وجد الجيش المصري نفسه في أسوأ موقف ، حيث قوة أكثر من فرقة مبعثرة على طريق اسدود - المجدل قطعت عن بقية الجيش المصري وفرقة أخرى مدرعة كانت محصورة في جيب الفالوجا في قلب النقب

واضطرت القيادة المصرية إلى اتخاذ قرارات مؤلمة . لقد اضطروا إلى إخلاء منطقة أسدود والمجدل الساحلية دون قتال ، ساحبين قواتهم جنوبا إلى منطقة غزة تحت حماية قرار الأمم المتحدة ووقف إطلاق النار حيث ظل لواء الفالوجا محاصرا وسليما وقد وقعنا اتفاقية الهدنة مع مصر في فبراير سنة ١٩٤٩ . بانتهاء عملية يوآش انتهت حرب الاستقلال وقامت مباحثات مصرية إسرائيلية حيث سحق الاتحاد العربي وباقي الجبهات ظلت صامتة» (١) أ . هـ .

وشهد شاهد من أهلها .

هذا نموذج لما يمكن أن تكون عليه الاتفاقيات والمعاهدات مع إسرائيل ففي أي وقت يشعر فيه اليهود بالقوة وبالحاجة إلى التوسع فانهم لا يعدمون وسيلة أو ذريعة لإشعال حرب جديدة ، لتوسيع رقعة الأرض الخاضعة لسيطرتهم . وما أكثر الحجج والذرائع التي يتعرض لها الشعب المسلم .

وبعد هذا يبقى السؤال . ما الحل إذن ؟!

والجواب في كلمة واحدة الجهاد في سبيل الله .

إنها الجواب الشافي لكل مصائب الأمة فما ترك الجهاد قوم إلا ذلوا .

إن الجهاد هو الإجابة الصحيحة على محاولات الإذلال التي يتعرض لها الشعب المسلم في فلسطين وباقي أقطار الإسلام . الجهاد بمعناه الكامل والحقيقي الذي ينتهي بالنصر أو الشهادة .

ولكن كيف يكون الجهاد هو الطريق إلى التحرير ؟

وللإجابة على هذا السؤال لابد لنا من استعراض ثلاث تجارب جهادية للشعب الفلسطيني .

تجربة الشيخ عز الدين القسام .

تجرة ثورة فلسطين ٣٦ - ٣٩ .

حرب ١٩٤٨ .

وهذه ستكون موضوعات الباب القادم إن شاء الله .

---

(١) مذكرات إسحق رابين .

الباب الخامس

تجـــارب جهـــادية

الفصل الأول

تجربة الشيخ عز الدين القسام

تظل تجربة الشيخ عز الدين القسام معلما بارزا في التاريخ الفلسطيني رغم قصر عمر التجربة وصغر حجمها ، إلا أنها ظلت رمزا للكفاح المسلح الفلسطيني حتى أن كثيرا من الاتجاهات والتنظيمات الفلسطينية تدعي انتساب القسام إليها حتى تنسب إلى نفسها شرف العمل الذي قام به ، والواقع أن معظم هذه المحاولات ما هي إلا التفاف على التاريخ ومحاولة للاحتيال على الجماهير خصوصا حين يأتي هذا الادعاء من الشيوعيين الذين يدعون أن الشيخ القسام كان مرتبطا بهم بشكل ما ، وهم بهذا يجمعون التناقضات .. هذا الشيخ رهن حياته للإسلام ويدعون انتسابه للشيوعيين إن هذا لعجب عجاب .

وكذلك يحاول كثيرون أن ينسبوه إلى حزب الاستقلال ، ولكن ممارسات حزب الاستقلال قبل وبعد القسام لاتوحي بهذا الانتماء ، فقد كان أتباع هذا الحزب مناضلين سياسيين على ورق الصحف والبيانات السياسية . وكان هذا الرجل مجاهدا من نوع آخر عملي يحمل روحه على كفه وينطلق في سبيل الله ، إذن حتى لو ثبت انتماء القسام لهذا الحزب كما يدعون فانه انتساب شكلي لا يعطي الحزب مضمونا غير مضمونه - فقد كان-صاحب منهج آخر .

والجدل الأخطر الذي يدور حول القسام هو انتسابه أو علاقته بالحاج أمين الحسيني والحقيقة أن المسألة غاية في التعقيد حتى نصل إلى الحقيقة وخصوصا لطبيعة العمل السري والعلاقات التي لا يعلم بها الجميع .

هناك شهادات متضاربة من أتباع القسام نفسه فمنهم من ينفي أي علاقة للقسام بالحاج أمين الحسيني كصبحي ياسين ، بل يدعي أن القسام حين اتصل بالحاج أمين الحسيني وطلب منه المعونة للقيام بالثورة المسلحة رفض الحاج أمين ذلك وقال للمراسل : إننا نكتفي الآن بالنضال السياسي ونرجو أن نصل إلى أهدافنا عن طريقه - وهناك روايات أخرى عن بعض أتباع القسام كأبي إبراهيم الكبير وغيره تؤكد بأن

الاتصال كان مستمرا بين القسام والحاج أمين الحسيني . وأن الحاج أمين أرسل بعض المال إلى القسام .

وخروجا من هذا الجدل في هذه الدائرة المفرغة لابد لنا أن نلاحظ أن القسام لم يكن بعيدا عن مدرسة الحاج أمين الفكرية فلم يطل الوقت كثيرا بعد القسام حتى كان الحاج أمين الحسيني على رأس ثورة مسلحة شملت كل فلسطين وكانت كل خيوط هذه الثورة في يد الحاج أمين ، فمن بقي من أتباع القسام انخرطوا في الثورة تحت قيادة الحاج أمين الذي ظل طوال الأعوام السابقة بعيدا عن الظهور كقائد للتنظيمات المسلحة ، وإن كان يشهد له تاريخه النضالي وصلابته وعناده منذ كان شابا بأنه القائد الأكثر وطنية وإخلاصا والأقرب إلى روح القسام وفكره ، وقد يكون الحاج أمين مضطرا بحكم وظيفته العامة كمفتٍ لفلسطين ورئيس للمجلس الإسلامي الأعلى أن يكون لين اللهجة في فترة ما في التاريخ الفلسطيني ، ولكن حين جد الجد وجدناه الرجل الصلب العنيد الذي تحسب له بريطانيا والحركة الصهيونية كل حساب .

ليس هذا دفاعا عن الحاج أمين ولا محاولة لإثبات صلة بينه وبين القسام إذ لا ينقص نفي هذه الصلة من قدر الحاج أمين وجهاده ولكنه تنويه بسيط للكثيرين الذين يحاولون - بغضا للحاج أمين ولغرض في نفوسهم - أن ينفوا بأي شكل ويكذبوا كل الروايات التي تؤكد هذه الصلة .

إذن لا طائل من وراء هذه المحاولات فالرجلان يجمعهما منهج واحد هو الوطنية الإسلامية والشجاعة المتناهية والصلابة التي لا هوادة معها ولا مساومة على حقوق الوطن .

نخلص إلى القول : إن حركة الشيخ عز الدين القسام كانت نقطة انطلاق جديدة في العمل الفلسطيني أعطته روحا جديدة وإن كان حجمها بسيطا حتى أنها صارت مصدر إلهام لكل من ينادي بالكفاح المسلح كوسيلة لتحرير فلسطين ومن هنا تنبع أهميتها .

* الشيخ عز الدين القسام من مواليد قرية جبلة في محافظة اللاذقية في سوريا إذن لم يكن فلسطينيا وهذا بحد ذاته يعطي معنى خاصا لحركته إذ أنها لم تكن إقليمية

ضيقة بقدر ما كانت عالمية . وقد درس في الأزهر الشريف وتخرج منه عالما ، ثم عاد إلى بلده جبلة وبدأ عمله كواعظ يبصر الناس بدينهم ولم يلبث حتى جاء الفرنسيون إلى سوريا محتلين فلم يقبل وهو العالم المسلم الذي كان يلقي على المسلمين دروس الجهاد وسير الأبطال الخالدين من عظماء الإسلام أن يقف مكتوف الأيدي ينظر إلى المحتلين وهم يدوسون كرامة شعبه فجند من حوله ممن لمس فيهم روح الإيمان واشترك في مقاومة الاحتلال الفرنسي في سوريا حتى سحقت المقاومة السورية وحكم عليه بالإعدام غيابيا ففر إلى فلسطين التي كانت واقعة تحت الاحتلال البريطاني آنذاك ومرة أخرى هناك روايات حول فترة وصوله إلى فلسطين والغالب أنها كانت في أوائل العشرينيات بعد سيطرة فرنسا على سوريا وإخماد الثورة فيها .

هذه النشأة الأزهرية تحدد هوية الشيخ تحديدا أكثر دقة فقد كان إسلاميا فبالإضافة إلى صفته الأولى وهي عالميته وبعده عن الإقليمية . وإن كانت هذه العالمية تنضوي تحت لواء الإسلام فهي ليست جديدة على أي حال .

لقد جاء الشيخ إلى حيفا وبدأ يعمل كمدرس ثم كإمام لمسجد الاستقلال وكرئيس لجمعية الشبان المسلمين في حيفا ، وكخطيب مفوه التفت حوله الجماهير من الفقراء في المدينة والقرى المجاورة ، وهذا السبب جعل الشيوعيين يدعون انتساب القسام إليهم لأنهم بزعمهم قاموا من أجل الفقراء ، ونسي هؤلاء أو تناسوا أن الفقراء هم في الغالب وقود لدعوة الإسلام والوسط الذي تعيش فيه الدعوة .. وهل كان أتباع الأنبياء إلا الفقراء ؟! .

بالطبع ليس في الإسلام تقسيم طبقي فكل من آمن بهذا الدين غنيا كان أو فقيرا فله أجره عند ربه «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وكم من الأغنياء من بذلوا أموالهم في سبيل الله وكانوا أصدق في الإيمان من آلاف الفقراء ، ويكفي أن نتذكر أبا بكر رضي الله عنه خير هذه الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين الذي جهز جيش العسرة فقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما ضر ابن عفان ما فعل بعدها» . وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم جميعا كانوا من الأغنياء وكانوا يبذلون أموالهم في سبيل الله ولكن تظل القاعدة أن معظم

أتباع الأنبياء من الفقراء فليس أمرا عجيبا أن يلتف الفقراء من حول القسام وهو يسير بدعوته على منهج النبوة ، وثمة حقيقة أخرى تكذب الشيوعيين في ادعائهم أن القسام ينتسب إليهم لأنه يدعو بين الفقراء كما يدعون هم ، في الوقت الذي كان فيه الحزب الشيوعي في تلك الفترة في غالبيته الساحقة من اليهود أعدى أعداء القسام، والقلة العربية المنتسبة للحزب الشيوعي كانت من أولاد الأغنياء ، كما هو حال الشيوعية في بلادنا .

إذن فهوية القسام هوية واضحة إنه مسلم بكل ما تعني كلمة الإسلام من آفاق .

بدأ القسام يدرس الأوضاع من حوله في فلسطين وكانت الحركة الفلسطينية في ذلك الوقت تركز في عدائها على الحركة الصهيونية ، أما الإنجليز فقد كانت تعتبرهم أصدقاء !! ألم يكونوا حلفاء الأمس ضد الأتراك ؟! وربما كانت عاتبة عليهم لنقض عهودهم مع العرب ، ولكن الحركة الفلسطينية وقد كانت لا تزال متأثرة بالثورة العربية وبعلاقتها مع فيصل ابن الشريف حسين كانت تأمل أن تنال حقوقها من خلال التأثير على بريطانيا ، ولذلك كان النضال في فترة العشرينيات في معظمه نضالا سياسيا من احتجاجات وبيانات ومظاهرات ووفود تذهب إلى لندن لتوضيح وجهة النظر العربية ، وفي الواقع أن هناك سببا أكثر أهمية يحاول أن يتجاهله المؤرخون يفسر لجوء الحركة العربية في فلسطين إلى سلوك هذا السبيل وهو تفوق الإنجليز الساحق بحيث لم يكن العرب ليفكروا أن باستطاعتهم أن يقاوموا بريطانيا وخصوصا أن فلسطين كانت خلوا من أية حركة منظمة تستطيع أن تأخذ على عاتقها هذا الدور ، وهذا يفسر تأخير القيام بالثورة المسلحة في وجه بريطانيا بالإضافة إلى العامل الأول السابق .

إذن فقد كان تجاهل التوجه ضد بريطانيا مقصودا في الغالب ليس عن جهل بحقيقة الموقف فقد تبين للعرب جميعا غدر بريطانيا بهم .

ولكن دور القسام كان مهما هنا في أنه أول من أعلن أن العدو الرئيسي لنا هو بريطانيا إذ لولاها لما كان اليهود يستطيعون أن يقيموا مستعمرة واحدة في فلسطين وهنا تكمن أهمية حركة عز الدين القسام .. لقد حدد طبيعة الجهاد ضد المستعمرين

بوضع المسألة في إطارها الصحيح ، لقد قال لإخوانه :

١- إن بريطانيا هي عدونا الأول التي يتقدم اليهود في ظلها وهي الحامية لمشروع اليهود الصهيوني ، فتوجهنا يجب أن يكون ضد الإنجليز في البداية مع عدم نسيان لليهود .

٢- إن الجهاد هو طريقنا لتحرير بلادنا فالبيانات والاحتجاجات لا تكفي ولا تحرر أوطانا ، لابد من الجهاد بالنفس وبالمال فهو الطريق الوحيد لحمل الظالمين على الرجوع عن ظلمهم .

٣- إن أعداءنا منظمون تنظيما جيدا وتدعمهم أكبر امبراطورية في الأرض فلابد من التنظيم كوسيلة لتعبئة الطاقات الكامنة في هذا الشعب وتوجيهها ضد الاحتلال .

ولقد كان هذا التحديد وسيظل دستورا للعمل الإسلامي لتحرير فلسطين فلا من (١) معرفة العدو (٢) معرفة النفس وإعدادها (٣) الجهاد المتواصل . هذا أهم ما جاء به القسام - رحمه الله - لقد بدأ القسام في تجميع أنصاره وتربيتهم تربية خاصة بث فيهم روح الإسلام وبدأ بتنظيمهم على منهج الإسلام أيضا وجعل لتنظيمه عدة شعب .

(أ) **شعبة الدعوة والإعلام** : ووظيفتها نشر الوعي الإسلامي في نفوس الناس وتعبئتهم تعبئة إسلامية حتى يهبوا للدفاع عن بلاد الإسلام مجاهدين في سبيل الله .

(ب) **شعبة التسليح** : ووظيفتها شراء الأسلحة وتجميعها وحفظها وتخزينها والتدرب عليها .

(ج) **شعبة الاستخبارات** : ووظيفتها جمع المعلومات اللازمة عن تحركات العدو والمتعاملين معه حتى يسهل على المجاهدين اصطياد العدو في المكان والزمان المناسبين .

(د) **شعبة المجاهدين** : ووظيفتها تنظيم الشباب المسلم في حلقات وتربيتهم على مبادىء الإسلام وتدريبهم على السلاح وعليهم يقع واجب الجهاد المسلح فيما بعد .

(هـ) **شعبة الاتصال** : ووظيفتها الاتصال بباقي الهيئات الوطنية والاتصال أيضا بين المجاهدين أنفسهم .

قامت بعض المجموعات القسامية ببداية عملها في سنة ١٩٣٢ حيث ألقت قنابل على مستوطنة نهلال في الجليل وقتلت يهوديا وجرحت آخر ، ثم توقفت بعض الوقت نتيجة لاعتقال بعض أفرادها وملاحقة الشرطة للباقين ، ولكن القسام ظل يتحرك ويجمع أنصاره حتى ضيقت عليه الشرطة الخناق فخرج إلى الريف والأرجح أنه خرج لنشر فكرته في أوسع نطاق قبل البدء بالثورة . وهناك من يقول أنه أعلن الثورة ومعه هذاالنفر القليل ، ولكن المتتبع لمعظم الروايات التي قيلت حول الموضوع يجد أنه كان يؤثر عدم الاشتباك قبل أن يأخذ الاستعداد للثورة مداه وأنه حين كان يسير في أحراش جنين واجهت بعض مجموعاته شرطيا يهوديا يتعقب مجموعة من اللصوص سرقت بعض الحمضيات من مزارع اليهود فأطلقوا عليه النار وقتلوه . وهنا حين شعر القسام بما حدث حث رفاقه على الانسحاب من المنطقة بسرعة ولكن الانجليز وعيونهم ظلوا يتعقبونه ورفاقه عدة أيام حتى حاصروه في أحراش يعبد ، واشتبكوا في معركة غير متكافئة فقد كان مع عشرة من أصحابه وحاصرتهم قوة من خمسمائة جندي تعاونهم طائرتان وطلبوا منه الاستسلام ، وهنا حين جد الجد لم يكن أمام القسام صاحب العزم المسلم الذي علم أصحابه معنى الجهاد في سبيل الله وحب الجنة لم يكن ليستسلم . لقد قال فيهم قولته الشهيرة «موتوا شهداء» . ورفض الاستسلام حتى لقي الله شهيدا مع اثنين من إخوانه وفر بعض من معه وأسر الباقون .

استمر بعض أصحاب القسام ممن لم يقعوا في الأسر في الجهاد . وحين قامت الثورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦ وجدناهم في طليعتها منتمين إلى قيادتها وهذا مما يؤكد صلتهم بالحاج أمين الحسيني أو على الأقل يؤكد عدم التناقض بينهم وبينه .

لقد ظلت حركة عز الدين القسام رمزا لجهاد الشعب الفلسطيني برغم أنها قتلت في مهدها وسيظل الشيخ الوقور رمزا للفداء ، ولكن لابد للحركة الإسلامية أن تستوعب درس حركة القسام استيعابا جيدا .

لقد كان السبب الرئيسي لانتهاء هذه الثورة هو عدم وجود القاعدة العريضة لها في وساط الجماهير فقد ظلت محصورة في منطقة حيفا وبعض القرى المجاورة ولم

تشمل جميع أنحاء فلسطين . لقد كان ضروريا أن تؤسس الحركة لها قاعدة ذات جذور قوية على تراب الأرض الفلسطينية حتى تضمن لها الاستمرار ولعل الشيخ رحمة الله عليه كان يفكر في هذا حين أخذ في الخروج من حيفا ليمتد بحركته إلى أوسع نطاق ممكن ولكن استعجال المتحمسين أفسد خطته ، حتى تتعلم الحركة الإسلامية أن المتقدم عن الصف والمتأخر عنه سواء . (يراجع في هذا المجال كتاب تاريخ فلسطين الحديث من تأليف عبد الوهاب الكيالي ، ثورة عز الدين القسام محاولة لفهم حركي د. عاطف عدوان) .

الفصل الثاني

ثورة ١٩٣٦

لقد مر معنا بعض أحداث ثورة ١٩٣٦ والآن لنحاول الاستفادة من دروس تلك الثورة ، لقد قلنا فيما سبق أن ثورة ١٩٣٦ تعتبر خروجا بعض الشيء على قاعدة رد الفعل التي كانت قاعدة العمل الفلسطيني . نقول بعض الشيء لأنها امتازت ببعض التخطيط والمبادرة ولكنها لم تخرج نهائيا عن أرضية رد الفعل أو بشكل آخر لم تكن بداية جيدة لنهاية سعيدة . لقد كانت بداية ونهاية في نفس الوقت ثم انتظار طويل لبداية جديدة في عام ١٩٤٧ و١٩٤٨ ولنبدأ في دراسة إيجابيات الثورة :

١- وجود القيادة المركزية :

لأول مرة منذ بداية القضية الفلسطينية تكون على رأس العمل الفلسطيني قيادة مركزية موحدة تؤمن بالكفاح المسلح ضد العدو ، ولقد كلف وجود هذه القيادة المركزية الموحدة الحركة الفلسطينية كثيرا ، فقد اضطرت من أجل الوحدة أن تقتل في صفوفها أعداء القضية وأتباع الإنجليز حتى تحافظ على وحدة الشعب .

إن فكرة أن تكون للشعب قيادة واحدة شيء جميل إذ بهذا تنطلق كل طاقات الشعب في اتجاه واحد ، ولكن ما لم تكن هذه القيادة موحدة على أساس قوي ومتين فإنها تكون أشبه بقنبلة موقوتة تنفجر في أول أزمة ، وهنا لابد من مناقشة قضية العمل الجبهوي أو ما يسمى بـ «الوحدة من خلال التعدد» .

إن أفضل طريقة للعمل وهي التي يقرها الإسلام هي وجود القيادة الواحدة للعمل الإسلامي ، ولم يعرف التاريخ الإسلامي ولا الفكر الإسلامي مسألة تعدد الأحزاب بمعنى تعدد الولاءات ولكنه عرف تعدد الأفكار ، أما تعدد الولاءات فكان يقود الأمة إلى الدمار والتنازع والفشل وذهاب الريح «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم» (آل عمران ١٠٤) ، «وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين» (الأنفال ٤٦) .

«إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء ، إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون» (الأنعام ٥٩) .

وقد جعل الله تأليف قلوب المؤمنين على بعضهم من أكبر النعم التي أنعمها عليهم «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا» .

ويطرح بعض الإخوة الكرام بعد يأسهم من توحيد الجماعات الإسلامية اليوم تعاملا مع الأمر الواقع بأن يكون العمل الجبهوي بمنطق «شيء أفضل من لا شيء» والواقع أن هذا الأمر أثبت فشله على أرض الواقع فضلا عن منافاته للشرع (١) . فإذا كان هذا الأمر غير ممكن فما الحل إذن .

الوضع الصحيح هو أن تكون جماعة كبرى تتولى قيادة الجهاد وترتبط بنوع ارتباط مع الفصائل الأخرى بحيث تمنع التصادم فيما بينها ما استطاعت وبحيث لا تقع هذه الجماعة التي هي أساس الأمة فريسة الابتزاز والمزايدة من الجماعات الصغيرة . أما أن تحتوي قيادة العمل على مجموعة متناقضات فان مصيرها الفشل والانهيار في النهاية وإن بدا شكل الوحدة من الخارج جميلا .

والأمثلة في التاريخ كثيرة ولعل ما حصل في التاريخ الفلسطيني الحديث خير دليل حيث انشق راغب النشاشيبي في أواخر الإضراب عن اللجنة العربية العليا سنة ١٩٣٦ وكذلك مثال انشقاق أبو موسى وجماعته عن قيادة فتح بعد حرب ١٩٨٢ .

نعود بعد هذا الاستطراد إلى الموضوع الأساسي وهو أن الشعب توحد لأول مرة تحت قيادة واحدة تأتمر بأمر الحاج أمين الحسيني كرئيس للجنة العربية العليا وهذه خففت من الصراعات الحزبية في وقت الثورة - على الأقل في العلن - وحتى النشاشيبي لا يستطيع المجاهرة بعدائه للقيادة طيلة الإضراب ولكن طبيعة هذا الاتحاد الهش جعلته لا يستمر طويلا فبمجرد انتهاء الإضراب ترك راغب النشاشيبي اللجنة العربية العليا إلى غير رجعة .

---

(١) أفضل مثال على ذلك فصائل المجاهدين الأفغانه حيث لم ينفع هذا الاتحاد في منع الحرب الأهلية

٢- العمل المسلح المنظم :

لقد ظل العمل الفلسطيني في السابق يتراوح بين المظاهرات والاحتجاجات والانتفاضات التي كانت تنقلب إلى العنف أحيانا فلم يسبق إلى العنف المسلح إلا تجربة الشيخ عز الدين القسام السابقة وبعض المجموعات الصغيرة ولكن في هذه المرة أي في ثورة ١٩٣٦ كان هناك حرب عصابات حقيقية امتدت على معظم الساحة الفلسطينية وبالذات في المناطق الجبلية وقد كان لها دور في إزعاج القوات البريطانية التي قدمت بأعداد هائلة لقمع الثورة ، وكذلك فقد توجهت حرب العصابات ضد اليهود فكان العمل مزدوجا ضد الإنجليز واليهود معا لأول مرة واستمرت حرب العصابات هذه ثلاث سنوات بعد انتهاء الإضراب الكبير وهذا أهم إنجازات الثورة على الإطلاق .

٣- الانتشار على الساحة الفلسطينية :

فقد كان في كل مدينة وقرية تقريبا لجنة قومية تقوم على تنسيق الإضراب والإشراف على العمل المسلح وجلب السلاح وتوزيع المؤن والأموال على الثكلى وهذا يعتبر عملا إيجابيا كبيرا على الرغم من أن الارتباط التنظيمي بالمركز القيادي كان فضفاضا وضعيفا .

٤- التضحية والعطاء :

لقد قدم الشعب الفلسطيني تضحيات عزيزة وأثبت أنه أهل لأن يتحمل المشاق في سبيل قضيته لو وجد القيادة الناجحة التي تفجر طاقاته فلم يعرف عن شعب في الدنيا أنه أضرب طيلة ستة أشهر سوى شعب فلسطين قبل فيها الجوع والشظف وقدم قوافل الشهداء .

أما عن السلبيات التي أدت إلى خسارة الثورة فهي :

١- طريقة التجميع :

التي اتبعتها قيادة الثورة لتجميع أفرادها وهي ببساطة جمع كل من يقوم للعمل ضد الاحتلال بدون أي دور من أدوار التربية والتثقيف الروحي والعقائدي والسياسي

وبدون التركيز على روابط تنظيمية قوية وكانت الطرق المتبعة في تجميع الأنصار هي القيام بالمؤتمرات الخطابية في هذه المدينة أو تلك القرية حيث تلهب عواطف الجماهير بدون تركيز على التكوين الفردي والجماعي للأفراد . هذا الأسلوب من فوائده سرعة تجميع أكبر عدد ممكن من الأنصار ولكن من سلبياته الخطيرة أن هؤلاء الأنصار سرعان ما ينفضون عن الثورة إذا طال الطريق أو بدت في الأفق علامات انتكاس ، وعلى هذا فان الكثير من الثوار ينقلبون تحت وطأة اليأس إلى عمال في معسكرات جيش الاحتلال إن لم يتحولوا تماما إلى الصف الآخر .

ومن عيوب هذه الطريقة أيضا سهولة اختراق جسم الثورة من قبل العملاء والمرتزقة والمتسلقين . حيث لا تدقيق في نقاء الأفراد ويكون مؤهل الدخول في الثورة والترقي في مراكزها القيادية من نصيب الأعلى صوتا والأكثر مالا ونفوذا . ولعل هذا يفسر كيف أن الثورة اختفت تماما بعد سنة ١٩٣٩ ولم يعد لها وجود .

٢- البداية المفاجئة :

إن أي ثورة ناجحة عادة تبدأ بدايات بسيطة ثم تنمو مع الزمن كالطفل الوليد يشتد ساعده يوما بعد يوم ، ومن خلال التجارب والنجاحات الصغيرة والإخفاقات والمعاناة يشتد ساعد الثورة ويصلب عودها حتى تلتف حولها في النهاية كل الجماهير وبذلك تدخل الثورة في زمن الانتصار . أما حالة الثورة الفلسطينية سنة ١٩٣٦ فقد بدأت عنيفة اجتاحت كل أنحاء البلاد بدون أن تأخذ طريقها الصحيح إلى اجتياز العقبات ولعل لها بعض العذر في ذلك ، لأن الهجمة التي شكلتها قوى الاحتلال البريطانية والحركة الصهيونية الاستيطانية لم تكن تسمح لها بالنمو الطبيعي وكان عليها أن تواجه الأمر الواقع بكل ملابساته حتى ولو لم تستعد الاستعداد الكافي . ولكن الحال يختلف لو كان هناك قيادة تحمل عمقا تاريخيا وتركز على التغيير الاجتماعي والنفسي المطلوب في الأمة بالإضافة إلى مواجهتها للأحداث اليومية من أحداث الصراع .

أو بقول آخر ألا تلهينا المعاناة اليومية والمواجهة اليومية عن التغيير الاستراتيجي للصراع ولا تبعدنا عن الهدف الكبير وهو تفجير كل الطاقات الإسلامية

وحشدها في المعركة النهائية مع الاحتلال ، بل يجب أن تصب هذه المواجهة اليومية في التيار الأكبر تيار المواجهة بكل أبعاده العقائدية والثقافية والاجتماعية والروحية فتخدم بذلك الحركة وتعطيها خبرة أكبر ومجالا أوسع للانطلاق إلى المستقبل .

هذه البداية المفاجئة جعلت الثورة تخسر أفضل أبنائها إما بالاستشهاد أو بالسجن أو بالهرب خارج البلاد. في الوقت الذي لم يتشكل فيه المجتمع الفلسطيني التشكيل الصحيح الذي يستطيع أن يمد الثورة بالوقود اللازم للاستمرار .

إن الأمر الطبيعي في المجتمع المحضر للثورة أن سقوط شهيد واحد يدفع بعشرة من المجتمع إلى حمل السلاح وإكمال المسيرة ولكن ما حصل كان العكس تماما نتيجة لأن الشعب لم يكن معبأً بما فيه الكفاية ، وكانت غالبيته الساحقة من البسطاء والذين يسعون إلى لقمة العيش .

وهكذا أدى هذا الوضع إلى أن تبدأ الثورة قوية عنيفة ثم تضمحل بالتدريج .

٣- فقدان العمق الاستراتيجي للثورة :

لقد كان واضحا لدى القيادة الفلسطينية البعد الاستراتيجي للصراع وحجم الأعداء الذي تواجههم ، وكان طبيعيا أن تنظر هذه القيادة حولها لكي تشكل لها عمقا استراتيجيا لحمايتها حتى لا تقف وحدها في صراعها الطويل ، وهنا وقعت الثورة في تقديرين خاطئين :

(أ) فقد انطلقت عربية منذ البداية ولم تستغل البعد الإسلامي استغلالا جيدا وهذا يرجع إلى سببين :

الأول : أن الثورة الفلسطينية هي وليدة الثورة العربية السابقة فقد نشأت على أرضيتها وحملت نفس شعاراتها ولم يكن سهلا أن تنفصل عن هذه الأرضية ، فقد كانت القومية آنذاك هي موضة العصر وليس من السهل الوقوف في مواجهتها خصوصا وهي تحمل آمال الجماهير .

الثاني : كان مفهوم القومية العربية في ذلك الوقت مفهوما ساذجا ، عبارة عن عواطف وطنية تجمع الناس حولها ولم يكن واضحا كما هو الآن اصطدامها بالدين

الإسلامي الذي يشكل الخلفية الأصيلة الكامنة في أعماق الجماهير بل إن القوميين في ذلك الوقت كانوا فريقين فريق يعتبر القومية العربية خادمة للإسلام ولا تتعارض معه وهذا الفريق يمثله أمثال الحاج أمين الحسيني وكثير من القيادات الدائرة في فلكه ، أما الفريق الآخر فكان يتملق الشعور الإسلامي حتى يحافظ على تغلغل الفكرة القومية في الجماهير ويمثل هذا التيار الخبيث مجموعة النصارى والعلمانيين من أبناء المسلمين الذي نشأوا في أحضان الغرب وتربوا على مائدته الفكرية .

وكان نتيجة لهذا البعد القومي أن فقدت الثورة دعما إسلاميا عالميا ، كانت وما تزال في أمس الحاجة للحصول عليه ، مقابل استقطاب بعض النصارى في البلاد العربية الذين لم يقدموا شيئا حقيقيا ذا بال للثورة .

وقبل أن ننتقل من معالجة هذه النقطة يجب أن نسجل أن الحاج أمين الحسيني بخلفيته الإسلامية قد تنبه إلى العمق الإسلامي للثورة وقام بمحاولة عقد المؤتمرات الإسلامية في القدس ، المؤتمر الإسلامي الأول في القدس في نوفمبر ١٩٢٨ والمؤتمر الإسلامي الثاني في القدس في كانون الأول ١٩٣١ ،ولكنها لم تؤت ثمارها المرجوة منها نتيجة لأن الانهيار والتخلف كان مسيطرا على أرجاء العالم الإسلامي من جهة ولأن هذه الجهود لم تكن منظمة بشكل جيد من جهة أخرى فكانت أشبه بتظاهرة سياسية كالمؤتمرات الإسلامية اليوم فهي شكل بلا مضمون .

(ب) أما التقدير الخاطىء الثاني فان تعامل الثورة مع العمق العربي كان عن طريق الأنظمة العربية التي كانت إما تحت الاحتلال المباشر ، أو مرتبطة بمعاهدات مع دول الاستعمار لا تقل سوءا عن الاحتلال المباشر . ولعل هذا يشكل إلى حد كبير مأساة العمل الفلسطيني إلى اليوم .

لقد ألجأت الحاجة الثورة الفلسطينية طيلة تاريخها إلى أن تمد يدهاإلإخوانهاالعرب وكان على المساعدة العربية أن تمر كل مرة عبر هذه الحكومات العميلة وبذلك وقعت الثورة الفلسطينية تحت رحمة هذه الأنظمة العميلة التي تتاجر بالقضية . ولا تزال الثورة الفلسطينية تراوح في مكانها إلى الآن ولم تخرج من دوامة الأنظمة العربية .. وهذا يقودنا أيضا إلى مقولة العمق الاستراتيجي ... إن على الثورة أن

تمتد وتتحرك في الجماهير الإسلامية ومع الحركة الإسلامية الحقيقية في الدول الإسلامية وتربط مصيرها بمصيرها ، ويجب أن لايصرفنا ضغط الواقع واستعجال الخطوات عن الارتباط بالحركة الإسلامية - المعين الأول الذي يمد القضية الفلسطينية بما تريد - صحيح أن هذا برنامج طويل المدى ويكلف كثيرا وبالذات حين تقف لنا الأنظمة العربية بالمرصاد ولكنه الطريق الوحيد .

لقد جعل ارتباط الثورة الفلسطينية بالأنظمة العربية جعلها تحت رحمة هذه الأنظمة تضغط عليها متى تشاء وبذلك شكلت هذه الأنظمة الوجه الآخر للقوة الاستعمارية حين كانت تفشل القوة العسكرية في تحقيق مطامع المستعمرين . وهذا الأمر بات واضحا منذ ثورة سنة ١٩٢٣ وإلى الآن بحيث لا يحتاج إلى توضيح وأصبح حتى الطفل الفلسطيني يفهمه ، فقد غدت هذه الأنظمة وبشتى الحجج هي الحارس الأمين لحدود إسرائيل .

٤- الاعتماد على التحالفات مع الآخرين :

بدون أن يكون لنا قوة تسند هذا التحالف ، إنه من الطبيعي أن تجد أي حركة ناشئة نفسها مضطرة لأي تحالف مع أعداء أعدائها ، أو على الأقل مع من هو أقرب إليها بغية الحصول على توازن مع هذا العدو المركزي . وقد تحالفت على سبيل المثال الحركة الصهيونية مع الاستعمار البريطاني للوصول إلى هذه الغاية . ومن الضروري أن يكون هناك على الأقل بعض الأهداف المشتركة في هذا التحالف تضمن له البقاء والاستمرار . وكذلك لابد من إتقان لعبة التحالف فالعادة أن الأقوياء لا يحالفون الضعفاء حبا في عيونهم وإنما لمصالح خاصة بهم وهم كثيرا ما يكون لهم نصيب الأسد من إنجازات التحالف . بل كثيرا ما ينقلب القوي ليأخذ كل إنجازات هذا التحالف ، وهذا ما حصل فعلا حين تحالف العرب بقيادة الشريف حسين مع بريطانيا فاذا بالنتيجة تعود احتلالا بريطانيا للبلاد العربية جعلتها في وضع أسوأ من الوضع السابق الذي ثار عليه العرب .

لقد فكرت الثورة الفلسطينية بالتحالف مع الطليان مرة ثم مع الألمان مرة أخرى

كأعداء طبيعيين للإنجليز العدو الأكبر للعرب . وقد اتصل الحاج أمين الحسيني بأدولف هتلر ليس حبا في هتلر وإنما عداءً للإنجليز ولكن كان من الضروري تعلم درس الثورة العربية السابق . إن هتلر لو انتصر لم يكن ليقدم الاستقلال للعرب على طبق من ذهب . إذن كان لابد من بناء قوة ذاتية إسلامية تستغل هذا التحالف لفترة معينة وبأسلوب بارع للوصول إلى الهدف وهذا ما لم يحصل أبدا .

لقد وضعت الثورة الفلسطينية آمالها كلها في سلة الألمان وحين سقط الألمان لم يكن هناك شيء اسمه الحركة الفلسطينية بينما نجد أن اليهود حين تحالفوا مع بريطانيا لم يناموا يوما واحدا وهم يجمعون قواهم ويبنون حركتهم من جانب ويحافظون على حيوية هذا التحالف من جانب آخر ، وحين شعروا أن بريطانيا لا تريد مصلحتهم بالقدر الذي تريد مصلحتها بدأوا في البحث عن حليف آخر وبشروط أفضل من هذا الحليف ووجدوه في الولايات المتحدة الأمريكية الاستعمارية الناشئة التي يسيطر اليهود على مقدراتها .

إن الأساس في العمل الحركي الصحيح هو الاعتماد على الذات الأمر الذي لم يفعله العرب ، ويكون التحالف ثانويا .

لم يجن العرب من تحالفهم مع هتلر إلا بغض العالم الذي كره النازية وما جرته من ويلات على العالم ، وهذا الأمر لم يختره العرب اختيارا فهم لم يتحالفوا مع هتلر حبا في النازية ولكن بغضا للإنجليز ولكن المشكلة تكمن في عدم إدارة لعبة التحالف إدارة جيدة ، ولعل لهم بعض العذر في ذلك فالأمر الواقع كان يدفعهم دفعا للتحالف مع هتلر ولكن تبقى النتائج أن هذا التحالف ساعد في خسران قضيتهم وأعطى شيئا من الدعم لقضية اليهود .

٥- المزايدات :

نتيجة لأن التيار القوي في الحركة الوطنية الفلسطينية وهو تيار الحاج أمين الحسيني لم يكن قد تبلور بشكل تنظيم قوي لوجود معارضة شديدة من حزب الدفاع لخطوات الحاج أمين ، هذه المعارضة التي لم يكن لها من هدف إلا حب الزعامة

والوصول إلى الحكم ، ولو عن طريق الإنجليز ، هذه التركيبة للمجتمع الفلسطيني في ذلك الوقت ووجود الإنجليز الذين يلعبون على حبال الصراعات الحزبية والعائلية جعلت القضية الفلسطينية منذ بدايتها ولا تزال إلى اليوم أسيرة لسياسة المزايدات ، هذه السياسة تجعل الفريق المتواطىء مع الإنجليز يتخذ مواقف أكثر تشددا وتطرفا من الفريق الوطني حتى يحبط كل مخططاته السياسية ، وبذلك تفقد القيادة السياسية الفلسطينية كل قدرة على الحركة والمناورة ، ولنضرب مثالا على ذلك :

لقد كان حزب الدفاع معروفا في الأوساط الفلسطينية بأنه حزب الإنجليز إذ كانت تسيطر عليه مجموعة من الوجهاء والأغنياء ورؤساء العشائر المرتبطة مصالحهم مع الاستعمار ، وقد ظل أنصار هذا الحزب يتهمون المفتي بالتطرف وقصر النظر ويطالبون بالتفاهم مع بريطانيا من منطلق الوعي والحرص وفهم الواقع ، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وقد كانوا يتهالكون على كل عرض يقدمه الاحتلال البريطاني ويوافقون عليه وكان أكثر من عرف عنه هذه الصفات فخري النشاشيبي ابن أخ راغب النشاشيبي مؤسس الحزب وقد كان فخري من أبرز النشيطين فيه . ولقد كان من برنامج الإضراب الذي وضعته القيادة الفلسطينية أن تظل الموانىء مفتوحة حتى تأتي الشعب بالمواد الأساسية وبالذات القمح والدقيق فقام فخري النشاشيبي وأعلن أن الإضراب سيشمل البر والبحر والجو في الوقت الذي لم تكن لفلسطين فيه طائرة واحدة ، وفعلا بدأ يتصل بعمال البحر في مدينة يافا ويدفع لرؤسائهم أموالا حتى يحملهم على الإضراب ونجح في ذلك ، فماذا كانت النتيجة . كانت النتيجة أن تقدم اليهود بطلب إلى سلطات الانتداب يطلبون فيه إقامة ميناء خاص لهم في تل أبيب حتى يستقدموا بضائعهم من الخارج ، وكان لهم ما أرادوا وصاروا يدخلون البضائع التي يريدون بعيدا عن أعين المسلمين ورقابتهم ، وأدخلوا عبر هذه الطريق معظم الأسلحة في تكتم شديد وخزنوها لوقت الحاجة .

هذه المزايدات التي تعني التخريب بأسلوب وطني ظلت ملاصقة للأحزاب الفلسطينية ولا تزال،ففي إحدى المرات قام أحد الشيوعيين وطالب في إضراب مهني كان يطالب بمطالب خاصة محدودة لمهنة محددة ضد الاحتلال ، قام هذا الشيوعي

يطالب المسؤولين عن الإضراب أن يضيفوا في طلباتهم إقامة دولة فلسطينية في الضفة والقطاع ، إنه يعلم بالطبع أن هذا الإضراب لن يستطيع حتى تحقيق المطالب المهنية البسيطة التي قدمها ، ولكن كيف سيبعد الجماهير عن المشاركة في الإضراب ، لو قال لهم إن هذا الإضراب غير ذي جدوى ولا فائدة فيه ولا داعي له لبصقت في وجهه الجماهير واعتبرته خائنا أما الآن فانه يطالب بمطلب وطني .. إنه يطالب بدولة فلسطينية ، بالطبع هذا المطلب سيجعل الناس تفكر بسخافة هذا الإضراب فالطريق إلى الدولة الفلسطينية يحتاج إلى غير هذا السبيل ، إنه نفس الدور ، التخريب بأسلوب وطني .

إن الحل الصحيح لمواجهة مثل هذه المزايدات والمهاترات هو إيجاد التنظيم القوي الذي يعبر عن آمال الجماهير وهويتها ويرتبط بها وترتبط به ارتباطا لا ينفصم ، حينها تواجه قيادة هذا التنظيم أشكال المزايدات هذه بالفضح والتعرية ، ولا خوف حينها من انفضاض الجماهير عن التنظيم .

إن هذه المزايدات لا تروج إلا عند الجماهير الجاهلة التي لا تعرف هدفها ولا ترتبط ارتباطا واعيا بقيادتها ، وهذا يقودنا ثانية إلى ضرورة التربية الجيدة العميقة التي تجعل الإنسان مرتبطا بقيادته في السراء والضراء .. في الانتصار والهزيمة ، لا يوهنه إرجاف المرجفين ولا تستخفه مزايدات المزايدين ، وكذلك يجب أن يكون مع هذه التربية الجيدة توضيح كامل للطريق وصعوبته ومشقاته حتى ينطلق فيه المؤمن بكل جد ومثابرة ولا يلتفت إلى السراب هنا وهناك . وما أجمل مقولة الشهيد حسن البنا حين وصف طريقة تكوين الأفراد الذين تقوم عليهم الأمم حين قال : «إن تكوين الأمم وتربية الشعوب وتحقيق الآمال ومناصرة المبادىء تحتاج من الأمة التي تحاول هذا ، أو من الفئة التي تدعو إليه على الأقل قوة نفسية عظيمة تتمثل في عدة أمور : إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف ، ووفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر ، وتضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل ، ومعرفة بالمبدأ وإيمان به وتقدير له يعصم من الخطأ فيه والانحراف عنه والمساومة عليه والخديعة بغيره ، على هذه الأركان الأولية وعلى هذه القوة الروحية تبنى المبادىء وتتربى الأمم الناهضة وتتكون الشعوب

الفتية وتتجدد الحياة فيمن حرموا الحياة زمنا طويلا ، وكل شعب فقد هذه الصفات الأربعة أو على الأقل فقدها قواده ودعاة الإصلاح فيه فهو شعب عابث مسكين لا يصل إلى خير ولا يحقق أملا وحسبه أن يعيش في جو من الأحلام والظنون والأوهام (إن الظن لا يغني من الحق شيئا)» (١) .

٦- التعامل مع ظاهرة التجسس والعمالة للعدو :

إن من أشد الظواهر التي مرت بها الثورة الفلسطينية مرارة هي ظاهرة الخيانة .. إن الخيانة في الشعوب المغلوبة ظاهرة طبيعية ولا يخلو شعب في العالم من أصحاب النفوس الضعيفة الذين يتعاملون مع الأعداء لقاء بعض المنافع الدنيوية سواء منفعة مادية أو شهوانية أو وجاهية .

وعَبْر كل أدوار التاريخ كنا نجد لهذه الظاهرة أمثلة كثيرة ولم يكن الشعب الفلسطيني بدعا بين الشعوب فقد عاش هذه الظاهرة ووجدت بين صفوفه هذ الفئة الخائنة التي كانت تتعامل مع العدو بسبب من الأسباب الآتية :

(أ) المنفعة المادية : فقد دفعت الإغراءات المادية التي يقدمها الإنجليز واليهود لبعض أصحاب النفوس الضعيفة أن يبيعوا ذممهم ويتعاملوا مع أعداء أمتهم وكانت هذه المنافع إما تدفع نقدا أو باعطاء وظائف خاصة في إدارة الانتداب أو بعض الامتيازات التجارية أو نتيجة الأرباح التي يتلقاها السماسرة من المتاجرة بالأراضي وبيعها لليهود وبأسعار مرتفعة .

(ب) كثيرا ما كانت إدارة الاحتلال تستغل الانحطاط الأخلاقي لدى بعض الناس وكذلك اليهود الذين اشتهر عنهم هذا الأسلوب عبر التاريخ فكانت العاهرات والمواخير وسيلة جيدة وسهلة لتصيد الساقطين للوقوع في شباك المتصيدين من أجهزة المخابرات .

(ج) طلب الوجاهة والزعامة : وكم شاهدنا من الزعماء ورؤساء العشائر الذين ينقصهم

---

(١) رسالة إلى أي شيء تدعو الناس من رسائل الشهيد حسن البنا .

الإخلاص ومؤهلات الزعامة الحقيقية يسعون إلى أن يصلوا إلى الزعامة والوظائف الكبيرة ، لا عن طريقها الصحيح من التفاني والإخلاص والبذل للأمة وهذا طريق شاق . ولكنهم اختاروا الطريق السهل وهو أن يكونوا قريبين من أولى الأمر ، يقدمون لهم الخدمات ويسيرون في ركابهم ويؤدون كل ما يطلب منهم من مظاهر الولاء للمحتل .

(د) الخوف والهلع والضعف الذاتي فكثيرا ما استغلت المخابرات المعادية ذوي النفوس الضعيفة والقلوب المرتجفة الذين يظنون أن المحتل بيده مقاليد الحياة تستغلهم المخابرات وتسقطهم ويقدمون لها الخدمات مقابل الحفاظ على حياتهم أو ممتلكاتهم .

وكان التعامل مع العدو يأخذ أشكالا متعددة فتارة يكون بتقديم المعلومات للعدو عن تحركات المجاهدين وعن الرجال الذين يملكون السلاح ، وتارة يكون بتجارة الأراضي وبيعها لليهود ، فلم يكن سهلا أن يشتري اليهود الأرض من الفلاح الفلسطيني الذي كان يعتبر بيع الأرض لليهود خيانة عظمى تخرجه من الإسلام وتسلكه في سلك المرتدين بناء على فتوى العلماء في المجلس الإسلامي الأعلى . ولذلك كان يقوم هؤلاء السماسرة بشراء الأرض من أصحابها العرب ويسجلونها على أسمائهم لبعض الوقت حتى يتناسى الناس الأمر ثم يتم تسليم الأرض لليهود في الوقت المناسب .

وتارة أخرى كان التعامل مع العدو يأخذ شكل البلبلة السياسية التي يقوم بها هؤلاء المتزعمون وتخريب كل محاولة للمقاومة يقوم بها المخلصون والترويج لكل الحلول السياسية الهزيلة التي تعرضها إدارة الاحتلال أو باثارة الصراعات الجانبية التي تلهي المجاهدين عن التصدي للأعداء الحقيقيين .

** كان على الثورة الفلسطينية أن تعالج هذه الظاهرة الخطيرة بوعي وروية ، ولكن لطبيعة ظروف الثورة وأسلوب التجميع العفوي لعناصرها ، وعدم وجود العلاقة القوية التي تربط الفروع بالقيادة المركزية جعل الكثير من مجموعات المجاهدين تتصرف كما تشاء دون الرجوع إلى القيادة ، فتقتل كل من تشتبه به بالتعامل مع العدو وفي

أغلب الأحيان يكون هذا التصرف صحيحا . ولكن في أحيان أخرى يكون بدون أدلة قوية وحتى لو كان العمل صحيحا والإدانة ثابتة فقد كانت تركيبة المجتمع الفلسطيني العشائرية تجعل الناس يثورون لقريبهم الذي قتل لجهلهم أنه عميل وحمية لشرف عائلتهم وخصوصا حين يكون القتلة من عائلات منافسة فكانت تثور الأحقاد وتدخل العائلات في دوامات لا تنتهي من مشاكل الثأر والثأر المضاد ، وهذه الظاهرة أدت إلى زعزعة ثقة المواطنين بالثورة ، وأدخلت الثورة في مشاكل جانبية كان عليها ألا تقع فيها ، وكان لابد من معالجة دقيقة لموضوع الخيانة ولم تكن المسألة بسيطة .

إن أكثر القتلى الذين وقعوا في فترة الثورة كانوا من هذا الصنف (العملاء) الذين قتلوا على يد المجاهدين بتهمة التجسس ، ولا تزال المشكلة تشكل إلى الآن هما مستمرا للثورة الفلسطينية ولعل في هذه القصة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يوضح لنا الطريق لتناول هذه المشكلة :

يقول ابن هشام : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك الماء - ماء المريسيع - وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب غلام له من بني غفار يقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين ، فغضب عبد الله بن أبي ابن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث فقال : أوقد فعلوها قد نافرونا وكاثرونا في دارنا والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتوهم أموالكم والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه ، فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مر به عباد بن بشر فليقتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ! لا

ولكن أذن بالرحيل وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها ، فارتحل الناس .

وقد مشى عبد الله بن أبي ابن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع عنه ، فحلف بالله ما قلت ما قال ، ولا تكلمت به ، وكان في قومه شريفا عظيما ، فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل ! حدبا على ابن أبي سلول ودفعا عنه .

قال ابن إسحق : فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال : يا نبي الله ، والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال : وأي صاحب يا رسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبي ، قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال : فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ! ثم قال : يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكه .

ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما ، وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي .

ثم راح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فويق النقيع يقال له بقعاء ، فلما راح رسول الله صلى الله عليه وسلم هبت على الناس ريح آذتهم وتخوفوها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تخافوها فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار ، فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن الثابوت أحد بني قينقاع وكان عظيما من عظماء يهود وكهفا للمنافقين مات في ذلك اليوم .

ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أبي ومن كان على مثل أمره فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد بن أرقم ثم قال هذا الذي وفى الله بأذنه ، وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي الذي كان من أمر أبيه فقال يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه فان كنت لابد فاعلا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتله فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا .

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري» (١) .

إن هناك تشابها كبيرا بين هذه القصة من قصص النفاق وقصص الخيانة التي نواجهها اليوم وخصوصا حين نعلم أن عبد الله بن أبي كان حليفا لليهود ويتآمر معهم في الكيد للإسلام والمسلمين وفي القصة فوائد عظيمة نقتصر منها على ما يمس موضوعنا :

١- إن خير وسيلة لعلاج ظاهرة الخيانة والتجسس هي الوقاية فبمقدار ما يكون الوعي الإسلامي منتشرا في المجتمع وولاء الناس للإسلام قويا يقل عدد الجواسيس والعملاء. ففي هذا المجتمع النقي مجتمع الصحابة كان النفاق ظاهرة صغيرة منزوية على هامش الحياة في المدينة ولذلك فان نشر الوعي الإسلامي لينال جميع فئات الشعب ودعوة الناس إلى الإسلام وتعريفهم بخطورة هذه الجريمة وأنها تساوي الردة عن الإسلام يعتبر حجر الزاوية في مكافحة هذه الآفة .

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٢٣٨ - ٢٤١ .

٢- الوعي الأمني الصحيح لدى المسلمين فكل إنسان مسلم وبدون تكليف مباشر هو عين للمسلمين عليه أن يبلغ القيادة الإسلامية عن أي ظاهرة مشبوهة أو رجل مشبوه ، أو كلمة مشبوهة يقع عليها سمعه وبصره ، وهذا ما فعله الصحابي الجليل زيد بن أرقم وقد كان غلاما حدثا في ذلك الوقت ، هذا الوعي الشامل يجعل الشعب كله مخبرين عن حالات الشذوذ يحاصرونها ويرصدونها ويأخذون حذرهم منها .

٣- الصدق عند نقل الكلام والأخبار وهذا ما فعله زيد بن أرقم رضي الله عنه لدرجة أن القرآن نزل بتصديقه واستحق مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم له في قولته «هذا الذي وفى لله بأذنه» .

٤- التثبت من القيادة عند سماع الأخبار التي تصل إليها فقد يكون هناك وهم أو تحريف في نقل الخبر وقد يكون ناقل الخبر مغرضا ، وكثيرا ما قتل أناس أبرياء بناء على تقرير من مجرمين لا يخشون الله ، فلابد من التثبت بكل الوسائل الممكنة ، والتحقيق النزيه في كل حادثة وهذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم فقد سمع من عبد الله بن أبي نفسه وأتاح له فرصة الكلام وصبر حتى جاءه من الله الوحي بتصديق زيد ونستعيض نحن عن الوحي بوسائلنا الاستخبارية الممكنة .

٥- نشر روح الولاء للإسلام والمسلمين وتقديمها على الولاء العائلي في المجتمع الإسلامي بحيث يغضب الإنسان لله وحرماته أكثر من غضبه لنفسه وعائلته وهذا يتطلب جهدا خارقا من الحركة الإسلامية ، وقد كان واضحا في موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول حين أتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عليه أن يأتيه برأس أبيه ، وواضح أيضا في أقارب عبد الله بن أبي حين أخذوا على يد قريبهم وزعيمهم بعد أن علموا من أمره ما علموا .

٦- كشف العميل وتعريته تماما أمام المجتمع بحيث لا يبقى لديه عذر ولا يبقى لأحد حجة بالادعاء بأنه ظلم وتوضيح لجرائمه التي قام بها حتى نفقده العطف من أي أحد عليه وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث جاء بأقارب عبد الله وعرض عليهم أفعاله .

٧- ينال المجرم عقابه الرادع بعد توضيح كل هذه الملابسات ويحسن أن يقوم

بالعقاب أقارب العميل كما اقترح عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يأتي عباد بن بشر - وهو قريب لعبد الله بن أبي - برأسه وفي هذا فائدة عظيمة وهي إخبار أن المسلم لا تأخذه في الله لومة لائم ومن ناحية أخرى تطمئن أقارب العميل أن الذي نفذ العقاب كان متأكدا من استحقاقه له ، فلأنه قريبه يكون حريصا على تبرئته ، ولم يعاقبه إلا بعد علمه يقينا بأنه يستحق ذلك .

٨- فائدة مهمة نستفيدها من هذه القضية وهي أن طلب الرئاسة وحب الجاه من الدوافع الرئيسية للنفاق والعمالة ووقوف الإنسان بجانب أعداء أمته وهذا ما دفع عبد الله بن أبي لذلك فقد كان ينتظر أن يتوج ملكا وكان يشعر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد سلب هذا الملك منه .

٩- يجب أن يكون جهاز المخابرات والتحقيق على درجة عالية من الكفاءة والتقوى وتشرف عليه القيادة إشرافا مباشرا فقد رأينا كيف تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه أمر هذا المنافق .

١٠- يجب أخذ كل الاعتبارات السياسية والحركية عند إنزال العقاب بأي عميل لا نحل مشكلة صغيرة لنقع في مشكلة أكبر ، فالحكمة واجبة وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أمره أكبر بركة من أمر عمر بن الخطاب مع أن اقتراح عمر كان سليما وهذا لا يعني التنازل عن حق الحركة والمجتمع ولا يعني التسامح مع ظاهرة التعامل مع العدو بأي حال من الأحوال ولكن يجب اختيار الطريقة المناسبة والزمن المناسب والمناخ السياسي المناسب .

الفصل الثالث

النكبة الأولى مايو (آيار) سنة ١٩٤٨م

الحديث عن نكبة ١٩٤٨ موجع للقلب فقد كانت النكبة تتويجا لكل الجهود الصهيونية التي بذلت خلال نصف قرن بعد المؤتمر الصهيوني الأول وجاءت لتكشف عورة الأوضاع التي يعيشها المسلمون وحكوماتهم ، لقد كانت فشلا سياسيا بالنسبة للمسلمين بمقدار ما كانت نجاحا سياسيا لليهود وكانت فشلا عسكريا للأنظمة العربية التي لم تترك شعب فلسطين يواجه اليهود بل نحّته جانبا وجاءت لتدخل الحرب كي تسلم فلسطين لليهود في النهاية .

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية نشط اليهود في الساحة الدولية لكسب التأييد من الولايات المتحدة لإقامة الدولة اليهودية بعد انتهاء الحرب ، وحصلوا فعلا على هذا الدعم من الرئيس الأمريكي هاري ترومان الذي طالب بريطانيا أن تفتح أبواب فلسطين لمائة ألف مهاجر يهودي جديد فورا ، وفتح باب الهجرة الطبيعي وإلغاء سياسة الكتاب الأبيض وحاولت بريطانيا أن تستر وجهها القبيح أمام العرب فحاولت تسليم القضية للأمم المتحدة بحجة أنها لا تستطيع نقض عهدها للعرب وفي نفس الوقت لا تستطيع الوقوف في وجه اليهود والولايات المتحدة . ففي خطاب ألقاه المستر بيفن - وزير خارجية بريطانيا - في مجلس العموم أعلن عزم الحكومة على رفع القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة ومما قاله المستر بيفن بهذا الصدد :

«إن هذه القضية معقدة كل التعقيد ، وأنه لم يصادف في حياته قضية معقدة مثلها ، وإن نظام الانتداب تضمن وعودا متناقضة حيث سمح بغزو اليهود لفلسطين غزوا بينما حتم عدم الإضرار بسكانها الآخرين وإن البرلمان وافق على الكتاب الأبيض الذي منع الهجرة فكان ذلك سببا في تشدد العرب وإصرارهم ، وأن حشر أمريكا نفسها في القضية وتصريحات ترومان المتكررة مما زاد في تعقيد القضية وإن الأمر لو كان يقف عند إدخال المائة ألف يهودي لأمكن تسويته ولكن اليهود يتكلمون عن الملايين وإنه ليس من الحق التسوية بين مصالح العرب أصحاب البلاد وبين اليهود الطارئين

غير أن بريطانيا لا تستطيع أن تفرض حلا نهائيا بالقوة لأنها منتدبة انتدابا ولذلك أصبح من واجبها دفع الأمر إلى هيئة الأمم المتحدة لتقرر وتفرض الحل الذي تراه ، وإن بريطانيا إذا لم ترفع القضية فان العرب مصممون على رفعها» (١) .

وهكذا جاءت لجنة الأمم المتحدة إلى فلسطين وخرجت بتوصيات التقسيم وقدمتها للأمم المتحدة وظل الموضوع بين أخذ ورد في الأمم المتحدة .

رفض المشروع في الوقت الذي بدأت فيه الصهيونية والولايات المتحدة تضغطان على الدول التي كانت متحفظة على القرار بكل الوسائل الاقتصادية والسياسية مرة بالتهديد ومرة بالإغراء، حتى صوتت الهيئة العامة للأمم المتحدة بأغلبية ٢٥ صوتا ضد ١٣ صوتا مع امتناع ١٧ عضوا عن التصويت في ٢٩ / نوفمبر ١٩٤٧ ، وفي هذه الحال *قامت في فلسطين انتفاضة عارمة عمت كل أنحاء فلسطين ، أيقن المسلمون أن* القوة وحدها هي الكفيلة بالمحافظة على حقوقهم ، ولكن هذه الانتفاضة كانت مرتجلة إلى حد بعيد فالثورة كانت قد انهارت سنة ١٩٣٩ ولم يبق لها من إعداد أو تشكيل حيث كانت القيادة الفلسطينية خارج البلاد وتراهن على انتصار هتلر وحاولت إنشاء جيش فلسطيني في المنفى ولكنها لم تتواجد بشكل جيد في الداخل .

وهكذا كانت الثورة في فلسطين تعتمد إلى حد كبير على الجهود المحلية الذاتية فكان الرجل الفلسطيني يبيع كل ما يملك حتى مصاغ زوجته للحصول على السلاح وكانت كل قرية تنظم نفسها تنظيما ذاتيا وترسل أحد أبنائها لشراء بعض السلاح من صحراء مصر الغربية وليبيا من مخلفات الحرب العالمية الثانية وهكذا كان كثير من أبناء البلاد يحملون السلاح دون أي تدريب مسبق ولم تربطهم خطة جامعة ولكنهم انقضوا على المستعمرات اليهودية بكل حماس المؤمن المدافع عن أرضه وحقه وشرفه فكانوا يتصدون بكل بسالة بما يجدونه في أيديهم لقوات اليهود التي دربت تدريبا جيدا سواء في مستعمرات اليهود أو في صفوف الجيش البريطاني حيث جند فيلق يهودي بحجة القتال مع بريطانيا ضد النازية ولكن الهدف الحقيقي كان إعداد هذا الجيش للقتال ضد المسلمين في فلسطين .

---

(١) المسألة الفلسطينية - مهدي عبد الهادي ، ص ٧٧ .

في نفس الوقت قامت الدول العربية بعدة اجتماعات في المصيف السوري - بلودان - وفي - عالية - بلبنان لبحث الموقف في فلسطين وكانت تتخذ القرارات التي لا تجد طريقها إلى التنفيذ ، ومن مهازل هذه المؤتمرات أن مسؤول المخابرات البريطانية في الشرق الأوسط البريجادير - جنرال كلايتون ، كان ينزل في نفس الفندق الذي ينزل فيه المندوبون العرب وكثيرا ما كانوا يتسابقون لكسب الحظوة لديه وإظهار الولاء لبريطانيا بعرض ما اعتبروه سريا من مخططاتهم بل هناك أقوال أنه كان يحضر اجتماعات الجامعة العربية ويشترك في وضع الخطط العسكرية التي طبقت بدون تحريف في غزو فلسطين .

وكان من ضمن نشاطات الجامعة العربية في ذلك الوقت إعداد جيش الإنقاذ بقيادة فوزي القاوقجي وافتتاح معسكر قطنا في سوريا لتدريب الفلسطينيين والمتطوعين العرب للقتال في فلسطين وبمجرد أن بدأت التدريبات في هذا المعسكر احتجت بريطانيا لدى الجامعة العربية واعتبرت قيام مثل هذا المعسكر عملا عدوانيا ضد بريطانيا العظمى ، طالما كانت موجودة في فلسطين ، وهنا انكمشت الجامعة العربية التي أنشأتها بريطانيا وأعلنت إغلاق المعسكر ثم دخلت بعض قوات المتطوعين إلى فلسطين إلى أن جاء يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ حيث كان الدخول المرتقب للجيوش العربية إلى فلسطين ، وهنا اكتملت المهزلة ورأينا كيف تنتصر عصابات اليهود على سبعة جيوش عربية لتتم المأساة .

ولكي نقيم أحداث هذه المعركة لابد من دراسة كل جانب على حدة :

أولا : على الصعيد الفلسطيني والعربي :

كما أسلفنا كان الوجود التنظيمي للثورة الفلسطينية قد انتهى تقريبا مع بداية الحرب العالمية الثانية لضعف البنية التنظيمية والفكرية للثورة من جهة ونتيجة للقمع الشديد من قبل الإنجليز من جهة أخرى ، وما إن صدر قرار التقسيم حتى قام الشعب الفلسطيني عن بكرة أبيه بدافعه الفطري ليدافع عن أرضه التي أحس إحساسا قاسيا هذه المرة بأنه سيطرد منها ، وقامت بقايا الجهاد المقدس التي أسست في نهاية الثلاثينيات بالتحرك محاولة تنظيم نفسها على وجه السرعة ، وإعداد الرجال بما تيسر

ومحاولة التسلح ببقايا السلاح الموجود من سنوات الجهاد السابقة والذي لم يكن في غالب الأمر بحالة جيدة نتيجة لظروف التخزين السيئة التي كان يضطر لها المسلمون نتيجة القمع البريطاني الذي كان يحكم بالإعدام على من يكون في حوزته قطعة سلاح خلال حملات التفتيش التي كان يقوم بها الجيش البريطاني بحثا عن السلاح . وعند البحث عن السلاح اضطر الفلسطينيون لدفع مبالغ باهظة ثمنا له حتى أن الرجال كانوا يبيعون مصاغ نسائهم من أجل الحصول على السلاح وكذلك الذخيرة التي كانت بأسعار خيالية . وقامت في كل القرى تقريبا لجان محلية لتنظيم عملية جلب السلاح التي كانوا يذهبون فيها إلى الدول العربية المجاورة وبالذات مخلفات حرب العلمين ، وجمع القرويون أنفسهم في مجموعات ممتلئة بالحماس الفطري وبما بقي في قلوبهم من الإيمان عبر القرون .وينقصهم التسليح الجيد وفي حالة سيئة من التدريب والتنظيم . يدافعون عن قراهم في وجه المستعمرات اليهودية المنتشرة في جميع أنحاء فلسطين المسلحة بعتاد يفوق عتادهم كما ونوعا عشرات الأضعاف . بالإضافة إلى التدريب الجيد لليهود في الجيش البريطاني وفي المنظمات اليهودية كالهاجاناه والأرجون ، وقامت معارك كبيرة في كل قرية عربية تقريبا أبدى فيها الأهالي من ضروب البسالة الشيء الكثير ولكن ذلك لم يكن كافيا في مواجهة التفوق اليهودي (لمعرفة الكثير عن هذه المعارك يحسن مراجعة كتاب معارك ١٩٤٨ في فلسطين للدكتور أحمد العلمي) . أما على مستوى التنظيمات العربية فقد كان الوضع محزنا ، يقول الأستاذ كامل الشريف في كتابه «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين» :

«تشكلت في مطلع هذه الحرب عدة منظمات عسكرية أخذت تمارس التدريب على قدر ما تسمح به حكومة الانتداب فتشكلت منظمة النجادة وتشكلت بعدها منظمة الفتوة التي كان يشرف عليها الحزب العربي الفلسطيني وكانت جوالة الإخوان المسلمين مشكلة قبل ذلك بوقت قصير . ولقد انخرط في صفوف هذه المنظمات ألوف من الشبان غير أن القيود التي فرضها الإنجليز على التسلح والتدرب وقفت حائلا دون إعدادها وتجهيزها فبقيت مفككة لا يجمعها نظام ولا تربطها قيادة حتى بدأت المعركة وهذه الفرق لا تزال تدرب أعضاءها على السير في طابور منتظم !! .

ولم يكن في استطاعة الشعب الفلسطيني أن يقوم بأي عمل جدي نحو إعداد نفسه فان القيود التي فرضتها حكومة الانتداب كانت لا تزال تمنع الناس من إحراز الأسلحة فضلا عن الظهور بها والتدريب على استعمالها ، فانه من الظلم المبين أن يلام الشعب الفلسطيني على هذا التقصير المشين ولكن اللوم كله يتركز على زعماء الجامعة العربية الذين شغلوا أنفسهم بمعالجة القضية عن طريق المحادثات والمفاوضات والاعتماد على الوعود البريطانية الكاذبة دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة العمل الجدي فيقيمون لهم المعسكرات في الدول العربية التي تتمتع بشيء من الاستقلال ويتولون تدريبهم على أيدي الضباط الأكفاء ليكونوا على استعداد للدفاع عن كيانهم إذا جد الجد وطويت أوراق المحادثات وأصبح الحكم للقوة المسلحة» (١) .

وهكذا دخل الشعب الفلسطيني المعركة بهذاالشكل المهلهل وكان في تصوره أن يتشبث بما لديه من أرض حتى تدخل الجيوش العربية الموعودة .

وكان أقصى درجات التنظيم بين القرى ذلك الأسلوب القديم الذي تجمع به النجدات من القرى المجاورة على طريقة الفزعات أو كما كان شائعا «على النجدة يا رجال» فيتجمع الرجال من كل حدب وصوب من القرى المجاورة ببنادقهم القديمة وسيوفهم ورماحهم حتى العصي والنبابيت .

وزادالطين بلة جيش الإنقاذ الذي جهزته الجا العربية لدعم الشعب الفلسطيني وأنفقت عليه أموالا طائلة ودخل هذا الجيش إلى فلسطين ليساعد الشعب الفلسطيني لكنه دخل بقيادته العجيبة التي جاءت لتصطنع المشاكل مع الشعب الفلسطيني على من هو المسؤول ومن هو القائد ، وكم كان يأتي قائد الكتيبة من جيش الإنقاذ إلى المدينة أو القرية فيطلب من الفلسطينيين تسليم أسلحتهم والانضمام إلى قيادته ، وحين كانوا يرفضون ينسحب بقواته تاركا وراءه من الحسرة أضعاف الأمل الذي كان يتأمله أصحاب البلاد (٢) .

---

(١) الإخوان المسلمون في حرب فلسطين / كامل الشريف ، ص ٢٥ .

(٢) راجع جهاد شعب فلسطين في نصف قرن / صالح بويصير .

هل كان جيش الإنقاذ حلقة في سلسلة الحرب التي شنت على الشعب الفلسطيني ؟ إنه سؤال يحتاج إلى جواب ويجب أن يفسر كل تلك الهوة من العداء بين قائد جيش الإنقاذ فوزي القاوقجي وقائد الجهاد المقدس عبد القادر الحسيني ، وهل ذهب هذا السر مع الشهيد عبد القادر أم أن هناك من يعرف سببا لكنه غير منشور ؟! .

دخلت قوات المتطوعين من المصريين على مرحلتين : مرحلة فيها خليط من المتطوعين من الضباط المصريين والإخوان المسلمين وغيرهم التابع للجامعة العربية . وقد كان الإخوان المسلمون هم البنية الأساسية لهذا الخليط . والمرحلة الثانية دخول قوات الإخوان المسلمين المستقلة . وقامت هذه القوات بكثير من الأعمال الفدائية وسنتحدث عنها فيما بعد . وكانت المعارك غير متكافئة ، تدور في معظم أنحاء فلسطين مدنا وقرى وكافة الجيوش العربية تنتظر خروج القوات الإنجليزية من فلسطين حتى تدخلها وتحررها من اليهود وتلقي بهم في البحر كما كان يدعي قادتها في شهر أبريل سنة ١٩٤٨ ، وقام اليهود بمذبحة دير ياسين بعد استشهاد القائد عبد القادر الحسيني ، وقامت الإذاعات العربية بتهويل شأن هذه المذبحة التي قامت بها قوات الأرجون بقيادة مناحيم بيجن ، وكانت النتيجة هي العكس تماما ، فان الدول الاستعمارية المقصودة بالإعلام لا تهتز بالمذابح وهي التي تدبرها ، بل أدت هذه الدعاية عن قتل النساء والأطفال وبقر بطون الحوامل إلى فرار الكثير من الشعب الفلسطيني من قراهم ومدنهم والحقيقة أن اليهود ما استطاعوا دخول البلدة إلا بعد مقاومة عنيفة من سكانها الأبطال وعند دخولهم ارتكبوا مجزرتهم الرهيبة التي كان من الواجب أن تشحذ همم المدافعين عن القرى الأخرى بدلا من بلبلة الإعلام المهزوم .

لقد كان الإنجليز قد حددوا يوم ١٤ مايو ١٩٤٨م كموعد للانسحاب من فلسطين ولكنهم بدأوا ينسحبون بالتدريج قبل ذلك الموعد من المناطق التي يضمنون لليهود فيها سيطرة تامة ، حيث بدأ اليهود بجلب السلاح من كل أنحاء العالم ، والفلسطينيون في المناطق الأخرى تحت سيطرة الإنجليز الذي يمنعونهم من التحرك والحصول على أي سلاح وما إن جاء اليوم الرابع عشر من مايو (آيار) ١٩٤٨ حتى كانت معظم المناطق المأهولة في فلسطين بأيدي اليهود كمدينة يافا وحيفا وعكا ومعظم

السهل الساحلي وكانت سفن اليهود حرة الحركة تأتي بالمهاجرين والسلاح من كل مكان وكثيرا ما كان الإنجليز يشتركون إلى جانب اليهود في قتالهم ضد المسلمين . وقد قرأت مقالا في جريدة الجيروزالم بوست سنة ١٩٨٧ لضابط إنجليزي متقاعد يتحدث فيه عن ذكرياته في فلسطين وكيف أنه أنقذ حياة الكثير من اليهود وحارب إلى جانبهم .

بعد خروج الإنجليز من فلسطين دخلت الجيوش العربية إلى فلسطين لتكمل المهزلة ، لقد دخلت الجيوش العربية استجابة من حكام الدول العربية للضغوط الجماهيرية التي قامت بها الشعوب العربية وطالبت حكامها بالعمل لدعم الفلسطينيين ولكن هؤلاء الحكام كانوا في واد وفلسطين في وادٍ آخر فقاموا بارسال جيوشهم إلى فلسطين لإكمال المأساة ولتخرج عصابات اليهود منتصرة ليس فقط على الفلسطينيين بل على سبعة جيوش عربية .

دخلت جيوش العرب تحت قيادة موحدة اسما ، ومن تكون هذه القيادة إنها قيادة الملك عبد الله الوالغ في التآمر مع بريطانيا والصهيونية مقابل إعطائه إمارة شرق الأردن - ومن استرعى الذئب فقد ظلم - . دخل الجيش المصري من الجنوب بدون خطة ، وإعداده كان في منتهى الهزال وأخذ الطريق الساحلي إلى اسدود ولم يواجه إلا مستعمرتين عبر كل هذا الطريق وكانت الأنباء ترسل إلى القاهرة عن انتصار الجيش المصري في بلاد لا تزال في أيدي أبنائها المسلمين الذين كانوا يتلقون الجيش المصري بالترحاب وتقديم التسهيلات . في الوقت الذي تلقى فيه هؤلاء الفلسطينيون أسوأ معاملة من الجيش المصري ، فقد أثرت في أفراد الجيش المصري البسطاء الدعاية الصهيونية المجرمة والصحافة المصرية المأجورة التي كانت تصور الشعب الفلسطيني لدى المصريين بأنه عميل باع أرضه لليهود ولذلك فان الجيش المصري كان يجرد الفلسطينيين من السلاح ولا يثق فيهم ولا يعاونهم وبهذا فقد عنصرا مهما فبدلا من أن يحارب في أرض صديقة هي أرضه في الواقع - لأنه لا فرق بين المسلم والمسلم - كانت يتعامل مع الفلسطينيين كأعداء وبهذا فقد ثقة الفلسطينيين فيه .

ودخل جيش العراق من منطقة بيسان وجنين وقام ببعض الأعمال الجيدة .

ودخل الجيش السوري من منطقة طبرية وصفد ولكنه توقف أمام الدفاعات اليهودية ومني بهزائم متعددة .

أما الجيش اللبناني الهزيل فبقي يتفرج على الحدود .

والجيش السعودي شارك ببضع عشرات من الجنود على الجبهة المصرية .

أما الجيش العربي الأردني فقد كانت له قصة مختلفة . لقد كان الجيش الأردني موجودا من قبل في فلسطين ولهذا الوضع قصة ، لقد تفتق ذهن الملك عبد الله ورئيس وزرائه الخائن توفيق أبو الهدى عن خطة جهنمية وذلك في سنة ١٩٤٦ حين ذهب توفيق أبو الهدى إلى بريطانيا وعرض عليها أن يدخل الجيش الأردني إلى الجزء الجبلي من فلسطين - المسمى الآن الضفة الغربية - بحجة حمايته من اليهود . ونلاحظ أن هذا الجزء يقع حسب خطة التقسيم البريطانية ضمن الدولة العربية وذلك كي يضمن للملك عبد الله نفوذه على الجزء العربي في فلسطين ولا تكون دولة بينه وبين اليهود يسيطر عليها المفتي الحاج أمين الحسيني - عدو بريطانيا وعدو الملك عبد الله المشترك - . وافقت بريطانيا على هذه الخطة واعتبرتها مخرجا ممتازا للقضاء على الحاج أمين الحسيني ولذلك دخل الجيش الأردني كمنقذ لفلسطين في الظاهر وفي الحقيقة كان دخوله لتنفيذ فكرة التقسيم الخبيثة - إنها الخيانة بأسلوب وطني - وهكذا ظل الجيش الأردني في مواقعه يراوح مكانه ولا يتعدى تلك الحدود التي رسمت في التقسيم مطلقا . وهذا ما قرره عبد الله التل القائد الأردني لمدينة القدس ، لقد قال إن كل مطالباته بأن يدخل الجيش الأردني إلى مناطق استراتيجية ضرورية لإحكام الدفاع عن القدس كانت تواجه بالرفض من القيادة العليا للجيش المتمثلة في الجنرال الإنجليزي «جلوب» وحين أحكمت قوات الجيش الأردني وقوات الجهاد المقدس السيطرة على القدس وكان ما يقرب من مائة ألف يهودي مهددين بالفناء أو الاستسلام ، في نفس الوقت كانت قوات الجيش المصري في الجنوب تتقدم باتجاه تل أبيب ، والجيش العراقي يحرز بعض الانتصارات في الشمال تدخلت القيادة السياسية العربية لتقبل بمشروع الهدنة الذي مكن اليهود من التقاط أنفاسهم وتنظيم جهودهم من جديد واستقدام جنود يهود من كل أنحاء العالم وأسلحة كثيفة ليبدأوا

بعد شهر هجوما على كل الجبهات ، ولتبدأ بعدها الجيوش العربية عملية تراجع مستمرة ولتنتهي الحرب بهزيمة نكراء للجيوش العربية تحتل بموجبها القوات الصهيونية ٨٠ ٪ من أراضي فلسطين وتبقى أرض الضفة الغربية في يد الجيش الأردني وقطاع غزة في يد الجيش المصري وتأتي محادثات رودس لتكمل المأساة ويسلم الملك عبد الله فيها وادي عارة لإسرائيل مقابل الحصول على بعض التسهيلات في منطقة القدس .. وفي مباحثات رودس قام المصريون بالتفاوض مع اليهود في البداية وقبلوا بوقف إطلاق النار بينهم وبين إسرائيل وأخذوا قرية بيت حانون بدلا من الفالوجا التي كانت في يد القوات المصرية المحاصرة ، وأفرج اليهود عن القوات المصرية المحاصرة في الفالوجا مقابل ذلك .

وحين بدأت محادثات رودس وقف الملك عبد الله يزايد على الملك فاروق ويتهمه بالخيانة لقبوله التفاوض مع اليهود بشروط سيئة . ولم يمض كبير وقت حتى ذهبت الدول العربية إلى رودس الواحدة تلو الأخرى فذهبت سوريا ثم لبنان ثم الأردن التي دخل المفاوضات وخرج منها بأسوأ نتيجة بتسليمه وادي عارة وأجزاء في وادي عربة أخذها اليهود في مباحثات رودس ، مما يذكرنا بكامب ديفيد وكيف أن الزعماء العرب قاطعوا السادات الخائن لتوقيعه الاتفاقيةثم إذا بهم يعيدون علاقاتهم مع النظام المصري الواحد تلو الآخر رغم ارتباط النظام المصري باسرائيل باتفاقية كامب ديفيد .

ثانيا : على الصعيد اليهودي :

لا تكتمل الصورة حتى نلقي بعض الضوء على الإعداد العسكري اليهودي خلال السنوات الطويلة السابقة على معركة سنة ١٩٤٨ ، لقد كان اليهود يعرفون حين قدموا إلى فلسطين أنهم يقدمون إلى أرض معادية ترفضهم وتصدهم . ولذلك كان عليهم أن يوطنوا أنفسهم ويعدوها للصراع الطويل من أجل قيام دولتهم والمحافظة عليها وكانت كل أفكار اليهود مجتمعة حول امتلاك القوة وإنما كان الاختلاف حول الأسلوب والتوقيت ويعتبر زئيف فلاديمير جابوتنسكي - الأب الروحي لمنظمة

الأرجون التي تطورت إلى حزب حيروت ومن بعد الليكود ، يعتبر جابوتنسكي مؤسس الجيش اليهودي فقد كان جابوتنسكي وهو لا يزال في روسيا مقتنعا بأن العنف هو الطريق لإقامة الوطن القومي اليهودي وكان أمامه مشكلة طالما نبه إليها واهتم بها وهي أن الإنسان اليهودي الذي مكث حوالي عشرين قرنا لا يحمل السلاح بحاجة إلى تغيير نفسيته وتعويده على حياة جديدة من العزة والكرامة بدل الذل الذي عاش فيه طويلا ، ولذلك كتب الكثير من المقالات في المجلات اليهودية يدعو فيها إلى التربية العسكرية وإلى إعداد جيش يهودي وتحقق حلمه حين اجتمع مع مجموعة من القادة الصهاينة في الإسكندرية في بداية الحرب العالمية الأولى ، وفعلا اتفق هؤلاء القادة على تشكيل الفيلق اليهودي الذي تشكل في معسكرات الجيش البريطاني في مصر وتدرب في منطقة أبو صوير والإسماعيلية . وكان جابوتنسكي ضابطا في هذا الفيلق وكان اهتمامه منصبا على ضرورة اشتراك هذا الفيلق في عملية احتلال فلسطين كي يؤكد أحقيته في فلسطين وفعلا تم له ما أراد وانخرط هذا الفيلق اليهودي في الجيش البريطاني تحت قيادة الجنرال اللنبي الذي احتل فلسطين ، حينها بدأ جنود هذا الفيلق يسرقون السلاح ويخبئونه في المستعمرات اليهودية وبدأ الجيش البريطاني يعاني من وجود هذا الفيلق في وسطه إلى أن ثبت اشتراك جنود من هذا الفيلق بزعامة جابوتنسكي في الاضطرابات في فلسطين فتم تسريح هذا الفيلق الذي كان أفراده هم أساس قوات منظمة الهاجاناه - تعني الدفاع - وهي الجناح العسكري لمنظمة الصهيونية .

ظلت الهاجاناه تنمو شيئا فشيئا ويتدرب أعضاؤها على السلاح في المستعمرات اليهودية التي كانت محجوبة عن أعين الفلسطينيين وكذلك إلى حد كبير عن أعين الإنجليز وباشرت في تخزين السلاح وتجنيد أعضائها من كل أبناء اليهود المتواجدين في فلسطين وحين بدأت بعض المجموعات الفلسطينية بمقاومة التواجد اليهودي ومهاجمة المستعمرات اليهودية حمل اليهود السلاح للدفاع عن مستعمراتهم وبرز في هذه الفترة - أوائل العشرينيات - اسم جوزيف ترومبلدور وهو أحد ضباط الفيلق اليهودي وكان قد أصيب سابقا وبترت ساقه ، وقد قتل مع ستة من اليهود في

مستعمرة تل حي شمالي صفد ولا يزال اليهود يعتبرونه مثلهم الأعلى في البطولة كما نعتبر نحن «عز الدين القسام» .

وبعد ذلك احتاجت بريطانيا إلى تقوية قوات الشرطة البريطانية لمواجهة الإضطرابات التي حدثت في فلسطين فأنشات قوة شرطة سميت بالقوة الإضافية فانخرط الكثير من الشباب اليهودي إليها ومن هؤلاء موشى ديان وإيجال آلون - الذين لمعت أسماؤهم فيما بعد - وأثناء ذلك شكلت كل مستعمرة من المستعمرات قوة خاصة للدفاع عنها إلا أن هذه القوات لم تستطع الدفاع بنجاعة ضد هجمات الفدائيين المسلمين الذين كانوا يهاجمونها في أي وقت فيقتلون ويدمرون ، وفي الثلاثينيات قدم إلى فلسطين ضابط إنجليزي من سلاح الاستخبارات العسكرية ويدعى - أوردي وينجيت - وكان مسيحيا صهيونيا متعصبا للصهيونية وله خبرة طويلة في مقاومة حرب العصابات . بدأ وينجيت في تدريب مجموعة من الجنود والضباط اليهود فأدخل استراتيجية جديدة في التفكير اليهودي لا يزال الجيش الإسرائيلي يقوم عليها وهي أن تهاجم العرب قبل أن يهاجموك وبدأ ينصب الكمائن بعيدا عن المستعمرات في الطرق المؤدية إليها ، فيقتل جماعات الفدائيين وهي قادمة مطمئنة أو يها جم القرى العربية ليبث الرعب في سكانها ، وكون فرقة من الضباط مثل إسحاق ساديه وموشى ديان وإيجال آلون الذي شكلوا فيما بعد قيادة جيش الدفاع الإسرائيلي .

اتسع نطاق الهاجاناة لتشمل كل قادر على حمل السلاح أو قادرة من اليهود في فلسطين وعند بداية الحرب العالمية الثانية كانت الهاجاناه قد وصلت إلى درجة كبيرة من التنظيم والتدريب كمليشيا عسكرية ، ونالت بعض الخبرة القتالية عن طريق الاشتباك مع المسلمين في الانتفاضات السابقة وانقسمت الهاجاناه إلى قسمين :

قسم الهاجاناه التي تجندت في الجيش البريطاني واستوعبت التدريب كجيش نظامي قاتل إلى جانب الإنجليز في الصحراء الغربية في مصر وقام بأعمال الاستخبارات عن طريق بث جواسيس من اليهود الألمان بين الأسرى الألمان المعتقلين لدى بريطانيا ، وكذلك قامت وحدات من قوات المظليين اليهود بالدخول إلى منطقة البلقان لأغراض التجسس وإثارة حرب العصابات وكان الاختيار دائما يقع على اليهود

القادمين من تلك البلدان الأوربية التي ينوي الحلفاء غزوها وقد قدرت قوات الهاجاناه المنخرطة في الجيش البريطاني بعشرات الآلاف ، كما يقول إيجال آلون في كتابه - بناء الجيش الإسرائيلي - . أما الفريق الآخر وهو البالماخ ويعتبر من القوات الخاصة -الصاعقة - فقد تشكلت منه تسع فرق مستقلة على طول البلاد وعرضها ونالت تدريبات جيدة كان أساسها الأسس التي وضعها وينجيت وقد تعاونت قوات البالماخ مع بريطانيا بالقيام بأعمال الاستطلاع والتجسس في لبنان وسوريا التي كانت خاضعة لحكومة فيشي الفرنسية المتحالفة مع النازية . وتكونت أيضا نواه للبحرية الإسرائيلية عن طريق إرسال مئات من الشباب اليهودي للعمل على ظهر السفن التجارية والسفن التي كانت تنقل المهاجرين اليهود إلى فلسطين وهؤلاء كانوا هم بحارة السفن العسكرية الإسرائيلية في المستقبل .

وكذلك تكونت نواة القوات الجوية الإسرائيلية عن طريق انخراط العديد من الشباب اليهود في السلاح الجوي الملكي البريطاني ، ولعل من أشهر هؤلاء عيزر وايزمن الذي كان قائد سلاح الجو سنة ١٩٥٦ والذي خطط لضربة الطيران المشهورة سنة ١٩٦٧ والذي يعتبر بمثابة الأب الروحي لسلاح الجو الإسرائيلي .

وهكذا ما إن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى كانت لدى اليهود قوة عسكرية تقدر بعشرات الألوف قدرها الكثير من الخبراء بحوالي ٦٠ ألف جندي تدربت بشكل جيد على السلاح كجيش نظامي في إطار الجيش البريطاني وكذلك على حرب العصابات كما كان حال البالماخ . وحصلت على الكثير من الأسلحة عن طريق السرقة تارة من الجنود البريطانيين أو شرائها منهم تارة أخرى وكذلك عن طريق استيرادها من الخارج أو أخذها رسميا من بريطانيا بحجة القيام بعمليات خاصة لصالح الإنجليز ، وقد كان يتم تدريب هذه القوات بشكل علني في أغلب الأحيان في المستعمرات اليهودية . وحين قامت بريطانيا باصدار الكتاب الأبيض سنة ١٩٣٩ قال بن جوريون رئيس الوكالة اليهودية في ذلك الوقت قولته المشهورة «سنحارب مع بريطانيا ضد النازية كما لو كان الكتاب الأبيض غير موجود وسنحارب الكتاب الأبيض كما لو كانت الحرب غير موجودة» . وضمن هذه المعادلة الصعبة تم تدريب الهاجاناه والبالماخ وحصولهما على السلاح .

ولكن قامت بعض المنظمات الإرهابية اليهودية ورفضت سياسة الوكالة اليهودية وبدأت هذه *المنظمات الأرجون ، شتيرن باعلان حرب العصابات ضد بريطانيا* وضد العرب في آن واحد وما إن انتهت الحرب حتى انضمت الهاجناه إلى هذه المنظمات في الحرب ضد بريطانيا وهكذا أخذ اليهود خبرة قتالية وتنظيمية كبيرة ، وعن دور هذه التنظيمات المتطرفة يقول إيجال آلون : «بقي أن نضيف أن المنظمتين الإرهابيتين الأرجون وليحي (شتيرن) السريتين اللتين كانتا إرهابيتين في طبيعتهما شاركا في الضغط العام على بريطانيا الذي أدى إلى انسحاب البريطانيين ، وعملياتهم كانت غالبا جسورة وتكوينهم الفردي كان غالبا من الرجال والنساء الشجعان الذين أثبتوا أنهم قادرون على التضحية ولكن لا يمكن اعتبارهم كانوا قادرين على هزيمة بريطانيا ، لأنهم كانوا معزولين عن المجتمع اليهودي ، وبالعكس كانت عمليات الهاجاناه بامكانها الحصول على النصر ، ليس فقط نتيجة الحجم الكبير والمتنوع لعملياتها ولكن أيضا لأنها كانت تتمتع بالتأييد الكبير من الجماهير اليهودية» (١) .

ولكن مناحيم بيجن زعيم الأرجون يعتبر نفسه ومنظمته بالطبع هي العامل الأساسي في خروج بريطانيا (٢) .

هذا هو حال القوات اليهودية قبل معركة سنة ١٩٤٨ ، وما إن بدأت المعركة حتى أحرزت الجيوش العربية نصرا سريعا في بدايتها نتيجة تفوقها العددي والتسليحي ونتيجة لانشغال قوات كبيرة من اليهود في الصراع مع الفلسطينيين وهنا اعتمد اليهود على عملائهم الإنجليز وغيرهم الذين ضغطوا على الزعامات العربية المتهالكة على هدنة لمدة شهر ولا أدري بأي شكل بررت هذه الزعامات أمام جنودها هذا القبول بعد أن كان النصر قاب قوسين أو أدنى . وفي فترة الشهر هذه قام اليهود بترتيب أنفسهم من جديد واستقدموا ألوفا من الجنود اليهود من الدول المنتصرة في الحرب العالمية وكان أخطر هؤلاء مجموعة من الطيارين قدمت من جنوب أفريقيا

---

(١) كتاب بناء الجيش الإسرائيلي / إيجال آلون ، ص ٣٩ .

(٢) كتاب التمرد / مناحيم بيجن .

ومن سلاح الجو الملكي البريطاني وسلاح الجو الأمريكي . بل وحصلوا على كثير من الأسلحة من مختلف أوربا وبالذات من تشيكوسلوفاكيا ، وأصبح لديهم قوة جوية وأصبح عندهم مصنع لصناعة الرشاشات في تل أبيب وحسنوا من أوضاعهم القتالية عن طريق خرقهم للهدنة في الأماكن التي يريدون فيها تعديل أوضاعهم ، والعرب يكتفون بالاحتجاج لهيئة الأمم المتحدة ، وهكذا ماإن انتهت مدة الهدنة حتى ظهر اليهود بمظهر غير الذي كانوا عليه . وبدأت الجيوش العربية في التراجع على مختلف الجبهات .

هل تمت عملية شراء لذمم من تبقى له ذمة من الزعامات العربية في مدة الهدنة ، هذا سؤال تؤكد إجابته نتيجة الحرب التي آلت إلى أن اليهود احتلوا معظم أجزاء فلسطين أكثر بكثير من القسم الذي خصص لهم في مدة التقسيم الذي كان أكبر أمانيهم في تلك المرحلة أن يدافعوا عن هذا الجزء الذي خصص لهم فقط .

لقد أثير الكثير عن صفقات الأسلحة الفاسدة التي اشتراها الجيش المصري ، وأثيرت الكثير من الاتهامات حول خيانة جلوب باشا والملك عبد الله ، وكذلك على مستوى الجيش السوري ، وكذلك اتهامات متبادلة بين الزعامات العربية لا يملك المرء أمام نتيجة الحرب إلا أن يصدقها جميعا .

وهكذا لو جئنا نقوم هذه الحرب فاننا نجد أن هزيمة العرب كانت نتيجة طبيعية للأحوال التي كانت سائدة سواء على الصعيد الفلسطيني أو على الصعيد العربي ، فعلى الصعيد الفلسطيني كان :

١- فقدان الجانب التنظيمي طيلة السنوات الماضية وإهمال الإعداد المتواصل ليوم كان الفلسطينيون يعرفون أنه لا محالة قادم .

٢- كانت القاعدة التي يقاتل عليها الفلسطينيون هبة فطرية للدفاع عن أراضيهم وممتلكاتهم وأعراضهم وكان ينقصهم العمق العقائدي في أي مواجهة تحدث .

٣- ضعف التسليح لدى الفلسطينيين بشكل عام ، فقد كان أفضل ما يحصل عليه الفلاح الفلسطيني في الغالب بندقية من نوع قديم ذات الطلقة الواحدة ونادرا ما كانوا يحصلون على الرشاشات ولعل لهم بعض العذر في ذلك ، لقمع السلطات البريطانية لهم في السابق وضن الدول العربية عليهم بالسلاح . وقد بذل الفلسطينيون محاولات

كثيرة للحصول على السلاح فلم يكونوا ينالونه إلا بشق الأنفس ومن السوق السوداء وبأثمان باهظة كانوا يدفعون فيها بقوت أطفالهم وحلي نسائهم .

ولعل في موقف الجامعة العربية المخزي من الشعب الفلسطيني ما يعطي بعض العذر للفلسطينيين ، لقد كان المسؤول عن لجنة الجامعة العربية الفريق طه الهاشمي الذي كثيرا ما ذهبت إليه الوفود الفلسطينية تطلب منه الحصول على السلاح ، وحين لا يجدونه في بيته كأغلب عادته ، كانوا يفتشون عنه في مواخير دمشق وحينها يزعق في وجوههم صائحا «ماكو سلاح» - ماكو كلمة عراقية دارجة تعني لا يوجد - .

وفي إحدى المرات ذهب الشهيد عبد القادر الحسيني بنفسه ليطلب السلاح ولما لم يجد ردا مناسبا ، وكان في يده خرائط فمزقها وألقاها في وجهه وقال قولته المشهورة - وكانت القسطل قد سقطت في يد اليهود - : سأرجع إلى فلسطين وأسترد القسطل وسيسجل التاريخ أن المسؤول عن ضياع فلسطين هو الجامعة العربية (١) .

ويقول الأستاذ كامل الشريف أن ما استطاع أن يحصل عليه عبد القادر الحسيني من الجامعة العربية كان ٢٧٠ جنيها (٢) .

وفي كتاب جهاد شعب فلسطين في نصف قرن يحكي صالح بويصير قصصا مخزية عن مواقف الدول العربية من تسليح الشعب الفلسطيني بالأرقام فليراجع هذا الكتاب .

في هذا الوقت كان اليهود يحصلون على السلاح بكميات هائلة من جميع أنحاء العالم ، بالإضافة إلى ما يحصلون عليه من بريطانيا ، وكانت تبرعات اليهود من كل أنحاء العالم تصل إليهم بالملايين ، في الوقت الذي تبخل فيه الدول العربية على الشعب الفلسطيني بالملاليم .

٤- ضعف الإعداد والتدريب :

جاءت الحرب والفلسطينيون كما أسلفنا ليس لديهم تنظيمات قوية أو أي نوع من أنواع التدريب الجيد ولعل في هذه القصة التي حكاها لي أحد المقاتلين القدامى ما

---

(١) من كتاب جهاد شعب فلسطين / تأليف صالح بويصير ، بتصرف .

(٢) الإخوان المسلمون في حرب فلسطين / كامل الشريف ، ص ٣٠ .

يدل على هذا الضعف ، يقول المقاتل : في معركة سنة ١٩٤٨ كان هناك يهودي على أطراف البلدة يحتمي خلف جذع نخلة وبحوزته رشاش وكان كلما أطل أحد السكان ضربه بالنار حتى قتل ثلاثة أشخاص وأصاب آخرين ، وكان المقاتلون يذهبون بأسلحتهم ليقتلوه ولكن دون جدوى ، فكانوا يقتلون أو يصابون ولا أحد يستطيع أن يصيبه ، وأخيرا ذهبوا إلى شيخ كبير في القرية ممن خدموا في الجيش التركي فوصفوا له المكان الذي فيه اليهودي فالتف هذا الشيخ بضعة كيلومترات حتى وصل إلى اليهودي من الخلف فصرعه بطلقة واحدة اخترقت الخوذة من الخلف ثم جمجمة اليهودي ثم خرجت من الخوذة من الأمام .

قرية بكاملها لا يقل عددها في ذلك الوقت عن ثلاثة آلاف نسمة ليس فيهم من يجيد التصويب على الهدف واختيار المكان المناسب لإطلاق النار غير هذا الشيخ العجوز .

هذا في الوقت الذي كان فيه اليهود يستعدون لهذا اليوم منذ قدومهم إلى فلسطين ، فكانوا يتدربون على حرب العصابات ثم الحرب في مجموعات صغيرة ثم كتائب ثم إلى درجة القتال في ألوية وفرق حتى أصبح عندهم رئاسة أركان في أواخر الثلاثينيات . يقول إيجال آلون عن فترة الإعداد والتدريب هذه : «تحت ضغط الثورة العربية استمرت الهاجاناه في النمو في الحجم والقوة واحتوت في هذا الوقت كل يهودي ويهودية تقريبا يعملون كوحدة واحدة ، وربت الهاجناه عددا كبيرا من ضباط الصف الشبان والضباط وحصلت على أسلحة أكثر وأحسن وفوق كل هذا طورت شخصيتها فاحتوت الأمة كلها ، وقوت قيادتها ، وكونت بداية ناجحة في تكوين وحدة احتياطية متحركة . كل هذا نفذ بدون التقليل من أهمية قيادة المناطق والقيادات المحلية وليس على حساب المبادرات التكتيكية للقادة الصغار ، لقد كانت بطبيعة الحال أخطاء وإخفاقات ولكن من وجهة نظر عسكرية صرفة بشكل عام تعتبر هذه المرحلة هي التي وهبت النصر لليهود» (١) .

---

(١) بناء الجيش الإسرائيلي / إيجال آلون .

وهكذا لم يكن الفلسطينيون على المستوى الفردي قد تدربوا جيدا ولا على المستوى الجماعي ككتائب وألوية إلا في القليل النادر وهذا بطبيعة الحال لا يقلل من قيمة حماسهم وحبهم لوطنهم واستماتتهم في الدفاع عنه ولكن هذا لم يكن ليغني وحده أمام عدو متدرب ، مجهز ، منظم ومدعوم من كل قوى الشر .

٥ - الاعتماد على العرب اعتمادا لا يرتكز على أسس سليمة :

لقد ظل الفلسطينيون طيلة صراعهم مع الصهيونية ولا يزالون يعتقدون - وهم على حق - في أنهم جزء من الأمة العربية ويجب على الأمة العربية أن تقف معهم وتدعمهم في مواجهة أعدائهم ، ولكن هذا الاعتقاد كان يجب أن يكون على أسس ثابتة وواقعية ولم يبن على الأماني والأحلام ، لقد وقف العرب وبالذات الدول والزعامات موقف المتفرج إن لم نقل المتواطىء ولا يزالون إلى الآن من قضية فلسطين ومما يحصل للشعب الفلسطيني إلا القلة النادرة ممن هداهم الله للجهاد في سبيله ، لأن هذا الرباط الذي يربط العرب بالفلسطينيين كان واهيا .. إنه موجود نظريا ومفترض وجوده باسم الأخوة في الإسلام الذي يدينون به لكن حقائق الإسلام الأصيلة كانت باهتة إلى حد بعيد في نفوس الناس ، وكانت دولهم إما محتلة احتلالا مباشرا من الأعداء وهم لذلك لا يستطيعون تقديم العون للفلسطينيين وهم يخوضون معارك التحرير في بلادهم وإما كانت محكومة بحكام دمى في أيدي الدول الاستعمارية لا يستطيعون عملا إلا عن رضى هذه الدول . وهكذا كان الولاء إما ضعيفا واهنا وإما مكبلا بقيود الاستعمار .

لقد كان على الفلسطينيين أن يعرفوا هذه الظاهره ويستعدوا لعملية تغيير شاملة في بلادهم وفي المنطقة الإسلامية عامة فيكون هذا الارتباط والاعتماد وثيقا ، وقائما على أصول صحيحة .. لقد كان الفلسطينيون ينظرون بشوق إلى قدوم إخوانهم العرب لنجدتهم ولم يكونوا يحسبون أن إخوانهم العرب جاءوا ليسلموهم لأعدائهم وليساوموا على قضيتهم ، كما فعل الرؤساء والملوك العرب . هذه الظاهرة أثرت على مستوى القتال لدى الفلسطينيين ، فحين قدمت القوات المصرية مثلا ومنعت الفلسطينيين من الاشتراك في القتال ، لم يبذل الفلسطينيون مقاومة لذلك وقبلوا

بذلك عن طيب خاطر أملا في أن الجيش المصري العظيم سيحرر بلادهم . يقول الأستاذ كامل الشريف : «ولقد صارحني أحد قواد المستعمرات اليهودية في النقب وكنا نتفاوض معهم خلال الهدنة الأولى بشأن نقل بعض الجثث فقال لي في مجال الحديث حول الحرب "لقد نجحنا في إخراج الشعب الفلسطيني من المعركة وهو الذي مارس قتالنا خلال أعوام طوال أما أنتم أيها الغرباء فلن نأبه بكم ولن يصعب علينا إلقاؤكم في البحر متى جاء الوقت المناسب" (١) وقد كان !! .

هذه هي نتيجة إخراج الشعب الفلسطيني من المعركة . إن اليهود رغم اعتمادهم الكامل على بريطانيا في التسليح والدعم السياسي في البداية ثم على أمريكا في النهاية لم يغفلوا حقيقة مهمة إنهم هم الذين سيقاتلون وليس بريطانيا ولا أمريكا ولذلك كان الاعتماد الأساسي على أنفسهم وبذلوا كل مساعيهم لكسب الدعم الأجنبي لهم بالمال والسلاح وحتى مع هذا الاعتماد فانه لم يكن اعتمادا أعمى كما فعل الفلسطينيون فما إن رأى اليهود من الإنجليز بعض المماطلة والتباطؤ في دعمهم وقفوا ضد بريطانيا وحولوا صداقتهم إلى أمريكا التي وقفت مع أمانيهم وتطلعاتهم بلا تحفظ .

ومع هذا يجب ألا ننسى أن الشعب الفلسطيني بذل ما في وسعه في مقاومة ظروف صعبة هي فوق طاقته حين كان وحيدا في مواجهة المنظمة الصهيونية المنظمة جيدا والمدعومة حتى الأسنان بكل قوى البغي . وكذلك يجب أن نسجل للقيادة الفلسطينية السابقة أنها لم تقبل - رغم كل التحديات - التنازل عن حق المسلمين في فلسطين حتى رغم الهزيمة وحين عاد الحاج أمين الحسيني إلى غزة بدأ النضال من جديد ولكن دول التخاذل اعتقلته وحددت إقامته في القاهرة .

إن الشعب الفلسطيني رغم الهزيمة لم يفقد إرادته بل كان عازما على التصدي لأعدائه لولا الأحداث التي كانت أكبر منه والتي كان يضطره إليها إخوته العرب .

أما على الصعيد العربي فقد كان الوضع مأساويا فما عدا قوات المتطوعين التي

---

(١) الإخوان المسلمون في حرب فلسطين / كامل الشريف ، ص ٧٣ .

دخلت عن طريق مصر وسوريا والأردن وقامت بما عليها كان وضع الجيوش العربية مخزيا من قلة التدريب وقلة الوعي وضعف الروح المعنوية بل والخيانة بشكل واضح مما أدى إلى انسحاب جميع الجيوش العربية أمام القوات الصهيونية . وسنفرد الباب التالي لدراسة موقف الدول العربية من القضية الفلسطينية .

بعد استعراض هذه الجهود والتجارب الجهادية نرى كيف كان واضحا أثر الغياب الإسلامي على المسيرة العربية في فلسطين ولابد للحركة الإسلامية وهي تتصدى لحمل واجبها تجاه فلسطين أن تعي أخطاء الماضي ويجب عليها أن تكون الإجابة الصحيحة لكل الأسئلة التي طرحتها معادلات الماضي الصعبة .

الباب السادس

الدول العربية والقضية الفلسطينية

الباب السادس

الدول العربية والقضية الفلسطينية

مر بنا في استعراض الأحداث السابقة كثير من المواقف للدول العربية بالنسبة لقضية فلسطين ونفرد هذا الباب لنبين دور الدول العربية بوضوح ، رأينا كيف أنه في بداية أحداث القضية الفلسطينية لم يكن هناك دول عربية مستقلة ورأينا كيف كان موقف الشريف حسين وأولاده فيصل وعبد الله . ورأينا كيف كان أول احتكاك للفلسطينيين بالدول العربية والإسلامية كان على أثر أحداث البراق سنة ١٩٢٩ حيث ذهبت الوفود الفلسطينية إلى الدول العربية والإسلامية لتجمع التبرعات للأهالي الذين تضرروا نتيجة الحد ث . ورأينا كيف أن العالم الإسلامي بأسره جمع أربعة عشر ألف جنيه في الوقت الذي جمع فيه اليهود خمسين مليونا من الجنيهات . وكيف أن واحدا من الحكام العرب حين دفع مبلغ مائتي جنيه اشترط أن يكتب له شكر في الجرائد . وكيف أن الإنجليز منعوا المسلمين الهنود من إرسال تبرعاتهم للشعب الفلسطيني .

وكان الاحتكاك الثاني في أحداث ثورة سنة ١٩٣٦ حين رأينا الحكام العرب وكانوا كلهم يدووون في فلك بريطانيا يضغطون على الشعب الفلسطيني لكي يوقف ثورته التاريخية ويدخل في مساومات ليخدع الشعب الفلسطيني بدل أن يقف بجانبه ويدعم ثورته ، فقد كانت البرقيات تنهال من كل الحكام العرب على قيادة الشعب الفلسطيني تطلب منه إنهاء الثورة والاطمئنان إلى نوايا بريطانيا الصديقة في إرجاع الحقوق للشعب الفلسطيني .

وقد أثبت الملك عبد الله أنه أشد الحكام وقاحة حين منع المتطوعين العرب من الدخول إلى فلسطين وكذلك كانت شرطته تمسك بالثوار الفلسطينيين المطلوبين لقوات بريطانيا وتسلمهم لها فضلا عن إغلاقها الحدود الشرقية لفلسطين لمنع الدعم بالرجال وبالأسلحة القليلة التي كان يحصل عليها الفلسطينيون من إخوانهم العرب . ورأينا كيف أن إنهاء الإضراب الفلسطيني الكبير كان بناء على طلب من الحكام العرب الذي اطمأنوا إلى عدالة بريطانيا وتحذيرها وكيف أن النحاس باشا رئيس وزراء

مصر حين سأله أحد الصحفيين ماذا صنعتم لقضية فلسطين أجاب بأنني رئيس وزراء مصر وليس رئيس وزراء فلسطين (١) .

وخلال مؤتمر المائدة المستديرة في لندن كان دور الوفود العربية هو الضغط على الوفد الفلسطيني لقبول مقترحات بريطانيا بل وأخذت بريطانيا في إبان ثورة ١٩٣٦ نوري السعيد رئيس وزراء العراق ليفاوض الزعماء الفلسطينيين في سجنهم في فلسطين ويخرج باقتراحات هي في صالح بريطانيا واليهود مما أدى بالزعماء الفلسطينيين إلى أن يوقفوا حوارهم معه ، وخرج خائبا من فلسطين . وخلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية رأينا كيف أن الملك عبد الله لم يكف عن المفاوضات بغية ضم فلسطين إلى مملكته بحيث تكون لليهود ويكون شرق الأردن للعرب ويكون هو ملكا على المنطقة كلها . وعرض هذه الفكرة على جولدا مائير سنة ١٩٤٨ حين زارته في بعثة خاصة من الوكالة اليهودية ولكنها رفضت ذلك رفضا قاطعا وأخبرته أن هذا الموضوع قد فات وأن دولة يهودية تتشكل الآن (٢) .

وحين بعث رئيس وزرائه توفيق أبو الهدى إلى لندن ليباحث الإنجليز ويتفق معهم سرا على ضم منطقة الضفة الغربية إلى مملكته مقابل رضائه بقرار التقسيم المزمع طرحه في الأمم المتحدة ، وأدخل الجيش العربي الأردني بحجة الدفاع عن فلسطين وهدفه الأساسي يكمن في أخذ المنطقة العربية المقترحة في التقسيم وإبعاد القيادة الفلسطينية المتصلبة المتمثلة في الحاج أمين الحسيني عن تكوين دولة فلسطينية في الضفة الغربية تكون خطيرة على كل من الأردن وإسرائيل على حد سواء .

وفي الوقت الذي كان فيه الملك عبد الله يتهجم على الملك فاروق في مصر لعقده اتفاق الهدنة مع إسرائيل في رودس كان الملك عبد الله يجتمع مع موشى ديان ويبحث معه التنازل عن وادي عارة وأجزاء من وادي عربة مقابل تعديل طفيف على

---

(١) الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ .

(٢) مذكرات جولدا مائير .

الحدود في منطقة القدس من أجل خط السكة الحديد (١) (٢).

أما في مصر فقد كان النقراشي باشا - رئيس وزراء مصر في ذلك الوقت - مثالا للخيانة والتسلط على الشعب المصري ففي الوقت الذي كانت تحوم فيه الشبهات حول الملك فاروق وحاشيته حول صفقات السلاح الفاسدة التي كان يزود بها الجيش المصري كان النقراشي يرسل الأوامر للجيش المصري بالانسحاب ويمنع الإخوان المسلمين من التجنيد ليلحقوا باخوانهم المقاتلين في فلسطين ويضع قادتهم في المعتقلات ، ويصدر قرارا بحل الجماعة في مصر واعتقال أفرادها المقاتلين في معسكراتهم في فلسطين (٣).

ثم كانت نكبة سنة ١٩٤٨ سببا لتغيرات كبيرة في المنطقة العربية ابتدأت بعدة انقلابات في سوريا ثم انقلاب ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ في مصر ثم العراق واليمن وليبيا وغيرها.

وابتدأت بذلك طبقة جديدة من الزعماء العرب لم يشاركوا في هزيمة سنة ١٩٤٨ وابتدأ كل واحد منهم يظهر نفسه على أنه بطل العرب الذي جاء ليحرر فلسطين ويلقي اليهود في البحر.

وفي مرحلة الخمسينيات وأوائل الستينيات كانت قضية فلسطين هي القضية الأولى لهذه الانقلابات ، كل انقلاب مدعوم من الغرب يدعي أنه جاء لكي ينقذ فلسطين وأي نظام جاء مدعوما من الشرق يأتي بالشيوعية إلى المنطقة العربية أيضا لتحرير فلسطين ، ينكل بالأحرار في بلد مسلم باسم فلسطين ، ولكن فلسطين في الحقيقة كانت آخر ما يفكر فيه هؤلاء الزعماء ، ولنأخذ مثلا أكبر زعيم كان يتبجح بالدعوى العريضة ، بأنه رائد القومية العربية وبأنه البطل الذي سيحرر فلسطين هو جمال عبد الناصر يقول لأعضاء المجلس التشريعي في قطاع غزة من الفلسطينيين

---

(١) مذكرات ديان.

(٢) مذكرات عبد الله التل (كارثة فلسطين).

(٣) راجع الإخوان المسلمون في حرب فلسطين / كامل الشريف.

الذين كانوا يعلقون عليه آمالا كبيرة «الذي يقول لكم إن عندي خطة لتحرير فلسطين يضحك عليكم» . وهذا هو الفريق صلاح الدين الحديدي وهو أحد أعضاء قيادة الجيش المصري في حرب سنة ١٩٦٧ يقول في كتابه (شاهد على حرب ٦٧) : «إن الجيش المصري لم يفكر في خطة هجومية ضد إسرائيل منذ سنة ٤٨ وحتى سنة ٦٧ ، وإنما كان هناك خطة دفاعية تتغير وتتطور بعض الشيء بمرور الزمن» ، ويقول أيضا قبل حرب سنة ١٩٦٧ بثلاثة أيام أحرج الزعماء العرب عبد الناصر لتركه قطاع غزة دون حماية جيدة ، فأرسل عبد الناصر لواءا مدرعا من دبابات قديمة ليسكت هؤلاء الزعماء، وسوى ذلك ، كان قطاع غزة يعتبر منطقة ساقطة عسكريا وكان يستثنى من الخطط الدفاعية الموجودة .

وقامت حكومات البعث في سوريا والعراق لتهلل وتنادي بتحرير فلسطين دون أن تفعل شيئا حقيقيا لهذا التحرير .

وقام الملك عبد الله بضم الضفة الغربية إلى الأردن بحجة أن هذا هو نموذج الوحدة العربية وألغى اسم فلسطين من الوجود وهكذا جاءت حرب سنة ١٩٦٧ لتكشف زيف هذه الأنظمة العربية وكذبها ولتبين للإنسان العربي حقيقة هذه الشعارات الخادعة ، وحين ابتدأت بعض العناصر الفلسطينية تنادي في الخمسينيات بوجوب الكفاح المسلح ضد إسرائيل من أجل تحرير فلسطين استشعرت الأنظمة العربية هذا الخطر وبالذات بعد حادثة اعتداء اليهود على محطة غزة للسكة الحديد وقتل عشرات من الجنود المصريين والفلسطينيين ، وكانت هذه الحادثة ذات معلم بارز في التاريخ الفلسطيني ، فحينها استشعر الكثير من الشبان الفلسطينيين عدم جدية نظام عبد الناصر في تحرير فلسطين ولعل هذه الحادثة هي المحرك الرئيس في تكوين حركة فتح في المستقبل واستشعر عبد الناصر هذا الفراغ لدى الشعب الفلسطيني فبدأ اتصالاته لإنشاء منظمة فلسطينية تحتوي هذه الطاقات المتطلعة إلى تحرير فلسطين ، وفي تلك الفترة كان عبد الناصر على خلاف حاد مع الحاج أمين الحسيني الذي كان ذو شخصية لا تلين ولا يستطيع عبد الناصر أن يتخذه كدمية كيفما يشاء ، وأخيرا وجد ضالته في أحمد الشقيري وكان موظفا في الجامعة العربية

في القاهرة ، وهكذا ولدت منظمة التحرير الفلسطينية كنتاج لمؤتمر القمة العربي الأول سنة ١٩٦٤ .

لقد كانت إسرائيل والدول الاستعمارية تحرص على أن يكون صراعها مع دول عربية وليس مع الشعب الفلسطيني لأن هذه الدول تظل مربوطة بعقدة الخوف من التفوق الإسرائيلي ولعل هذا هو السبب الرئيس الذي جعل بريطانيا توافق علىتدخل الجيوش العربية سنة ١٩٤٨ وإبعاد الشعب الفلسطيني من الصراع ، وفي هذه المرة كان لابد من إخضاع الشعب الفلسطيني بالعمل في إطار منظمة ليكون في دائرة تحكم الدول العربية ، خوفا من أن يطلق الشعب الفلسطيني بدون وصاية وحينها لا يمكن أن تسيطر عليه إسرائيل ويكون عمله محرجا للأنظمة والزعامات العربية التي تدعي حرصها على فلسطين ، ولا تستطيع أن تؤيد الكفاح الفلسطيني عمليا ، ولذلك حين انطلقت حركة فتح وقفت منها الدول العربية موقف العداء في البداية لأنها تهدد نظرية الأنظمة العربية المتواطئة مع العدو الصهيوني .

ولكن بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ وجدنا هذه الأنظمة تؤيد حركة فتح لأنها استطاعت عن طريق حركة فتح امتصاص طاقة الغضب الفلسطيني الذي نتج عن فقدان الثقة في هذه الأنظمة وكذلك امتصاص غضب الجماهير العربية التي رأت خيانة قادتها عيانا . وبعد أن مكنت هذه الأنظمة عروشها المهترئة ، وقفت كلها لتتآمر على الثورة الفلسطينية فقامت بمجازر أيلول سنة ١٩٧٠ ثم مجازرعجلون سنة ١٩٧١ في الأردن بمباركة الدول العربية التي وقفت موقف المتفرج أو المتواطىء .

ورأينا كيف بلغت المأساة ذروتها عندما لجأت مجموعة من الفدائيين إلى إسرائيل هربا من الجيش الأردني ، وبهذا فقد الفلسطينيون أهم قاعدة لهم في مواجهة إسرائيل هذه الجبهة التي تمتد ٦٠٠ كم ولم يبق لهم سوى سوريا ولبنان.ونتيجة لحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ عقد كيسنجر اتفاقية فك الارتباط بين سوريا وإسرائيل سنة ١٩٧٤ وكان من ضمن هذه الاتفاقية بند غير مكتوب يقضي أن تمنع سوريا تسلل الفدائيين من أراضيها ، ورفض حافظ الأسد كتابة هذا البند في الاتفاقية خوفا من مزايدة السادات وغيره من الزعماء عليه . ولكنه التزم به التزاما حديديا فحتى الآن لم يخرق هذا البند ولو مرة واحدة ، ألسنا عربا نحافظ على العهود ؟! .

وهكذا لم يبق إلا لبنان ، لقد عقد مؤتمر الخرطوم على أثر هزيمة سنة ١٩٦٧ وخرج القادة العرب باللاءات الثلاثة المشهورة ، لا صلح ، لا تفاوض ، لا اعتراف باسرائيل حتى إزالة آثار العدوان ، فأين هذه اللاءات الآن ، لقد ظهرت نتيجة هذا المؤتمر لتكرس الهزيمة وتعطيها بعدها المعنوي ، فلم تعد المطالبة الآن بتحرير فلسطين ولكن بدأ مصطلح إزالة آثار العدوان وتحرير الأراضي العربية المحتلة (ليس فلسطين بالتأكيد فلم تعد فلسطين في نظرهم أرضا محتلة) وانسحاب إسرائيل إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧ وكالعادة بدأت عملية غسيل المسخ العربي بتحويل الهزائم إلى انتصارات فكما سميت هزيمة ١٩٥٦ بأنها انتصار سياسي سميت نكبة ١٩٦٧ بأنها نكسة كمحاولة للتخفيف من وقع الكارثة على نفسية الإنسان العربي ، ونحمد الله أنها لم تسم انتصارا سنة ١٩٦٧ .

وقبلت مصر والأردن ثم تلتها سوريا بقرار مجلس الأمن ٢٤٢ والذي يمسخ قضية الشعب الفلسطيني ويجعلها قضية لاجئين فقط ، ويسلم بوجود إسرائيل كحقيقة قائمة في المنطقة (١) ، وقبل جمال عبد الناصر بطل القومية العربية بمبادرة روجرز وذلك قبل أن يأخذه الله ليضيف عارا جديدا إلى رصيده الوطني .

كانت هذه الأنظمة متهالكة للحصول على صلح مع إسرائيل ولكنها لم تكن تستطيع أن تقوم بذلك وهي مهزومة ، فقام السادات والأسد بالتخطيط لحرب تحريكية محدودة ، هدفها إظهار أنهم يفاوضون من موقع المنتصر وليس من موقع المهزوم وأهدرت مقدرات هذه الشعوب وخيرة أبنائها في حرب لا تساوي ما دفع فيها من تضحيات، ولأنجزت إنجازا كبيرا لو كان التوجه صادقا نحو التحرير **الكامل** والحقيقي . *لقد قدمت تضحيات هائلة مقابل إنجازات قليلة على ساحة المعركة* وضيعت هذه الإنجازات القليلة في المعركة السياسية .

فمثلا في مصر احتل المصريون مساحة من الأرض شرقي القناة تساوي تقريبا ما احتله اليهود غربا وفي الجبهة السورية حققت القوات السورية تقدما في بداية الحرب ثم تراجعت أمام إسرائيل لتفقد أرضا جديدة زيادة على ما فقدته في عام ١٩٦٧م .

---

(١) كتب هذا الكلام قبل أن تعترف المنظمة بقرار ٢٤٢ وأصبح الآن أمنية المنظمة ووفدها المفاوض .

ومن الحقيقة أن نقول أن هذه الحرب قد حققت بعض الإنجازات مثل نزع عقدة الخوف من اليهود وإظهار مقدرة الجندي العربي حين نجح في عبور قناة السويس وتحطيم خط بارليف وهذه إنجازات مهمة دون شك ولكن المصيبة أن الذين خططوا لهذه الحرب أهدروا هذه التضحيات الهائلة مقابل أهداف سياسة محدودة . يقول المشير أحمد إسماعيل علي وزير الحربية المصري في حرب أكتوبر ، في لقاء مع الصحفي المصري محمد حسنين هيكل وقد سأله عقب حرب أكتوبر : كل العالم يقول إننا أضعنا فرصة كانت أمامنا حين كانت سيناء مكشوفة أمامنا ، فيرد المشير أحمد إسماعيل : «لقد أديت المطلوب مني» .

وحتى بعد حرب أكتوبر تتابعت الأحداث من فك الارتباط الأول إلى فك الارتباط الثاني إلى كامب ديفيد لكي تقضي على بقية منجزات الشعب المصري وتضحية أبنائه ، لم يكن السادات بدون هذه الحرب يستطيع القيام بما قام به من خيانة ، وكما وقف الملك عبد الله في السابق يزايد على الملك فاروق في أعقاب محادثات رودس وقف هذه المرة حفيده الملك حسين يزايد على السادات ويقطع علاقاته به مع من قطع من الحكام العرب محتجين على انفراد السادات بالصلح مع إسرائيل ، إنهم لم يعترضوا على مبدأ الصلح مع إسرائيل وإنما غضبوا لأنه تصالح وتركهم ، ثم رجعوا يعيدون العلاقات واحدا بعد الآخر وبدأ الملك حسين يجري بدون وعي هنا وهناك للحصول على صلح مع إسرائيل ، أما حافظ الأسد فانه يتعزز ويتمنع ويجري اللقاءات عن طريق شقيقه رفعت الأسد في أوربا وأمريكا مع شارون وغيره من قادة العدو ، هذا فضلا عن خذلان حافظ الأسد المخزي للفلسطينيين في حرب لبنان سنة ١٩٨٢ .

كما أسلفنا لم يعد للحركة الفلسطينية وجود إلا في لبنان وهنا وجد حافظ الأسد وحسين وغيرهم أنه بدون ضرب الحركة الفلسطينية لا يستطيعون أن يتمموا صفقة التنازل عن فلسطين فكان لابد من إنهاء المقاومة الفلسطينية في لبنان وبذلك يتم إحكام حزام الأمان حول إسرائيل الذي أقامه الحكام العرب ، فمثلا عبر الحدود المصرية لم تستطع العمل منذ سنة ١٩٦٧ إلا بعض العمليات المحدودة من

٦٧ - ٧٠ بموافقة الحكومة المصرية ، والجبهة الأردنية محصنة ضد العمل الفدائي منذ أحداث أيلول سنة ١٩٧٠ عجلون سنة ١٩٧١ ، والجبهة السورية منذ فض الاشتباك سنة ١٩٧٤ مغلقة تماما ، فلابد من إقامة حارس لإسرائيل في الشمال على الحدود اللبنانية ولذلك قامت الحرب الأهلية في لبنان بمباركة سوريا وكان المستهدف الأول من الحرب الأهلية هو الوجود الفلسطيني وظلت منذ سنة ١٩٧٥ وحتى الآن تلعب دور العراب للحرب الأهلية بحيث تحافظ على توازن القوى ولكنها في كل الحالات كانت ضد المقاومة الفلسطينية والشعب الفلسطيني ، فوقفت مع الكتائب ضد الفلسطينيين أثناء مذابح تل الزعتر والكرنتينا وجسر الباشا وحي النبعة وسن الفيل ، حين قامت قوات الكتائب بالقضاء على المقاومة الفلسطينية وحين كانت ترجح كفة المقاومة الفلسطينية في بعض الأحيان كانت القوات السورية تتدخل مباشرة تحجم دور المقاومة الفلسطينية ، وعند عملية الليطاني سنة ١٩٧٨ لم تتدخل القوات السورية لنجدة المقاومة على الرغم من أنها كانت على مرمى حجر من قوات الغزو الصهيوني واتخذت لنفسها خطا أحمر لا تتخطاه خوفا من الاحتكاك باسرائيل ، ولما لم تفلح قوات الكتائب في القضاء على الفلسطينيين حاولت إسرائيل القيام بالمهمة فقامت باجتياح لبنان حتى وصلت إلى بيروت واحتلتها سنة ١٩٨٢ وكان موقف حافظ الأسد مخزيا إذ أعلن وقف إطلاق النار بينه وبين إسرائيل في ثالث أيام الحرب تاركا الفلسطينيين واللبنانيين لمصيرهم ونسي كل ما كان يتشدق به من أنه حامي الأمة العربية وقامت قوات حزب الكتائب المسيحية بتنفيذ مذبحة صبرا وشاتيلا تحت حماية القوات الإسرائيلية . وحتى بعد الانسحاب الإسرائيلي من لبنان وجدنا حركة أمل الشيعية تشن حرب إبادة ضد الفلسطينيين بمساعدة حافظ الأسد ولا تزال هذه الحرب قائمة (١) .

وباختصار كانت ضحايا الفلسطينيين على أيدي العرب أضعاف أضعاف ما سقط على أيدي اليهود ، ولا تزال الدول العربية تمارس دورها في إبعاد الفلسطينيين عن

---

(١) كتب هذا الجزء سنة ١٩٨٧ .

ساحة القتال ، تعددت الوجوه وتغيرت لكن الهدف باقٍ . ملوك رجعيون ورؤساء تقدميون وقوميون عرب وثوار كذبة مختلفون في كل شيء ومتفقون على شيء واحد .. أن يخذلوا الشعب الفلسطيني ويتركوه فريسة لأيدي أعدائه ، وإما أن يكون هم الأداة المباشرة لتنفيذ ذلك فيهم .

ولكن هل هذا هو موقف الشعب العربي المسلم الحقيقي من الفلسطينيين وفلسطين أم أن المسألة غير ذلك ، الواقع أن كل المواقف السابقة هي مواقف الحكام العرب ، ولكن هل الشعب العربي معذور في ذلك ؟ إنه ليس معذورا باعتباره المسؤول بشكل جماعي عن وجود أمثال هؤلاء الحكام .

إن اطمئنان الشعب العربي الفلسطيني إلى أنه شعب عربي وأن العرب يجب أن يقفوا معه لكونهم عربا كان ولا يزال من أكبر الأخطاء التي وقع فيها الفلسطينيون . فلابد من تغيير في هذا الواقع العربي حتى تنطلق طاقات الأخوة الإسلامية من عقالها لتعتبر فلسطين قضيتها هي نفسها كما أنها قضية للشعب الفلسطيني ، بل الأدهى من ذلك أن الشعب الفلسطيني كان ولا يزال يريد هذه الأنظمة أن تقاتل معركته ولا يريد أن يبذل أي جهد للتغيير المنشود .

أما بقية الدول الإسلامية فكانت هناك وللأسف علاقات لإيران في زمن الشاه مع إسرائيل ، بل كان من أصدقاء إسرائيل الفعليين ، وكذلك الحال ولا يزال مع تركيا التي تقيم علاقات دبلوماسية مع إسرائيل . هل هذه دول إسلامية ؟! إنها في الحقيقة أبعد ما تكون عن الإسلام ، ولو حاولنا أن نستقصي المخازي التي يقوم بها حكام العرب و المسلمين لكتبنا مجلدات ، ولكن ذكرنا هنا بعض الأمثلة لعل فيها الكفاية .

ونحن نعيد تقويم حساباتنا في معركتنا مع اليهود لابد أن نعرف من هم أصدقاؤنا ومن هم أعداؤنا .

هذا عن دور الأنظمة العربية المباشر في ضرب الفلسطينيين وخذلان القضية الفلسطينية ، أما دورها في قمع الحريات في بلادها وإبعاد شعوبها عن العمل لقضايا المسلمين وقضية المسلمين الأولى في هذا العصر فحدث ولا حرج ، لقد غدا العالم

الإسلامي مذبحة كل حر يريد أن يرفع صوته لإعادة هذه الأمة إلى نهجها الحضاري الأصيل ، لقد غدا الإنسان العربي والمسلم خائفا مذعورا في بلاده ، فكيف يفكر في قضية فلسطين . أليس من الغريب أن العالم الإسلامي بأسره لم تتحرك فيه مظاهرة واحدة تأييدا للفلسطينيين وهم يسحقون على أيدي اليهود والنصارى في لبنان في مذبحة صبرا وشاتيلا ، إلا مظاهرة واحدة قامت في الجزائر . ولكن لماذا كانت هذه المظاهرة ، لقد كانت تعبيرا عن الفرحة لأن الفريق الجزائري لكرة القدم انتصر على الفريق الألماني في مسابقة كأس العالم .

إن دور هذه الأنظمة في تجهيل شعوبها بقضية فلسطين ولفت انتباهها لأغراض ثانوية إقليمية وصراعات فيما بينها ، تبدد طاقات هذه الشعوب ، إن ذلك أخطر ألف مرة على القضية الفلسطينية من أعدائها المباشرين .

إن دور هذه الأنظمة هو دور مجرم وخطير وهي تكرس الهزيمة وتقنع شعوبها حتى أن الإنسان العربي العادي - نتيجة لإعلام هذه الأنظمة العميلة - أصبح في الغالب يميل إلى الاستسلام والاعتراف باسرائيل كأمر واقع .

وقد خدعت هذه الأنظمة الإنسان العربي المسلم في البداية وصورت له إسرائيل كدولة مسخ لا تصمد بضع ساعات في وجه الجيوش العربية الباسلة ، وحين فشلت هذه الأنظمة وجيوشها الباسلة بدأت لعبة جديدة وهي إقناع الإنسان العربي بأن إسرائيل هذه وحش كاسر لا نستطيع القضاء عليه فلابد من أن نتعايش معها ، بل ذهب الكثيرون مثل السادات إلى حد أبعد من ذلك حين حاول إقناع شعبه بمسألة الإخاء العربي اليهودي وما قصة مجمع الأديان - حيث بنى السادات معبدا يهوديا وكنيسة ومسجدا متلاصقة في سيناء - ببعيدة .

إن الأنظمة التي تحكم البلاد الإسلامية في الغالب هي أنظمةعميلة بل هي الوجه الآخر للعدو الصهيوني ، وإنه لولا وجود هذه الأنظمة لما كان لإسرائيل أي تواجد ابتداء ، أو لما استطاعت البقاء في وسط هذا المحيط الإسلامي ، ولقد صدق الداعية الإسلامي الشيخ محمد الغزالي حين قال : «إذا أرادت إسرائيل أن تبني نصبا تذكاريا للذين بنوها فلتبن للزعماء العرب» ، نعم لقد تحققت كلمته هذه حين حاول الكثير من اليهود وضع صورة السادات ضمن صورة آباء الصهيونية .

ولقد تحدث القادة الصهاينة مثل جولدا مائير وموشيه ديان وغيرهم عن لقاءات كثيرة جرت بينهم وبين كثير من الزعماء العرب ، ولكن هؤلاء الزعماء كذبوا ذلك . ولعله يأتي اليوم الذي يكشف فيه التاريخ هذه اللقاءات وما كان يدور فيها لتفتضح هذه الوجوه الثورية وتنكشف خيانتها .

نحن لا ننكر أن بعض الدول العربية كانت تقدم الدعم المادي وربما بسخاء في بعض الأحيان ولكن هذا الدعم كان بموافقة الأسياد أولا ولأسباب عديدة منها :

١- إن بعض الدول كانت تؤسس لها منظمات خاصة بها تأتمر بأمرها ، وتنفذ سياستها ، فحين كانت هذه الدول تختلف مع الفصائل الأخرى في بعض المواقف السياسية كانت تستغل هذه التنظيمات لإحداث الانشقاق في منظمة التحرير الفلسطينية وافتعال الصراعات الجانبية التي تبدد جهود الفلسطينيين ، وأهم التنظيمات التي تصلح نموذجا لذلك هي منظمة الصاعقة التابعة لسوريا أثناء صراعها مع فتح ، وكذلك جبهة التحرير العربية التابعة للعراق ، ومنظمات أخرى تعتبر مستقلة إلى حد ما ولكنها مرتبطة مع دول عربية أخرى مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين والجبهة الشعبية - القيادة العامة - وجماعة (أبو موسى) ومنظمة أبو نضال (فتح المجلس الثوري) ، هذه المنظمات كانت تخدم من يدعمونها في تمزيق الشعب الفلسطيني وتبديد جهوده .

٢- كان الكثير من هذه الأموال يقدم لتستطيع هذه الدول التدخل بشكل أو بآخر في القرار الفلسطيني وحين كانت تختلف مصالح هذه الدول مع مواقف المنظمة فكثيرا ما يوقف هذا الدعم ولم تكن المنظمة وحدها هي التي تتأثر من مثل هذا القرار ، بل كثيرا ما دفع الشعب الفلسطيني ثمن الاختلافات في المواقف مع الدول العربية ، ولنضرب مثلا : انتقد بعض أعضاء المجلس التشريعي في قطاع غزة - إرضاءً لجمال عبد الناصر - مواقف المملكة العربية السعودية فقامت السعودية بطرد الألوف من الموظفين الفلسطينيين في السعودية الذين كانوا يعتبرون بمثابة مصدر الرزق الوحيد لعائلاتهم (١) .

---

(١) ومثال ذلك ما حصل من تضييق على الفلسطينيين بسبب موقف المنظمة من حرب الخليج .

٣- كان الكثير من هذه الأموال يتم دفعه خجلا من الشعوب العربية والظهور أمامها بأن دولهم تؤدي ما عليها نحو فلسطين وليس أدل على ذلك من المحادثة التي يرويها صلاح خلف في كتابه «فلسطيني بلا هوية» . حيث كان يخطب في حشد من الحضور في جامعة بيروت العربية وكان يريد أن يهاجم الدول العربية التي لا تعطي المنظمة من الدعم ما يجب عليها وتدخل لديه الكثير من السفراء العرب لمنعه من الحديث عن بلادهم مقابل إعطاء المنظمة ما تشاء .

٤- كثير من هذه الدول كانت تدفع الدعم خوفا من أن يقوم الفلسطينيون ببعض العمليات التفجيرية في هذه الدول أو بتهديد مصالحها في الخارج أو ربما بتهديد بعض المصالح الغربية كالأمريكية مثلا في هذه الدول ، ويعتبر هذا نوعا من الابتزاز المقنع .

٥- هذا لا يمنع بطبيعة الحال أن يكون بعض من يدفع مخلصا وقليل ما هم وسط هذا البحر من النفاق .

إذن لابد لكل من يتصدى لتحرير فلسطين أن يحدد طبيعة أصدقائه وأعدائه وأوضاعهم من أمامه ومن خلفه ، وينطلق على بصيرة حتى لا يكرر أخطاء الماضي .

ونخلص مما سبق إلى النتائج التالية :

١- إن لقضية فلسطين بعدها الإسلامي الكبير فلا يمكن أن يقتصر الأمر على الشعب الفلسطيني في مواجهة القوى الصليبية والصهيونية المعادية بل لابد أن يواجه المسلمون أجمعون هذا التحدي ولذلك لا غنى للفلسطينيين عن الاعتماد على إخوانهم المسلمين في كل مكان .

٢- هذا الاعتماد لا يجب أن يكون اعتمادا على فراغ بل على قوى إسلامية حقيقية تتواجد في وسط هذه الشعوب الإسلامية ويجب على الحركة الإسلامية في فلسطين أن توطد علاقتها مع هذه القوى الإسلامية .

٣- إن هذه القوى الإسلامية لن تستطيع أداء دورها كاملا في نصرة القضية الفلسطينية طالما كانت بعيدة عن السلطة ولذلك فان الواجب على هذه القوى أن تعمل للوصول

إلى السلطة وليس ضرويا أن يقوم الفلسطينيون بالتحرك في هذه الدول حتى لا يعطي مبررا لهذه الأنظمة بضرب الحركة الإسلامية فيها بل يجب أن تقوم الحركة الإسلامية في هذه الدول بدورها .

٤- هناك الكثير من أبناء الشعب العربي والمسلم بامكانه بل ويحب دعم المجاهدين في فلسطين بغض النظر عن موقف حكوماتهم من الحركة الإسلامية فيجب أن تتحرك الحركة الإسلامية بينهم للحصول على مساعداتهم كنوع من الجهاد بالمال . إن قصرت فيه الحكومات فلا يقصر فيه الأفراد . وفي الأمة الإسلامية خير كثير .

٥- إن أخذ الحركة الإسلامية للدعم من الحكومات القائمة مسألة شائكة ليس من باب الحرمة الشرعية فهذا مال المسلمين ويجب انتزاعه من أيدي هؤلاء الفسقة وإنفاقه على الجهاد بدل أن ينفقوه في المواخير ودور الخنا والقمار والبارات . ولكن من باب السياسة الشرعية حيث لابد من دراسة الأهداف التي يريدها هؤلاء من هذا الدعم وعدم الركون إليه ولابد من الاستفادة من الدروس التي وقعت فيها المنظمة في علاقاتها مع الدول العربية .

الباب السابع

المقاومة الفلسطينية

الباب السابع

المقاومة الفلسطينية

بعد هزيمة سنة ١٩٤٨ وقف الشعب الفلسطيني يضمد جراحه ويستعيد توازنه بعد الضربات الساحقة التي حلت به ، لقد استيقظ من الكابوس ليجد أن الوطن قد ضاع والأهل قد شَردوا في مخيمات الشتات يستجدون العطاء من إحسان الأمم ، والتفتوا حولهم ليروا إخوانهم العرب الذي تأملوا فيهم خيرا يخذلونهم وينسحبون أمام العصابات الصهيونية ، التي ظل الشعب الفلسطيني يصارعها ويصارع الاحتلال البريطاني مدة ثلاثين عاما ، كانت القيادة الفلسطينية تحاول التقاط أنفاسها وتحاول أن تقيم حكومة عموم فلسطين على ما تبقى من أرض فلسطين ، ليبدأ النضال من جديد ، ولكن حجم المؤامرة كان أكبر منها ، فأخذ الحاج أمين الحسيني وفرضت عليه الإقامة الجبرية في القاهرة . أما الضفة الغربية فقد استولى عليها الملك عبد الله بعد مهزلة مؤتمر أريحا التي دبرها أعوانه ، وقطاع غزة وضع تحت الإدارة المصرية ومئات الآلاف من اللاجئين توزعوا بين لبنان وسوريا والأردن والضفة الغربية وقطاع غزة والقليل منهم في باقي الدول العربية .

في السنوات الأولى بعد الهزيمة كان الشباب الفلسطيني ممزقا بين محاولة البحث عن لقمة العيش التي كانت في منتهى الصعوبة وبين تقييم واقعه والمرحلة التي وضع فيها ، والانقلابات التي كانت تحصل من حوله . كان كل زعيم يأتي يعطيه أملا جديدا بالعودة .

وكانت تطلعات الشباب الفلسطيني الفكرية إنما هي صدى لما كان موجودا في الدول العربية من حولهم ، فقد كان هناك الفكر الإسلامي ممثلا بالإخوان المسلمين الذين شاركوا في الحرب بسالة ، وعاملهم الفلسطينيون وتأثروا بأفكارهم وأخلاقهم وشجاعتهم . وكان هناك الفكر الشيوعي وقد كان سابقا على الهزيمة ، بل يعتبر الحزب الشيوعي الفلسطيني أقدم الأحزاب الشيوعية العربية ، وكانت قيادة الأحزاب الشيوعية في المنطقة العربية موجودة في فلسطين ، ولم يكن هذا غريبا ، فأول من

جلب الفكر الشيوعي إلى المنطقة هم اليهود القادمون من روسيا ، وظل الحزب الشيوعي في فلسطين يسيطر عليه اليهود حتى عام النكبة ، رغم بعض الانشقاقات التي كانت تحدث أحيانا ، وظهرت أيضا حركة القوميين العرب كتجسيد حزبي لفكرة القومية العربية .

ولكن سرعان ما تعرض الإخوان المسلمون لحملة شرسة على يد جمال عبد الناصر جعلتهم يغيبون عن الساحة ، والشيوعيون تعرضوا للقمع في البداية بالإضافة إلى طبيعة الشيوعية التي لا تجد لها انتشارا في المجتمع الإسلامي حيث تصطدم بالروح الإسلامية لدى الجماهير .

وكان لحادثة معينة أثرها في التاريخ الفلسطيني ، تلك الحادثة هي ذلك الاعتداء الذي شنته القوات اليهودية بقيادة أريل شارون على قطاع غزة سنة ١٩٥٥ وراح ضحيته أكثر من خمسين قتيلا من الجيش الفلسطيني التابع للقيادة المصرية . لقد هزت هذه الحادثة الشباب الفلسطيني وبدأ العديد منهم يفقدون الثقة بجمال عبد الناصر الذي قدم نفسه كمنقذ لفلسطين وها هو يقف عاجزا أمام عدوان اليهود ، فقامت مظاهرات عنيفة في قطاع غزة وفي أوساط الطلبة الفلسطينيين في القاهرة وبدأت تتبلور فكرة لدى الشباب الفلطسيني ، أن هؤلاء الزعماء غير صادقين في توجههم نحو فلسطين ولابد للفلسطينيين أن يقوموا بأنفسهم بتحرير فلسطين ، وبدأت تدور نقاشات مطولة بين هؤلاء الشباب ، وكان الإخوان المسلمون بعدما رأوا ما حل بهم على أيدي النظام المصري يرون أنه لابد من قيام الدولة الإسلامية في القاهرة قبل أن يعيدوا التجربة ثانية حيث اعتقلتهم الحكومة العميلة في ساحات القتال ، وكان هناك العديد من الشباب يعتقدون أن الدول العربية قادرة على تحرير فلسطين ولكنها لا تريد ذلك ، لذا لابد للفلسطينيين من تشكيل منظمات فدائية تقوم بأعمال مسلحة داخل فلسطين المحتلة وهذا سيقود إلى انتقام إسرائيل وبالتالي ستضطر الدول العربية للدخول في حرب مع إسرائيل رغم أنفها - وهذا ما أسموه سياسة التوريط الواعي - ومن هذه الحادثة سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٥٨ كانت فكرة (فتح) تختمر في ذهن بعض الشباب الفلسطيني الذين كانوا في معظمهم طلبة في القاهرة ، والكثير

منهم كان ينتمي إلى الإخوان المسلمين والقليل للشيوعيين والبقية كان انتماؤها وطنيا بدون التزام تنظيمي .

نشأت حركة فتح سنة ١٩٥٨ وتأسست رسميا سنة ١٩٥٩ وبدأت أول عمل مسلح لها في ١٩٦٥/١/١م . وكانت منطلقاتها كما يحددها أحد مؤسسيها الرئيسيين ، أبو إياد (صلاح خلف) أنها تركز على إعطاء الأولوية لتحرير فلسطين وإن من شروط عضويتها أن يترك العضو انتماءه الفكري والسياسي ويندمج في هذه الحركة التي جعلت همها تحرير فلسطين وتبنت الكفاح المسلح كوسيلة لتحرير فلسطين وبدأت أول عمل عسكري لها بعملية تدمير لمعدات تحويل نهر الأردن «نسف نفق عيلبون» وقامت ببعض العمليات المحدودة حتى سنة ١٩٦٧ وظلت حتى ذلك التاريخ منظمة مستقلة مطاردة من الأنظمة العربية حتى أن الكثيرين من أعضائها سجنوا في مصر وسوريا . وكان جمال عبد الناصر بالذات متخوفا منها ، لأن مخابراته كانت قد أوحت له بأن هؤلاء الشبان من الإخوان المسلمين . وكانت تعتمد ماليا على جيوب أعضائها ، وبعد سنة ١٩٦٧ بدأت في زيادة عملياتها كرد فعل على حالة الهزيمة التي عاشتها الأمة العربية ، وكان النظام الأردني مهزوزا نتيجة الهزيمة وقام الكثير من الشباب بالانضمام إلى فتح التي عملت لها عدة قواعد في الضفة الشرقية لنهر الأردن ، وكانت معركة الكرامة نقطة تحول في تاريخ فتح ففي ٢١ مارس ١٩٦٨ دخلت قوات مدرعة إسرائيلية إلى قرية الكرامة على الضفة الشرقية لنهر الأردن لتنتقم من الفدائيين وتلقنهم درسا وتفاجأت القوات الإسرائيلي بالمقاومة الباسلة التي أبداها الفدائيون في مواجهة قوات تفوق عددهم وإمكانياتهم بكثير وتدخلت مدفعية الجيش الأردني لتساند الفدائيين دون تنسيق مسبق مع القيادة الأردنية واستشهد في هذه المعركة ما يقرب من مائة فدائي واعترفت إسرائيل بثلاثين قتيلا وتركت العديد من دباباتها محترقة ، وتكمن أهمية هذه المعركة في أنها جاءت كنقطة صمود في بحر من الهزيمة العربية التي كانت تخيم على جو المنطقة ، فانهالت الجماهير على مكاتب فتح تريد الانضمام إليها إذ رأت فيها وسيلة للخلاص والانعتاق من الواقع العربي المهزوم وكان الكثير من هؤلاء الشباب الذي

عجزت إمكانيات فتح عن استيعابهم هم من المهاجرين الجدد الذين هاجروا الهجرة الثانية من الضفة والغربية وقطاع غزة ، وهكذا اتسعت فتح اتساعا سريعا وصار لها قواعد على طول نهر الأردن ، وكذلك كان لها قواعد في سوريا ولبنان وقام العديد من الفدائيين بعبور نهر الأردن إلى الغرب وقاموا بالكثير من عمليات التدمير والاشتباك مع الدوريات الصهيونية ، وقامت داخل الأرض المحتلة العديد من الأعمال ضد الاحتلال وهذا الأمر حدا بحركة القوميين العرب التي بدأت كحركة سياسية في أوائل الخمسينيات أن يكون لها جناح عسكري لما رأت من أهمية العمل العسكري في استقطاب الجماهير وفي هذه الأثناء كانت حركة القوميين العرب تتحول إلى الماركسية اللينينية ، لأن فكرة القومية العربية لم تكن بالفكرة ذات المحتوى العقائدي والبعد الاجتماعي والاقتصادي وأصبح اسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين هو الاسم الجديد للحركة التي ضمت عدة أجنحة من الحركة القومية ، ثم انشقت عنها الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين بقيادة نايف حواتمة ، ثم تشكلت منظمة الصاعقة التي كانت تعمل لصالح سوريا ومنظمة جبهة التحرير العربية التابعة للعراق وغيرها من المنظمات الصغيرة ، وقبل كل هذه كانت هناك في قطاع غزة بالذات وفي الضفة الغربية قوات التحرير الشعبية التي انبثقت عن جيش التحرير الفلسطيني كمليشيا شعبية ، ولكنها انتهت حين دخلت المنظمات الفلسطينية المقاتلة إلى منظمه التحرير وسيطرت عليها .

قامت قوات المقاومة الفلسطينية على اختلاف توجهاتها بأعمال جيدة من أعمال المقاومة وكانت حركة الإخوان المسلمين قد حاولت أن يكون لها فصيل مستقل ولكنها لم تستطع لرفض الدول العربية لذلك تحت تأثير جمال عبد الناصر . واشتركت بالتنسيق مع فتح وقامت بعدة عمليات جيدة وكما يقول الدكتور أحمد نوفل إنه سمع بأذنه ياسر عرفات يقول لشباب فتح أريد عمليات كعمليات المشايخ . لقد ردت عمليات المقاومة الفلسطينية الروح إلى الإنسان الفلسطيني ومن ثم إلى الإنسان العربي المحيط ، وساعدت وسائل الإعلام العربية في تضخيم أعمال المقاومة بشكل كبير وكان الهدف دون شك هو إلهاء الجماهير عن واقعها المؤلم ومحاولة

لإنسائها الهزيمة التي كان سببها الحكام العرب حتى إذا تم لهم ما أرادوا ورأوا أن كراسيهم وعروشهم قد استقرت بعد الزلزال وجدوا أنفسهم بين نارين: نار المقاومة التي بدأت تستقطب الجماهير بأعمالها الجيدة ونار إسرائيل التي بدأت تقوم بأعمال انتقامية هدفها إفهام هذه الأنظمة أنهم إذا لم يوقفوا هذا العمل الفدائي من أراضيهم فانهم سيدفعون ثمن ذلك غاليا ، من التدمير والضحايا التي كانت توقعها بهم الطائرات الإسرائيلية التي كانت تعربد في السماء العربية وليس هناك من يتصدى لها .

حينئذٍ بدأ الملك حسين يعد عدته لتصفية المقاومة في الأردن لأنه شعر بأنه إذا لم يتغد بالمقاومة فانها سوف تتعشى به .. ولم يكن من السهل التصدي للمقاومة بشكل مباشر بعد الأمجاد التي حققتها والمد الجماهيري الذي حصلت عليه ، فبدأ النظام الأردني عملا مبرمجا يقصد من ورائه تشويه صورة المقاومة ، وكان هذا الأمر سهلا بالنسبة له ، لأن عملية اختيار الفدائيين وفق أصول عقائدية تربوية أخلاقية في لحظات المد والانتشار بل كانت المقاومة تضم إلى صفوفها كل من كان مستعدا لحمل السلاح ولهذا كان من السهل على عملاء الملك الدخول إلى منظمات المقاومة والقيام بالأدوار المطلوبة منهم من الإساءة إلى سمعة المقاومة . فمثلا لنأخذ شروط العضوية لدخول فتح وهي أكثر المنظمات أخلاقية . لقد كانت تقبل في صفوفها كل مواطن فلسطيني أو عربي شريف يريد أن يعمل لتحرير فلسطين ، وكلمة شريف هذه ليس لها تعريف أيديولوجي محدد ، فكانت تعني ألا يكون ذا سوابق لا أخلاقية ، وكانت تشترط أن يترك هذا العضو على عتبة فتح كل الإيديولوجيات التي كانت تؤمن بها - وسنتحدث عن هذه النقطة بعد قليل .

يقول أبو إياد في كتابه (فلسطيني بلا هوية) إنه كان يشك في هذه الضجة الإعلامية التي كانت تقوم بها أبواق الدعاية العربية وأنه كان يتصور أنهم يرفعون المقاومة إلى السماء حتى إذا فشلت المقاومة في تحقيق أهدافها سقطت المقاومة ... فتهشمت ، ولقد شاهدت بنفسي ذلك حين خرجنا من الأرض المحتلة إلى ... لقد رأينا أن العمليات الفدائية التي كنا نراها بأعيننا ونعرف بساطة

حجمها ، كانت هذه العمليات تضخم في الخارج مئات المرات لاستهلاك عواطف المواطن العربي حتى إذا ضجت الدول العربية فيما بعد من دور المنظمة بدأت هذه الدول تنظر إلى المنظمة باحتقار شديد .

بعد أن هيأ الملك حسين الجو في الأردن وشحن ضباط الجيش الأردني وجنوده ضد الفدائيين بطريقة منظمة ومدروسة بدأ حربه الشعواء ضد المقاومة التي فوجئت إلى حدٍ كبير بحجم قوة الملك حسين ، أو على الأقل فوجئت بقوته واستعداده لقصف عاصمته عمان بوحشية في أيلول سنة ١٩٧٠ ، حتى راح ضحية هذه الاشتباكات ما يزيد على العشرين ألفا من الفدائيين والمدنيين الفلسطينيين والأردنيين وتدخل الكثير من القادة العرب لإنقاذ المقاومة في الظاهر ، ولكن المسألة لم تكن أكثر من استهلاك للوقت حتى يكمل الملك حسين الانقضاض على المقاومة .

لقد كانت القوات العراقية موجودة في الأردن في ذلك الوقت بحجة دعم الجبهه الشرقية ، ولم تحرك ساكنا لنجدة المقاومة وكذلك القوات السورية المرابطة على الحدود السورية الأردنية لم تستطع التدخل لنجدة الفدائيين خوفا من التحرك الأمريكي الإسرائيلي في المنطقة لصالح الملك حسين .

وقام جمال عبد الناصر قبل أن يموت بعقد مؤتمر القمة العربي بحجة إنقاذ المقاومة في الوقت الذي كانت فيه المقاومة قد انتهت في عمان ولجأت إلى أحراش عجلون في الشمال . وكل من يعرف طبيعة العلاقات بين جمال عبد الناصر والملك حسين يعرف أن الملك لم يكن ليقدم على هذا العمل دون موافقة عبد الناصر ، أو على الأقل كان يعرف أن عبد الناصر لن يتدخل لنجدة المقاومة ، ولو كان يعرف أن عبد الناصر سيتدخل لنجدة المقاومة لما تجرأ على سحقها ، فقد كان تأثير عبد الناصر على الزعماء العرب طاغيا ، وكانت كلمة منه كافية أن ترد الملك حسين إلى صوابه ، ولكن عبد الناصر كان لا يزال غاضبا على المقاومة التي انتقدته عندما قبل مبادرة روجرز وزير الخارجية الأمريكي في ١٩٦٩/٢/٩ وحين أخرج الفدائيون من شمال الأردن لجأ العشرات منهم عبر النهر إلى الغرب وسلموا أنفسهم إلى السلطات الإسرائيلية هربا من نيران أبناء العروبة .

وهدأت الحدود وعاد سكان مستوطنات غور الأردن إلى تعميرها بعد أن ظلت مهجورة ثلاث سنوات ، وانقطع الدعم المالي والسلاح عن الفدائيين في الداخل وتوقف العمل الفدائي في الأرض المحتلة إلى حد بعيد إلى أن استشهد واعتقل كل من بقي من الفدائيين الذين كانوا يعتمدون على أهليهم المعدمين للحصول على القوت .

وهكذا انتقل الفدائيون إلى سوريا ولبنان حيث كان العمل عبر الحدود السورية معقدا ومرتبطا بموافقة المخابرات السورية أما في لبنان فاستطاع الفدائيون تكوين قاعدة جيدة لهم في مخيمات اللاجئين في جنوب لبنان أطلق عليها اسم (فتح لاند) وهنا بدأ اليهود بضرب لبنان بالطائرات لكي يجبروا الحكومة اللبنانية على القيام بنفس الدور الذي قام به الملك حسين في الأردن ووقعت اشتباكات كثيرة بين الفدائيين وبين الجيش اللبناني ، وظلت الممارسات بين أخذ وعطاء حتى تم توقيع اتفاقية القاهرة التي حددت طبيعة العلاقة بين الفدائيين والدولة اللبنانية والحدود المسموح للفدائيين التحرك من خلالها .

استطاع الفدائيون تهديد المستعمرات الإسرائيلية في شمال فلسطين المحتلة وهنا قامت إسرائيل باثارة الحرب الطائفية في لبنان حيث قامت قوات الكتائب الصليبية بأعمال بشعة ، ووصل الحال في لبنان إلى أن أصبح الإنسان يقتل على الهوية لمجرد أنه فلسطيني أو مسلم لأن الفلسطينيين في ذلك الوقت كانو يشكلون التواجد المسلح للمسلمين السنة في لبنان ، واستمرت الحرب الأهلية في لبنان حتى يومنا هذا (١) ، تهدأ من جانب لتشتعل في جانب آخر وتم خرق مئات الاتفاقات لوقف إطلاق النار ولا يزال الدم الفلسطيني نازفا في لبنان إلى الآن عبر عشرات المذابح وتحت سمع وبصر كل العالم .

وبعد اتفاقيات كامب ديفيد كان واضحا أن إسرائيل لا تستطيع أن تعقد أي اتفاقية جديدة مع سوريا أو الأردن إلا بعد القضاء على المقاومة الفلسطينية في لبنان والتي كانت ترفع الهوية الوطنية الفلسطينية ولم يكن الملك حسين يستطيع أن يعقد

---

(١) كتب هذا الجزء في سنة ١٩٨٧ .

أي صلح والمقاومة لها تواجد قوي في لبنان تستطيع أن تهدد حكومته ، فكان لابد من القضاء على هذا التواجد ، وقد حاولت إسرائيل طويلا أن يتم هذا القضاء على أيدي عملائها الصليبيين من حزب الكتائب اللبناني وحراس الأرزة الذين ظهروا على حقيقتهم هذه المرة ..

رأينا قبل ذلك كيف أن الفكرة القومية العربية نبتت في لبنان عند هؤلاء النصارى وكيف تذبح الآن على أيديهم بعد أن أدت غرضها في إبعاد المسلمين عن دينهم .

كان شعار الكتائب دائما هو طرد الغرباء من لبنان «أليسوا إخوانكم في العروبة كما تدعون ؟! أم أنها الروح الصليبية بوجهها السافر ؟! . ولكن قوات الكتائب برغم ما أخذت من دعم من أمريكا وفرنسا وما تلقت من عون مادي واستراتيجي من إسرائيل لم تستطع القضاء على المقاومة ، حيث تعاون معها الشعب المسلم في لبنان ، لذلك اضطرت إسرائيل لاجتياح لبنان لتقضي بنفسها على التواجد الفلسطيني في لبنان . وعندما اجتاحت إسرائيل جنوب لبنان كانت المقاومة الفلسطينية محاصرة من الدول العربية بالإضافة إلى أن تحالفاتها في لبنان كانت هشة . فمثلا يقول صلاح خلف في لقاء له مع مجلة المصور المصرية عندما سأله المحرر ما السبب في انسحابكم السريع من الجنوب في الوقت الذي صمدتم في بيروت صمودا اسطوريا ؟ فيجيب : «قبل الاجتياح كان عندنا علم مسبق به وطلبنا من وليد جنبلاط أن ترابط قوات لنا في الجبل فقال بأن الدروز يحمون الجبل ، ولكن على أرض الواقع حصل غير ذلك ، فقد دخلت القوات الإسرائيلية من الجبل دون مقاومة ، ولم يتعرض لها الدروز وحاولت تطويقنا في الساحل فلم نجد بدا من الانسحاب» ، أما المناطق المسيحية التابع للكتائب فقد كانت الثارات القديمة بين الكتاب والمسلمين (بمن فيهم المقاومة الفلسطينية) تجعل الكتائب ينتظرون بفارغ الصبر اللحظة المناسبة للانقضاض على المقاومة ، كيف لا وهم الذين تعاونوا قبل ذلك مع اليهود لسحق المقاومة فلما لم يستطيعوا ، اتفقوا مع اليهود على دخول لبنان وتولوا هذه المهمة بأنفسهم . ثم يصفو الجو للكتائب فقاموا بعد ذلك بمذبحة صبرا وشاتيلا التي راح ضحيتها عدة آلاف من

الفلسطينيين من أطفال ونساء ورجال وشيوخ تحت بصر القوات اليهودية وحمايتها ، وبذلك اجتمع الحقد الصليبي واليهودي ليبرزا على حقيقتهما رغم كل محاولات التمويه والتعمية .

وكذلك انسحبت القوات السورية والتي كانت مرابطة على أجزاء كبيرة من لبنان ، انسحبت انسحابا مخزيا في وجه اليهود وأوقف الرئيس السوري إطلاق النار مع اليهود بعد ثلاثة أيام فقط من الحرب تاركا المقاومة لمصيرها .

صمدت المقاومة وصمد المسلمون معها في بيروت صمودا رائعا ما يقرب من ثلاثة أشهر ، ولم يقف معها أحد من زعماء المسلمين التقليديين في بيروت والذين طلبوا من المقاومة تخلية بيروت حتى لا تتعرض المدينة إلى الفناء، بعد أن جرب فيها اليهود آخر ما توصلت إليه التكنولوجيا الأمريكية من قوى التدمير من القنابل العنقودية إلى القنابل الفراغية وقصفوها بالدبابات والطائرت ومن البحر فاضطرت المقاومة الفلسطينية أمام هذا إلى الانسحاب بعد أن سعى فيليب حبيب المبعوث الأمريكي بين دمشق والرياض وتل أبيب حتى تم الاتفاق على الخروج من بيروت وكانت الدول العربية بعملها هذا تعتبر أنها أنقذت المقاومة الفلسطينية وكل هذا جرى بدلا من أن تمد هذه الدول يدها لنجدة المقاومة .

انتقلت قوى المقاومة تاركة بيروت لتتوزع هذه القوات على الدول العربية في الجزائر وتونس واليمن مكررة نفس المأساة التي تعرض لها الإخوان المسلمون عقب معركة سنة ١٩٤٨ حين ذهبت بهم الحكومة المصرية إلى معتقلات سيناء .

وحينها لام الرئيس القذافي المقاومة لِمَ خرجت من بيروت ، طالبا منها أن تقاتل حتى الموت في بيروت فأجابه صلاح خلف : لو كانت أسلحتك التي وعدت بها قبل سنوات قد وصلتنا ربما كنا قد صمدنا أكثر (مذكرا إياه بأنه يقف مع الفلسطينيين بالكلام فقط) .

وبعد الانسحاب من بيروت حصل الانشقاق في حركة فتح بزعامة أبو موسى (إسحق مراغة) وأبو صالح (نمر صالح) وكان الانشقاق بطابع يساري بتأييد ومباركة سوريا ، وللانشقاق قصة طويلة لا مجال لذكرها هنا المهم أنه كشف زيف فكرة دمج

كل الإيديولوجيات داخل إطار فتح وكان مثل من فعل هذا كمثل من وضع مجموعة من الثعابين تحت قميصه في فصل الشتاء فلما جاء الدفء تحركت هذه الثعابين ولدغته في صدره ... فتعرضت فتح لحملة شرسة من فئات الانشقاق ومن قوات الصاعقة والجبهة الشعبية القيادة العامة (أحمد جبريل) وجيش التحرير الفلسطيني التابع لسوريا وحتى الجيش السوري نفسه .

هذه الحملة أدت إلى طرد حركة فتح من لبنان وأدت إلى تدمير مخيمي نهر البارد والبداوي حول طرابلس ، ثم لاحقت هذه الحملة الحركة إلى داخل مدينة طرابلس حيث التحمت حركة فتح مع الحركة الإسلامية في المدينة صمدت مع الإسلاميين إلى أن انسحبت من لبنان للمرة الثانية عن طريق طرابلس في هذه المرة إلى اليونان ثم إلى المناطق العربية ، وحين سئل ياسر عرفات لماذا إلى اليونان ؟ فأجاب ساخرا : لأنها الدولة العربية الوحيدة التي قبلت استقبالنا .

ثم رجعت بعض قوات المقاومة الفلسطينية إلى لبنان لمحاولة البقاء في الصورة السياسية ، فتصدت لها هذه المرة حركة أمل الشيعية بمساندة سوريا أيضا لحصار المخيمات وإبادة الفلسطينيين .

كذلك أقامت إسرائيل شريطا حدوديا في جنوب لبنان سمته بالحزام الأمني أقامت فيه مليشيا مسيحية وشيعية موالية لها لحماية حدود إسرائيل الشمالية وبذلك اكتمل طوق الحماية حول إسرائيل .

هذا هو استعراض سريع لتاريخ المقاومة الفلسطينية ولو أردنا تقويم مسيرة المقاومة الفلسطينية الحديثة لوجدنا التالي :

١- تعتبر حركة المقاومة الفلسطينية الحديثة امتدادا طبيعيا للحركة الوطنية الفلسطينية قبل عام ١٩٤٨م إلا أنها أصبحت أكثر بعدا عن الإسلام لموجة البعد عن الدين التي اجتاحت المنطقة العربية والتي أظهرت الفكرة القومية بوجهها القبيح ..

فمثلا حركة التحرير الوطني (فتح) والتي تعتبر أكبر التنظيمات الفلسطينية تخلت عن الفكرة الإسلامية لصالح الفكر القومي العلماني وذلك لأنها وضعت الوطنية الفلسطينية في الدرجة الأولى قبل أي انتماء فكري أو أيديولوجي ، ولذلك ضمت إلى

صفوفها أي إنسان شريف يريد أن يعمل من أجل فلسطين سواء كان ذلك الإنسان مسلما أو شيوعيا أو مسيحيا أو أي شيء ، ووضعت حركة فتح شرطا لقبول العضو في داخلها وهو أن يترك انتماءه السياسي والفكري السابق قبل الدخول في فتح . وكان حرص فتح على تجميع أكبر عدد من الناس هو أحد الأسباب التي جعلت حركة فتح تتخلى عن الطرح الإسلامي وسبب آخر أنها كانت تحس بمعاداة الدول العربية للحركة الإسلامية بعدما رأت ما حل بالحركة الإسلامية على يد الملك فاروق في مصر سنة ١٩٤٨ وعلى يد جمال عبد الناصر سنة ١٩٥٤ فتصورت أن الطريق إلى فلسطين عبر الإسلام سيكون طويلا طويلا .

إذن فقد تخلت فتح عن الطرح الإسلامي حتى لا تصطدم مع الدول العربية ولكن هل حققت فتح ما تريده ؟ الواقع يقول لا فقد ضربت حركة فتح كما ضربت الحركة الإسلامية والفارق المهم أن الحركة الإسلامية مهما تعرضت للأذى والاضطهاد لا تستطيع التخلي عن مبادئها وأهدافها أما حركة فتح التي تتبنى اللاأيديولوجية فانها تحت كل ضغط كانت تتنازل عن ثوابتها السابقة وتتخذ لها ثوابت جديدة حتى أن ما كان خيانة في وقت سابق أصبح مطلبا وطنيا الآن في غياب التصور الإسلامي الصحيح .

هذا عن حركة فتح أما باقي المنظمات الفلسطينية فقد تبنت الفكر الماركسي اللينيني بشكل أو بآخر وأصبحت المنظمات الفلسطينية أبواق الشيوعية في المنطقة تخدم أغراض الشيوعية أكثر مما تخدم القضية الفلسطينية ، بل إنها استغلت القضية الفلسطينية كمعبر لتمرير الماركسية إلى المنطقة العربية .

وكذلك المنظمات التابعة لبعض الدول العربية فقد حملت نفس الأفكار البعيدة عن الإسلام التي تنتمي إليها الجهات التابعة لها .

إن المقاومة الفسطينية بتبنيها هذا الخط البعيد عن الله فقدت العنصر الأساسي للنجاح في المعركة ألا وهو تأييد الله عز وجل «يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» ، «إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده» .

وفي الحقيقة فاننا نجد أن هناك في حركة فتح بعض الشباب المتدينين ولكنهم لا يشكلون القاعدة العريضة منجهة ومن جهة أخرى ليس في برنامج الحركة الدعوة إلى الإسلام أو تطبيقه على أفرادها ، بل هي تترك الأمر لاختيارهم فضلا عن منع الدعوة إلى الإسلام كدين ودولة في داخل إطار الحركة .

٢- لقد بدأت المقاومة الفلسطينية عملها بآمال كبيرة وهي تحرير كامل التراب الفلسطيني ولكن نتيجة للصعاب التي اعترضت الحركة الفلسطينية ولمواقف الدول العربية من القضية الفلسطينية صار الهدف بعيدا بعيدا . وبدلا من أن تتقدم المقاومة باستمرار إلى الأمام وجدناها أمام ضغط الأمر الواقع تتراجع في أهدافها شيئا فشيئا فتبدأ كما أسلفنا بتحرير كامل التراب الفلسطيني ثم طالبت باقامة دولة علمانية يقوم فيها المسلمون والمسيحيون واليهود بممارسة شعائرهم الدينية دون أن يكون للدولة تدخل في ذلك . ولكن هذا الهدف - كما يقول صلاح خلف - أصبح بمثابة الحلم بالنسبة لحركة فتح ونسب هذه اللفظة (حلم) إلى ياسر عرفات ، ثم بعد ذلك صارت المطالبة بدولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ثم بعد ذلك تبنى المجلس الوطني فكرة إقامة دولة فلسطينية على أي شبر يتم تحريره من أرض فلسطين والاستعداد للاعتراف المتبادل مع إسرائيل بعد سنة ١٩٨٢ ، ثم جاءت فكرة الاتحاد الكونفدرالي مع الأردن في وضع كانت فيه المنظمة في وضع ضعيف وأخيرا وصلت المقاومة إلى المطالبة بالمؤتمر الدولي تحت إشراف الدول الأعضاء الدائمة العضوية في مجلس الأمن ، حيث تطالب المنظمة بالمفاوضات تحت مظلة دولية (١) ، وهذا يدلنا على أن الطريق الذي بدا أنه أقصر من الطريق الإسلامي الذي يصطدم مع الأنظمة هذا الطريق ليس قصيرا وليس موصلا بأي حال من الأحوال إلا إلى العدم .

٣- كان أحد الأهداف الرئيسية للمقاومة هو التأثير في الشارع العربي من خلال تصعيد العمل الفدائي ضد إسرائيل ، وقد حققت المقاومة بعض التقدم في هذا الجانب

---

(١) كتب هذا الجزء في عام ١٩٨٧ قبل التطورات السياسية الأخيرة التي تصب في نفس تيار التراجع والتي تحتاج إلى دراسة مستقلة .

وأخذت تعاطفا جيدا في بداية الانطلاق وبالذات حين كانت الأنظمة العربية مهزوزة في أعقاب هزيمة سنة ١٩٦٧ ولكن هذه الأنظمة عادت فاستردت أنفاسها وسحبت البساط من تحت المنظمة وبدأت حملة بشعة أبعدت فيها الجماهير عن المقاومة الفلسطينية إما بالتشويه للمقاومة من جانب أو بالقهر من جانب آخر ، ونتيجة لسياسة عدم التدخل في شئون الدول العربية الداخلية التي انتهجتها المنظمة لنفسها لم تجد المنظمة لها مكانا في الشعوب العربية .

وهكذا ظل الإنسان العربي فريسة لهذه الأنظمة وظل ينظر بلا مبالاة لما يحصل للفلسطينيين من قتل وتشريد حتى ولو اهتم فانه لن يستطيع التعبير عن رأيه بأي شكل نتيجة للقهر والإرهاب الذي تمارسه الحكومات عليهم ويستثنى في هذه الناحية لبنان حيث كان هناك نوع ارتباط بالجماهير المسلمة في لبنان ولكن الطائفية والتدخل السوري قللت من أهمية هذا الإنجاز .

** وهكذا لم تستطع المقاومة حشد كل الطاقات العربية في المعركة فوقعت في نفس الخطأ الذي وقعت فيه الحركة الوطنية الفلسطينية قبل عام ١٩٤٨ ، ونحن نقدر أنها لم تعجز في ذلك بمحض اختيارها وأن الظروف كانت أكبر منها ، ولكنها لم تعط هذا الجانب حقه من الاهتمام والمثابرة . كذلك فان العمل برابطة العروبة التي حاولت المقاومة أن تربط بها الجماهير العربية بالقضية الفلسطينية كان السبب المباشر في هذا العجز لأن مسألة العروبة والقومية العربية عجزت عن أن تجمع الجماهير العربية حولها لقصورها هي ، وكان الأجدر بالمقاومة أن تتبنى الرابطة الإسلامية الأكثر تأثيرا وارتباطا في وجدان الشعب المسلم . وكان لطغيان النعرة الإقليمية في المنطقة العربية أثره في الحد من تأثيرالمقاومة في الأوساط العربية .

٤- كان لاعتماد المقاومة الاضطراري على أموال الدول العربية دور رئيسي في التأثير على قرارات المنظمة وسياستها سوءا كان هذا التأثير من الدول النفطية أو الدول التي تؤيد المنظمات الماركسية كاليمن الجنوبي (١) وليبيا والعراق ودول أوربية ، وكذلك

---

(١) كتب هذا الجزء كما أسلفنا في عام ١٩٨٧ .

أدى اعتماد المنظمة المتزايد على الاتحاد السوفيتي إلى تبني مواقف ليست في صالح الشعب الفلسطيني المسلم كموقف المنظمة من أفغانستان حيث وقفت المنظمة مع الاتحاد السوفيتي ضد الشعب المسلم في أفغانستان وكان لتأثير المنظمات الماركسية في المنظمة الدور الكبير في ذلك . وهذا الأمر جعل المنظمة تقع تحت رحمة هذه الأنظمة الممولة من جانب وجعلها تؤثر في مصيرها مهما ادعت استقلالية القرار الفلسطيني وجعلها ولاؤها للاتحاد السوفيتي تخسر الكثير من التأييد الإسلامي .

٥- لقد حصلت المقاومة الفلسطينية على دعم سياسي في أنحاء العالم وبالذات في دول العالم الثالث وأوصلت القضية إلى مسامع العالم وذلك في حد ذاته إنجاز جيد . ولكن كل هذا لا يكفي ولا يجدي إذا كان الوضع الذاتي لنا ضعيفا .. إن الحصول على الدعم الدولي أمر مهم من الجانب السياسي ولكن الأهم منه ألف مرة هو قوتنا الذاتية فالعالم يمكن أن يتعاطف معنا ولكنه لن يحارب معركتنا ، إن العالم يعطف على الضعيف ولكنه يحترم القوي .

وكذلك فان هذا الدعم الذي حصلت عليه المقاومة ليس بسبب قوتها ونشاطها فهو ينقسم إلى قسمين دعم الدول النامية التي لا تملك أمر نفسها ودعمها لن ينفع شيئا ، أما دعم الدول الأوربية فلم تحصل عليه المقاومة بسبب نشاطها ضد إسرائيل ولكن بسب اقتراب المنظمة وتليين موقفها بحيث تقترب من مواقف هذه الدول .

٦- لقد كررت المقاومة قدرتها على تجنيد كل طاقات الشعب الفلسطيني فالأقلية في الشعب الفلسطيني هي الإيجابية والمؤثرة في المقاومة الفلسطينية بينما رأينا قبل ١٩٤٨م أن اليهود بأجمعهم كانوا تقريبا متحركين وفاعلين في دعم الصهيونية ولا يزالون فنجد كذلك أن كل يهودي في دولة إسرائيل مجند في الجيش الإسرائيلي بشكل أو بآخر وهذا يتطلب منا دون شك عملية تعبئة طويلة وعميقة للجماهير في محاولة لدفعها كلها في سبيل حمل قضيتها وبث روح التضحية والوعي فيها ، ووقعت المنظمة في فخ الضجيج الإعلامي فكان هناك تضخيم إعلامي للأعمال التي تقوم بها حتى باتت الجماهير لا تصدقها في النهاية والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى .

٧- وأخيرا لقد قامت المقاومة بأعمال جيدة ولكنها للأسباب السابقة المتعلقة

بطبيعتها وللظروف العربية المحيطة بها وللأوضاع العالمية الأكبر منها وجدناها بعيدة عن تحقيق أهدافها ولعله من المفيد أن نقتطف هذه المقتطفات من كتاب (فلسطيني بلا هوية) لصلاح خلف (أبو إياد) وهو من المركزيين في حركة فتح والمقاومة الفلسطينية بشكل عام يقول في خاتمة كتابه :

«دقت ساعة تقديم كشف الحساب . إذ قد مضت ثلاثون سنة على خروج الشعب الفلسطيني ، وعشرون سنة على تأسيس فتح . ولابد لي من الاعتراف ، وبعميق المرارة بأن وضعنا اليوم هو أسوأ من الوضع الذي دفعنا عام ١٩٥٨ إلى إنشاء حركتنا . بل إني أخشى حقا أن يكون لابد من عود على بدء .

وبالطبع فانني لا أنكر النجاحات المسجلة . فأنا فخور بشعبي بالتضحيات التي بذلها على ساحة المعركة ليحقق انتصارات في ساحة المعركة ضد عدو لم تعد قوته الساحقة بحاجة إلى برهان . وأنا أعتز بالمنزلة التي تحتلها منظمة التحرير الفلسطينية على المسرح الدولي . فقد اعترفت بها غالبية الدول كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني وانتزعت مقعد مراقب في منظمة الأمم المتحدة . فاذا عدينا عن هذا ، قلنا إن قدر شعبنا لا يزال بعد عشرين سنة من الكفاح المضني والدائب لا يزال قدرا موجعا . فهو لا يزال بلا وطن ولا هوية . بل الحق هو أننا عدنا القهقرى . فاسرائيل لم تعد تحتل نصف الأراضي الفلسطينية ، بل كلها وجميعها . والولايات المتحدة ضامنة المشروع الصهيوني ، وسعت نفوذها في العالم العربي وعززته . ومصر أكبر البلدان العربية وأعظمها نفوذا انهارت بالكامل في كامب ديفيد .

ثم إن الحركة الفلسطينية لم تعد تملك الوسائل التي كانت تحوزها عام ١٩٦٧ . فالهزيمة العربية لم تكن تمنعنا حينذاك من مواصلة وتكثيف الحرب الفدائية مفهمين الصهاينة بأن المعركة لم تنته برغم انتصارهم الباهر ، رافعين بالتالي معنويات الجماهير العربية مطلقين بصيص نور في ظلمات الهزيمة والاحتلال . كانت لدينا ملاذاتنا التي نستطيع الانطلاق منها لشن غاراتنا ضد إسرائيل .

. والمهابة التي كنا نتمتع بها

كانت تتيح لنا أن نمارس تأثيرا حاسما في بعض الأحيان على سياسة مختلف

العواصم فالأنظمة العربية لم تكن تحبنا بالأمس بأكثر مما تحبنا اليوم ، إلا أنها كانت تخشانا يومها على الأقل ، وتأخذ آراءنا بعين الاعتبارت . وأستطيع أن أقول بكل تواضع بأننا أسهمنا في الإعداد النفسي لحرب تشرين الأول - أكتوبر ١٩٧٣ واندلاعها ، كما لم نكن غرباء عن نزاع حزيران - يونيه ١٩٦٧ .

وقد عرفت فتح برغم التقلبات والعوائق الموضوعة في طريقها ، أن تحافظ على استقلالها الذاتي وأن تتلافى الخطأ الرئيسي الذي ارتكبه من سبقونا على رأس الحركة الفلسطينية . وبهذا نكون قد سجلنا انتصارا بالنظر إلى تبعيتنا المالية واللوجستيكية إزاء البلدان العربية . ثم إننا حرصنا على توزيع مواردنا مستفيدين من التناقضات السياسية الملازمة لوضع المنطقة ، فاننا توصلنا في بعض الأحيان إلى ممارسة إرادتنا بحرية .

غير أنه إذا كان من الصحيح أننا تلافينا الكثير من الأخطاء التي ارتكبها من سبقونا ، فان أخطاءنا نحن ، وإن كانت أقل جسامة ، قد ألحق بنا أحيانا أضرارا لا سبيل لإصلاحها . فقد عقدنا تحالفات مع أنظمة عربية واعتبرناها تحالفات استراتيجية ، لنكتشف بعد ذلك ، وبعد أن ندفع الثمن ، بأنها ليست سوق تحالفات عارضة جدا . فكان أن جرعنا ذلك خيبات أمل شديدة وفشلا غير متوقع . فقد حسبنا مثلا ، أن مصر ستظل إلى جانبنا إلى الأبد ! .

ويضاف إلى هذا التقدير الخاطىء لحقائق العالم العربي حسابات خاطئة . فغالبا ما كنا نعتقد إزاء ظروف النزاع في بلد عربي ما ، أن من الخير لنا أن نحافظ على علاقاتنا مع النظام القائم على حساب علاقاتنا بالجماهير الرافضة له ، مزدرين بذلك المبدأ الذي كان ينبغي له أن يقود خطانا ، عنيت المبدأ القائل أن المصدر الحقيقي لقوتنا إنما يكمن في التعاطفات الشعبية التي تثيرها بأكثر مما يكمن في الدعم الذي تولينا إياه الحكومات على مضض . صحيح أننا أقمنا أحيانا علاقات سرية متكتمة موازية مع حركات المعارضة ، إلا أنها لم تكن تتناهى إلى علم الرأي العام ، فكان يخرج بانطباع مفاده أننا نطبق سياسة انتهازية .

بل لنقل بصراحة ، إن دخول فتح عام ١٩٦٨ إلى منظمة التحرير الفلسطينية قد أفسد عليها طابعها الثوري . إذ أن أكثر ما كنا نخشاه حينذاك وما كان يثير تحفظاتنا قد حدث : فحركتنا غلبت عليها البيروقراطية . وخسرت من النضالية ما ربحته في «الاحترام» : فقد بتنا نتذوق التفاوض مع الحكومات ورجال السلطة وتأخذ آراءهم وتمنياتهم بعين الاعتبار . ثم إننا أخلينا بين أنفسنا وبين الانزلاق في تعرجات العلاقات العربية مشتغلين ، طائعين أو كارهين ، بالسياسة ، بالمعنى السيء للكلمة . ولخشيتنا من أن يتهمنا الدبلوماسيون المحترفون ، الحسنو النوايا إلى هذا الحد أو ذاك «بالإرهابية» و«التطرف» و«المغامرة» فاننا كنا نسرع لنثبت بأي ثمن كان ، «اعتدالنا» و«مرونتنا» و«روحية التوفيق والمصالحة» لدينا ، ناسين أن ذلك لا يحتل من حيث المبدأ ، مرتبة الأولوية في دعوتنا ورسالتنا .

ومذ ذاك بات الراؤون ينظرون إلينا كسياسيين بأكثر ما ينظرون إلينا كثوريين . وبطبيعة الحال فان هذه الطفرة التي حلت بصورتنا قد أضرت بنا في وسط الجماهير العربية التي كانت تنتظر منا شيئا آخر . إلا أنها لم تعوضنا بتعاطفات لها شأنها بين الأوروبيين والأميركيين . ويقينا أننا بخلاف أعدائنا الصهاينة ، لم نكن نملك لا الوسائل ولا التجارب الضرورية في حقل العلاقات العامة . غير أن السبب الرئيسي لفشلنا إنما يكمن في جهلنا للمجتمع الغربي ولتعقيد الآليات الديمقراطية التي تحكمه . فنحن لا نحسن في غالب الأحيان التمييز - وخاصة بالنسبة للولايات المتحدة - بين السياسة الامبريالية التي تمارسها حكومة من الحكومات وبين البواعث الشريفة في ذاتها ، والتي تصوغ وتقولب موقف الشعب إزاءنا . إن أمثال هذا الخلط والتشوش هو ما يفضي بنا إلى اتخاذ مبادرات من شأنها أن تزيد من نفور الرأي العام الغربي منا ، أو إلى اللواذ بسلبية اليأس .

كما أننا من الجهة الأخرى لم نعرف كيف نوحد الحركة الفلسطينية أو على الأقل ، أن نحد من تجزئها بأقصى ما يمكن . وبطبيعة الحال فان هنا أسبابا موضوعية تمنعنا من تحقيق هدفنا هذا . لقد تصورنا فتح لدى تأسيسها كجبهة تهدف إلى تجميع الفلسطينيين بدون تمييز لأيديولوجياتهم أو لنزعاتهم السياسية . ولم يكن في

وسعنا إكراه قادة أصيلين كجورج حبش أو نايف حواتمة على للانضمام إلى صفوفنا أو منعهم من إنشاء منظماتهم - اللهم إلا أن نعمد إلى استخدام القوة ، الأمر الذي لا يمكن أن يرد في تصورنا . غير أنه كان في مقدورنا تماما أن نعارض معارضة حازمة وجود فصائل تختلقها الأنظمة العربية اختلاقا لتستخدمها كأدوات سياسية أو عسكرية . وإذا كان يستحيل اليوم - نظرا إلى ميزان القوى الحالي ، إن نتطلب استبعاد هذه الفصائل من منظمة التحرير الفلسطينية أو حلها بالكامل . إلا أنه كان في وسعنا إظهار معارضة حازمة لدى إنشائها بعيد هزيمة حزيران - يونيه ١٩٦٧ أي في الفترة التي كانت الأنظمة العربية فيها مهزومة وضعيفة ويصعب عليها مقاومة إرادتنا .

ثم إن هذه المنظمات - الدمى لم تضعف المقاومة الفلسطينية بتقليص تماسكها وإضعاف فعالية عملها ، وحسب ، بل إنها لعبت في بعض الأحيان دورا سلبيا وحاسما . فقد أفلحت ، بالمزايدات التي كانت تمارسها ، والاستفزازات التي كانت تقوم بها ، والدعم الأجنبي الذي كانت تفيد منه ، في اقتيادنا إلى مغامرات كان بوسعنا تلافيها . وتلك ظاهرة لها أكثر من مثيل . ويكفي أن نتناول مثالا قريب التناول ، من حقل العلاقات الدولية حتى نجد أنه لا يندر أن يتوصل بلد صغير لا شأن له ، إلى أن يفرض على قوة عظمى حليفة له سياسة مضرة بها .

صحيح أننا تمكنا في أكثر من مرة ، مقاومة الضغوط التي كنا نتعرض لها . فبعيد دخول قوة الردع العربية إلى لبنان في خريف عام ١٩٧٦ مثلا ، حاولت منظمة الصاعقة السورية الولاء ، أن تقنعنا بتصفية فصائل الرفض التي كان بعضها مرتبطا بالنظام العراقي . وكان قوام الاقتراح أن تتولى عملية التصفية فتح أو الصاعقة أو أن تتولى المنظمتان معا القيام بهذه العملية مشتركتين . فرفضنا الصيغ الثلاث المقترحة جميعها ، ليس لأننا لا نزال متعلقين بالحوار الديمقراطي بين المنظمات الفلسطينية وحسب ، بل لأننا لا نريد أن نتورط في عمليات تسوية الحسابات بين الأنظمة العربية المتنافسة .

تم إننا نحن العرب سريعون عموما في الصياح باتهام الامبريالية كلما انفجرت معركة هامشية تنعطف بنا عن هدفنا الرئيسي ، هدف محاربة الصهاينة ، أو بصورة أكثر عمومية عن محاربة الاستعمار . إلا أن هذا لا يمنعنا مطلقا لسوء الحظ ، عن الانزلاق بكثير من الخفة إلى المعركة التي ننتدد بالضبط بطابعها المضر . وهكذا مثلا ، فقد تواجه السوريون والفلسطينيون مثلا بالسلاح في لبنان طيلة أشهر ، أملا رضى وارتياح الأمريكيين والإسرائيليين العظيم .

غير أن شططنا وعوراتنا وأخطاءنا لا تكفي لتفسير الموقف الدقيق الذي تجد المقاومة نفسها فيه . ولابد أن يقال إبراء لنا أننا اضطلعنا بمهمة لا سابق لها في صعوباتها في التاريخ . فنحن نقود حركة لا يمكن لها أن تتمتع ، بحكم الأشياء ، بقواعد متماسكة . فالشعب الذي نسعى لتعبئته وقيادته هو شعب مبعثر جغرافيا متغاير نفسانيا ، ومتنافر سياسيا . فالفلسطينيون يعيشون في ظل أنظمة سياسية واجتماعية مختلفة وأحيانا متناقضة ، وتؤثر بالضرورة على تصوراتهم : وهم يخضعون للنزاعات التي تقوم بها الدولة والمقاومة بحيث أنه ليس لهم في هذه الحالة سوى خيار واحد هو خيار الانضواء طواعية أو كرها تحت الأطروحات الرسمية أو اللواذ بحياد ظاهر ليفلتوا من ردود الفعل الانتقامية المحتملة .

ونحن مجبرون من جهتنا على مهادنة الحكومات العربية لنعفي مواطنينا من هذه المخاطر ، ومضطرون لإغماض أعيننا عن السلوك غير الودي الذي كنا لولا هذه الناحية سننهض ضده . وهذا الأمر يحد بصورة ما من حريتنا في الحركة . وعلى هذا فانه لا ينبغي الاندهاش من حجم ومدى المواقف الظاهرة التناقض التي نتبناها وفقا لهوية من نتفاوض معه من هذا النظام العربي أو ذاك . فنحن أشبه بالمسافر الذي ينتقل من نصف المعمورة إلى نصفها الآخر فيضطر لاصطحاب امتعة الشتاء وثياب الصيف ليحمي نفسه من المناخات الشديدة الاختلاف . وتلك ليست انتهازية كما يتهمنا البعض ، بل تدابير حماية ذات .

وثمة تجارب مريرة تدعونا إلى التروي . وأحب هنا أن أورد كمثال للتدليل على قولي ، حادثا لا يزال يتسلط على ذاكرتي . فعلى أثر نزاع حدث بين عبد الناصر وبين

الملك سعود عام ١٩٥٧ ، طلب عبد الناصر من المجلس التشريعي الفلسطيني في غزة الذي لم يكن سوى زائدة ملحقة بالسلطة المصرية ، أن يتبنى قرارا ينتقد العاهل السعودي . فكان أن رد الملك لفوره بطرد المعلمين الفلسطينيين العاملين في مملكته . وهكذا فان ٧٠٫٠٠٠ شخص بينهم أطفال ونساء فقدوا دورهم ومواردهم مرة أخرى - هذا مع أن الملك سعود كان يعلم أتم العلم أن مجلس غزة التشريعي لم يكن أكثر من منفذ للتعليمات الواردة من القاهرة . ولا ريب في أن انتقامه كان سيكون أقسى ألف مرة فيما لو أن النقد جاءه من منظمة ذات استقلال ذاتي كفتح . أقول هذا لأشير إلى مدى الجهود التي نبذلها لنتلافى الصدام مع هذا النظام العربي أو ذاك عندما لا يكون موضوع اختلافنا معه مسألة حاسمة أو قضية أساسية بطبيعة الحال .

وقد نكون أقرب إلى الإفهام إذا قلنا أن كل فلسطيني يطمع قبل كل شيء إلى ملاذ أمين بالغا ما بلغ صغره ، وإلى قنصلية يستطيع اللجوء إليها إذا ما أوذي أو هدد . أفنكون أقل أهلية وأحقية من مواطني إمارة من إمارات الخليج ؟ إن غالبية الدول العربية ترفض منح مواطنيتها للفلسطينيين . لا بأس . فنحن لا نشكو ذلك ولا نتظلم منه . إذ لعلها تولينا خدمة على غير قصد منها . لأنها تسهم بذلك في الحفاظ على أصالتنا وتعزز عزمنا على إيجاد وطن . وفي اليوم الذي نفلح فيه في إقامة دولة في أراضي الضفة الغربية وغزة المحررة ، فاننا سنبدأ بتوزيع بطاقات الهوية . ومن الممكن أن يقرر كثير من الفلسطينيين أن لا يقيموا في الدولة الجديدة لأسباب عملية . لكن ما هم ! فهم يستطيعون أن يعيشوا في البلد العربي الذي يختارون بدون قلق ولا عقد ! إذ أنهم سيعاملون أخيرا على قدم المساواة مع كافة من يملكون جواز سفر يعرضونه للناظرين . وإذا ما شعروا لسبب أو لآخر بتهديد يتهددهم ، فانهم يستطيعون أبدا أن يحزموا أمتعتهم ويعودوا إلى فلسطين حيث لا يعاملون كمنبوذين . إن نصف الشعب اللبناني يعيش خارج وطنه إلا أن أحدا لم ينكر عليه حقه في إقامة دولة .

إن الحجج التي يقدمها أولئك الذين ينكرون علينا هذا الحق هي «شبهة» حجج. فهم يقولون إن دويلة فلسطينية ليست سوى كيان غير قابل للحياة اقتصاديا. وهم يتناسون أن عددا من الأمم الشابة التي نالت استقلالها منذ نهاية الحرب العالمية الإخيرة لا تملك ما نملكه من نعم ومزايا. فلدى الفلسطينيين يد عاملة وفيرة وفائض من التقنيين والكوادر الذين أنهوا دراساتهم العليا في الخارج، وبرجوازية غنية بالرساميل، وهم يستطيعون الاعتماد على معونة مالية ضخمة تأتيهم من الدول المنتجة للنفط. ونحن على أي حال أكثر «قابلية للحياة» من دولة إسرائيل نفسها بكثير.

ويذهب أعداؤنا كذلك إلى أن دويلة كهذه ستصبح ضربا من القاعدة الشيوعية المزروعة في قلب المنطقة ومنطلقا ينطلق منه الإرهابيون لمناوشة إسرائيل وإزعاجها. إن هذه الادعاءات مضحكة. فنحن كما يعلم القاصي والداني لسنا بشيوعيين. والماركسيون بيننا قلة قليلة. بل إننا جميعا، وكائنا ما كانت نزعاتنا السياسية، وطنيون غيور ون يدافعون رغم الكافة وضدها عن الاستقلال والسيادة الوطنية العتيدة.

ثم هل ترانا نشكل تهديدا لإسرائيل. أليس أن من أكثر الأمور مفارقة، بادىء ذي بدء، أن تزعم القوة العسكرية الرئيسية في المنطقة، والتي تهدد عشرين دولة عربية مجتمعة، بأن الدويلة الجارة تستطيع أن تتهددها في أمنها ووجودها؟ بل إني أقول من جانبي أنه لن تكون هناك نشاطات تخريبية فلسطينية في اليوم الذي يكون لدينا فيه دولة نقودها، ثم وبخاصة، نحافظ عليها. وسيختفي التطرف من صفوفنا، وحتى في صفوف «جبهة الرفض». إن جورج حبش مثلا لن ينكل عن أفكاره، ولكن معارضته ستحترم المؤسسات وتوقر القوانين التي سيختارها الفلسطينيون. وهو لن يلجأ إلى العنف انتصارا لآرائه. ولن يتصرف بصورة مختلفة عن قادة التشكيلات الإسرائيلية التي تنكر الصهيونية مثل الحزب الشيوعي راكح أو التي تنكر شرعية دولة يهودية (مثل أحبار ناتوراي كارتا). وتلك ليست أمنية تقية أتمناها بل هي كلام عارف مجرب. فأنا لا أعرف عمق الوطنية والحس بالمسؤولية لدى رفاقي وحسب، بل ولدى أخصامنا السياسيين في داخل الحركة الفلسطينية.

وإذا كان للعقل أن يتغلب على مطامع المتطرفين الإسرائيليين في الأراضي ، وإذا كان السلام - أعني السلام العادل لا سلام كامب ديفيد - سيقوم ، فان من الطبيعي أن تنفتح الحدود بين إسرائيل وجيرانها العرب . ومن الطبيعي والمنطقي أن يبدأ تيار مبادلات ، ثم ينمي ، بين كيانين يكمل بعضهما بعضا في أكثر من جانب . وكيف يمكن أن يكون الأمر بخلاف ذلك - فيما يعنيني على الأقل - عندما يكون نحو من ٥٠٠ر٥٠ فلسطيني يعيشون في إسرائيل (داخل حدود عام ١٩٤٨) ويتطلعون إلى إقامة جسر مع أشقائهم الذين يعيشون في الضفة الغربية وغزة والمملكة الهاشمية وفيما وراء ذلك في مختلف الدول العربية .

ونحن بصفتنا قادة الحركة الفلسطينية ، لسنا معارضين من حيث المبدأ للحدود المفتوحة . فنحن لا نزال أوفياء لمثلنا - أو لحلمنا وفقا لتعبير ياسر عرفات - الذي ينص على توحيد فلسطين في دولة علمانية ديمقراطية تضم اليهود والمسيحيين والمسلمين الذين يضربون بجذورهم في هذه الأرض المشتركة . والحال هو أن الحدود المفتوحة تقود حتما إلى الحوار ثم إلى التفاهم بهدف قيام مثل هذا التوحيد بحيث يحل بدلا من المواجهة القومية الصراع الطبقي الذي سيواجه به الجماهير العربية واليهودية من جهة وبين المستغلين والامبرياليين من جهة أخرى : أي بين هذه الجماهير وبين أولئك الذين ولدوا الحقد بين شعبينا قبل أن يقودوهما إلى الحرب .

إن العائق الذي يحول دون مثل هذا التطور لا يقف في معسكرنا . لأن من لا يريد السلام الشامل والنهائي هو حكومة إسرائيل . كما أن من يخشى الحدود المفتوحة هم قادتها المتطرفون الذين ينظرون إلى هذه الحدود كتهديد يتهدد تماسك الدولة الصهيونية وسياستها التوسعية . وعلى العكس من ذلك ، فانهم بتعقبهم الهوة بين شعبينا وبتعهدهم للتوتران ، يؤمنون طواعية الإسرائيليين ويغذون خوفهم ويواصلون في الحين نفسه استيطان واستعمار ما يطلق عليه السيد بيغن اسم «يهودا والسامرة» .

إن ما أوردناه وما أسلفناه لا يبعث على التفاؤل . ويقينا أن دوري كقائد ثوري هو أن أبث الأمر وأعزز بواعث شعبنا على مواصلة المعركة . إلا أن واجبي إلى ذلك هو

عدم خداعه ، وتغذيته بالأوهام التي يفوق خطرها خطر خيبات الأمر الموجعة . وأن أقولها بصراحة : إني لا أعتقد أن جيلي سيحظى بفرحة رؤية ولادة دولة مستقلة حتى على جزء متناهي الصغر من فلسطين إلا أني أوضح بأنني أرى شأن شعبي كله تقريبا - بأنه لا يمكن تصور دولة ذات سيادة حقيقية إلا إذا أسسها وحكمها أولئك الذين قادوا حركة التحرر الوطني منذ عشرين سنة . كما ولا يمكن إقامة سلام دائم بدون ممثلي الشعب الفلسطيني الحقيقيين .

وبطبيعة الحال ، فانه لي ثمة أمر محتوم مسبق . فهناك من التقلبات والمتغيرات في الظرف الدولي وفي ظرف المنطقة بأكثر مما يمكننا من التنبؤ بالمستقبل . ولكنني أتمنى أن تكذب الأحداث تشاؤمي على المدى القصير أو المتوسط . وإذا كنت لا أستثني إمكان انتصار قريب إلا أنني لا أستبعد فرضية حدوث كارثة أيضا : عنيت شلل أو تدمير حركتنا وتلك لن تكون أول مرة ولا آخر مرة تنجح القوى الرجعية الجاهلية في إجهاض ثورة .

غير أن شعبنا سيلد ثورة جديدة وينجب حركة أعظم بأسا من حركتنا وقادة أكثر دراية وتجريبا وأشد خطرا - من ثم - على الصهاينة . فارادة الفلسطينيين التي لا ترد في مواصلة المعركة كائنا ما كانت الظروف ، هي حقيقة لا تأتيها الريبة من بين يديها ولا من خلفها. بل إنها إرادة تمليها طبيعة الأشياء . ونحن عازمون على البقاء كشعب وسيكون لنا ذات يوم - وطن» .

هذه خلاصة تجربة وتفكير المقاومة الفلسطينية كما كتبها قائد من قادتها الرئيسيين أثبتها هنا كاملة كي نتدبرها جيدا ، ونحن لا نوافقه بالطبع في كل ما قال ولكن نعتبر ما أثبته هنا هو تعبير صادق عن معاناة الثورة وأفكارها وأبعادها ، وأنا معه في نبوءته الأخيرة من أن الشعب الفلسطيني سيلد ثورة جديدة هي أشد خطرا وأقوى شكيمة وأعمق وعيا تأخذ بيد الشعب الفلسطيني إلى تحرير وطنه وإرجاع البسمة إلى شفاه أطفاله وصباياه ، وبالطبع فأنا أرشح الحركة الإسلامية لأن تكون هي مستقبل أمتنا لأسباب ذكرتها في مقدمة هذه الدراسة .

ولكي لا يكون هذا الترشيح مجرد أمنية فلابد لنا من دراسة تاريخ الحركة الإسلامية مع القضية الفلسطينية وتعرف ظروفها السابقة حتى نستطيع أن نسير وفق منهج إسلامي واضح كامل على درب تحرير فلسطين ، وليس هذا فقط بل إقامة الدولة الإسلامية دولة العدل في الأرض . وهذا ما سيكون موضوع الباب التالي إن شاء الله .

الباب الثامن

الحركة الإسلامية والقضية الفلسطينية

الفصل الأول : نبذة تاريخية

ذكرنا في مقدمة هذه الدراسة كيف كانت أوضاع المسلمين في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، وكيف أن العالم الإسلامي كان يمر في مرحلة انحطاط حضاري على جميع الأصعدة العقائدية والفكرية والروحية والإجتماعية والعسكرية والسياسية الإقتصادية ، وانتهى الإنحطاط إلى الهزيمة العسكرية الساحقة للدولة العثمانية وسقوط عاصمة الخلافة في يد الخلفاء ومانتج عن ذلك من إعتلاء مصطفى كمال أتاتورك السلطة في تركيا وإسقاط الخلافة نهائياً سنة ١٩٢٤ وإعلان علمنة الدولة وابتداء حرب شعواء على الإسلام في كل مجالات الحياة ، ونتج عن ذلك أن سقطت باقي بلاد المسلمين تحت قبضة الإحتلال الأوربي الذي صاحبه موجة شديدة من الغزو الفكري والاستلاب الروحي ومحاولة من الاستعمار الغربي لربط العالم الإسلامي بعجلة الغرب بحيث يفقد هويته الإسلامية وهي الدرع الحصين في مواجهة السيطرة الغربية وقد نجح المستعمرون في إحداث تغييرات هائلة في البنية الحضارية للمجتمع الإسلامي ، حيث ظهرت آثار الإنحلال والفساد في كل ناحية وأصبح الناظر المسلم في البلاد الإسلامية يحس بالغربة فكل ماحوله ينطق بالاغتراب .

لقد كان الانتساب إلى الفكر الدخيل هو قمة الحضارة وأصبح الإنسان المطالب بالتمسك بالمبادىء الأخلاقية الإسلامية يلقى نظرات الاستهجان والاستغراب ، ويوصف بشتى الأوصاف القبيحة مثل الرجعية والتأخر والانغلاق والتخلف وبدأ كثير من أصحاب الغيرة الإسلامية يموتون كمداً ، وهم ينظرون في أحوال المسلمين ولايستطيعون وقف هذا التيار الهائل من التغريب الذي تحميه القوة المسلحة وبدأت حملات التبشير المدعومة من قبل الإحتلال تجوب البلاد لإفساد دين الناس وأخلاقهم

على السواء . وفي هذه التربة نمت الفكرة الصهيونية في فلسطين كما سبق عرضه .. أمام هذا المد الهائل للتغريب والانحطاط وفقدان الهوية قام الشاب الناشىء حسن البنا بتأسيس جمعيته التي سماها «الاخوان المسلمون» في مدينة الاسماعيلية سنة ١٩٢٨م في محاولة فذة لإعادة الإسلام إلى بلاده ولبعث الحضارة الإسلامية بعثاً كاملاً في كل مجالات الحياة متأسياً بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بدأت هذه النبتة المباركة بداية صغيرة متواضعة لكنها واضحة تمام الوضوح، إنها تستمد منبعها من كتاب الله وسنة رسوله ، وتستمد منهجها الحركي من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام ، وبدأت هذه الدعوة تنمو شيئاً فشيئاً حتى امتدت إلى القاهرة ومنها إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي فكانت بحق دعوة الإسلام في القرن العشرين ، ولمعرفة تاريخ الدعوة وبدايتها ومنطلقاتها لا غنى عن قراءة «مذكرات الدعوة والداعية» للإمام الشهيد حسن البنا وكتاب «الإخوان المسلمون - أحداث صنعت التاريخ» لمحمود عبد الحليم . وغيرها من كتب الإخوان المسلمين وكذلك «رسائل الإمام الشهيد حسن البنا» وهي التي تعتبر المنهج النظري والبرنامج العملي للدعوة .

ولكني أود أن أوضح بعض المنطلقات التي واجهت بها هذه الدعوة المباركة موجة الانهيار العام الذي اجتاح العالم الإسلامي ودورها في إيجاد العلاج للعلل التي أصابت المجتمع الإسلامي :

١- استطاعت الحركة أن تشخص أمراض الأمة الإسلامية تشخيصاً دقيقاً ووضّحت أن سبب ما تعاني منه الأمة من مشكلات هو ابتعاد المسلمين عن دينهم وعدم فهمه على الصورة الصحيحة التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف أن الفساد انتشر في عقيدة الناس عن طريق انتشار البدع والخرافات والجهل بطبيعة هذا الدين والاستسلام للآراء التي يبثها المستعمرون عن الدين ، فجاءت هذا الدعوة لتقول لهم أن : «نحن نعتقد أن أحكام الإسلام وتعاليمه شاملة تنظم شؤون الناس في الدنيا والآخرة وإن الذين يظنون أن هذه التعاليم إنما تتناول الحياة العبادية أو الروحية دون غيرها من النواحي مخطئون في هذه الظن ، فالإسلام عقيدة وعبادة ووطن وجنسية ودين ودولة وروحانية وعمل ومصحف وسيف والقرآن الكريم ينطق بذلك

كله ويعتبره من لب الإسلام وصحيحه وأوصى بالإحسان فيه جميعة وإلى هذا تشير الآية الكريمة «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك»(١) .

وبهذا أعادت دعوة الإخوان المسلمين إلى ضمير الأمة الفهم الحقيقي لشمولية الإسلام لكل ناحية من نواحي الحياة بعد أن كاد يغيب .

٢- استطاعت الحركةأن تقدم برنامج عمل متكامل للنهوض بالأمة الإسلامية على ضوء النظام الإسلامي ولم تكتف بالتنظير فقط ، بل كانت الممارسة العملية متلازمة تماماً مع الوعي ولذلك كانت شُعب الإخوان في أنحاء مصر تقوم بنشاطات في كل مجالات الحياة من وعظ وإعداد للشباب إعداداً عقائدياً وبدنياً وعسكرياً وأعمال اقتصادية واجتماعية وصحية .. الخ .

٣- استطاعت الحركة أن تقوم بعملية إحياء كاملة للفكر الإسلامي وأن تحدد موقف الإسلام من كل ما يطرح على الساحة من أفكار غريبة عنه ، ولايكاد يوجد موضوع يهم المسلمين إلا كان لمفكري حركة الإخوان المسلمين رأيهم فيه ، وبذلك قدمت الحركة للمسلمين زاداً فكرياً حضارياً شاملاً يحدد هويتهم ويضع أسس نهضتهم على أساس سليم من الفكر الصحيح .

٤- استطاعت الحركة أن تقدم برنامجاً إصلاحياً وسطاً يمكن أن يجتمع عليه المسلمون يرجع إليه الغالي ويلحق به المبطىء وسلكت في كل ذلك طريقاً عملياً واضحاً .

٥- إلتزمت هذه الحركة في كل مواقفها بالإسلام كما نادت به وتحملت في سبيله كل التضحيات والتحديات التي واجهتها ولازالت مستمرة على نفس الطريق .

٦- أنشأت الحركة جيلاً من الشباب أعاد للمسلمين الأمل في إمكانية البعث الإسلامي وتجديد شباب الأمة الإسلامية وانتشار هذه الحركة في العالم الإسلامية بل وفي قارات العالم كلها يؤكد على حتمية انتصار الإسلام ويبعث على الطمأنينة بمستقبل أفضل للمسلمين باذن الله .

---

(١) رسالة المؤتمر الخامس .

هذه بعض الخطوط الرئيسية للمنطلقات التي حددتها الحركة ولمعرفة تفاصيل عن هذه الحركة لايستغني القارىء عن قراءة رسائل الأيام الشهيد حسن البنا ٠

والذى أود أن أخاص له من هذه العجالة أن الحركة الأسلامية حين أنطلقت لتتعامل مع قضية فلسطين وغيرها من القضايا الأسلامية أنطلقت لتعالج هذه القضايا من الجذور وتبحث عن أسباب الفساد من الأساس لتقتلعها ولم تحاول - كالحركة الوطنية - أن تعالج من السطح متغافلة عن كل ما يحدث للأسس من الخراب ٠

بينّا فيما سبق أن دور الحركة الوطنية والقومية في فلسطين كان ينطلق من منظور رد الفعل ولكن الحركة الأسلامية جاءت لتبدأ عملية إحياء جديدة للمجتمع المسلم يستطيع من خلالها أن يستلم زمام المبادرة ويتصدى لحمل قضاياه بقوة عن طريق الأيمان العميق والتكوين الدقيق والعمل المتواصل ٠

ولكن الحركة الأسلامية وهى تسير في هذه الخطوط التى رسمها الأيام الشهيد حسن البنا لم تكن بمعزل عما يدور من أحداث سواء في مصر أو في أى بقعة من العالم الإسلامي وبالذات في فلسطين التى كان لها النصيب الأكبر من الأهتمام بل أرتبط تاريخ الإخوان المسلمين بتاريخ القضية الفلسطينية ارتباطاً وثيقاً وعياً وعملاً وجهاداً ٠

ما أن وقفت الحركة في مصر على ساقيها حتى بدأت ترود المنطقة الأسلامية بأسرها تشخيصاً للعلل وبحثاً عن مؤمنين مجاهدين يستطيعون حمل الفكرة الأسلامية والسير على نفس الأهداف ومن هنا حصل أرتباط وثيق بين الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين وقائد كفاحها وبين الأمام الشهيد حسن البنا

قامت ثورة ٣٦ فى فلسطين والشعوب الأسلامية لا تكاد تحس بفلسطين نتيجة لروح الإقليمية والتجزئة التى بدأ المستعمر بنشرها منذ أمد ليس باليسير وهنا قام الإخوان المسلمون في مصر بحملة واسعة لتوعية الشعب المصرى بقضية فلسطين وتعبئته لليوم المرتقب بالدفاع عن فلسطين ٠

وعلى الرغم من قلة عدد الإخوان وضعف وسائلهم في ذلك الوقت إلا أنهم قاموا بمجهودات كبيرة ونذكر منها :-

١- كان شباب الإخوان يجوبون مساجد مصر من أقصاها إلى أقصاها يخطبون ويلقون الدروس على المصلين ليوعوهم بأهمية الرابطة الأسلامية وما تلاقيه أختهم فلسطين على أيدى الأنجليز واليهود في الوقت الذى كان فيه غالبية الشعب المصري لايعرف ما هى فلسطين ٠

٢- كان شباب الإخوان يجمعون بعض التبرعات من المساجد من أجل فلسطين ولكن الهيئة العربية العليا طلبت منهم أن يستعملوا هذه النقود فى الدعاية للقضية الفلسطينية لدى الشعب المصرى لما لدور مصر من أهمية في دعم القضية الفلسطينية ٠

٣- جهزت الهيئة العربية العليا كتاباً سمته "النار والدمار في فلسطين" وضحت فيه بالحقائق والصور مآسي الشعب الفلسطينى على أيدى الأنجليز واليهود وكفاح الشعب الفلسطينى ، وطبعه الإخوان في القاهرة ووزعوه في أنحاء مصر ٠

٤- أقام الإخوان مؤتمرات شعبية في القاهرة لتوعية الجماهير بما يحدث في فلسطين ٠

٥- أقام الإخوان مؤتمراً برلمانياً ضم عدداً من البرلمانين العرب لتحميلهم المسئولية باسم أخوة الأسلام في الدفاع عن فلسطين ٠

٦- طالب الإخوان الحكومة المصرية الوفدية بمساعدة المجاهدين في فلسطين وأحرجوها أمام الرأى المصرى الذى كانت الحكومة حريصة على عزله عن قضايا إخوانه المسلمين في العالم والتركيز على النظرة الاقليمية المصرية ٠ وكان أن سأل أحد الصحفين من الإخوان «النحاس باشا» رئيس وزراء مصر في ذلك الوقت ، ماذا عملتم من أجل فلسطين ٠ فقال النحاس : «أنا رئيس وزراء مصر وليس رئيس وزراء فلسطين» وهذا يدل على المدى الذى كانت الحكومة المصرية بعيدة عن أى إحساس بما يدور في فلسطين ٠

وحين عرض الإخوان على الهيئة العربية العليا بأن يمدوها بالمجاهدين قالت الهيئة :- إننا لا نريد مجاهدين بمقدار ما نريد دعمكم المعنوى ولأعلامى «راجع كتاب الدعوة الإسلامية أحداث صنعت التاريخ الجزء الأول» .

وحين خمدت الثورة الفلطينية في سنة ١٩٣٩ عكف الإخوان على توسيع دعوتهم إلى سوريا والأردن ولبنان وبدأت في فلسطين بدايات بسيطة فكان الأمل إذا قامت دولة إسلامية في مصر فستكون خير دعم لفلسطين ٠

ما إن أنتهت الحرب العالمية الثانية حتى غدا الإخوان في مصر قوة لا يستهان بها وبدأوا يعبئون الرأى العام في مصر لنصرة القضية الفلسطينية وما أن حل قرار التقسيم حتى بدأت بعض المجموعات الإخوانية المسلمة بالعمل ضد اليهود في فلسطين وقام أحد قادة الإخوان المسلمين «الصاغ محمود لبيب» بدور هام في محاولة الإصلاح بين فرقة النجادة وفرقة الفتوة الفلسطينيتين المتصارعتين ٠

وحيث دعت الجامعة العربية لتكوين كتائب المتطوعين لدعم فلسطين كانت غالبية هؤلاء التطوعين في مصر من الإخوان المسلمين مع عدد لابأس به من ضباطهم الذين تركوا الجيش والتحقوا بالمتطوعين مما حدا بعدد من ضباط الجيش من غير الإخوان أن يلتحقوا بالمتطوعين وكان من أبرز هؤلاء المقدم أحمد عبد العزيز " أشهر قائد من قادة معارك ١٩٤٨ وعمل الإخوان تحت قيادته وكانوا يشكاون معظم قواته وقاموا بأعمال بطولية خارقة في منطقة غزة والنقب ثم في منطقة الخليل وبيت لحم والقدس ٠

بعد ذلك دخلت قوات خاصة من الإخوان بقيادة محمد فرغلى كمسئول عام والأخ كامل الشريف كمسئول عسكري ميداني واشتركت في القتال في فلسطين بالقيام بحرب العصابات وقطع خطوط مواصلات العدو ومواجهة مستعمراته في بعض الأحيان ، وساعدت في حماية الجيش المصري من الإبادة في نهاية الحرب ، وكلف الجيش المصري الإخوان بالقيام بمهمات خطيرة لم يستطع الجيش القيام بها .

وحين تبينت خيانة النقراشي باشا رئيس وزراء مصر وتواطؤه مع الإنجليز خشي من قوة الإخوان التي ظهرت بعض مظاهرها في فلسطين وخشي أن تتغلب عليه وتعلن دعوة إسلامية في مصر ، فقام بحل الإخوان المسلمين واعتقل قادتهم في مصر ومنع تجنيد متطوعين جدد منهم ، ففي الوقت الذي أعلن فيه الإمام الشهيد أنه سيجند عشرة آلاف من الإخوان لإرسالهم إلى فلسطين منعته السلطات من ذلك .

وحين كان موقف الجيش المصري في فلسطين بالغ الخطورة وطلب مساعدة الإخوان المسلمين وكان عددهم بدأ يتناقص نتيجة التضحيات التي قدموها وعدم السماح لهم بادخال متطوعين جدد ، ذهب الشيخ فرغلي إلى مصر على عجل لإستقدام متطوعين جدد من الإخوان ، وإذا بالسلطات المصرية تعتقله وتمنعه من أداء مهمته في الوقت الذي كانت فيه الجبهة الفلسطينية في أمس الحاجة إلى جهود الإخوان .

ورغم ما أبدى الإخوان من بطولات على أرض فلسطين شهد بها قادة الجيش المصري إلا أن الحكومة أصدرت أمراً إلى هؤلاء القادة باعتقال الإخوان المسلمين في فلسطين كي تتم المؤامرة ونفذ هؤلاء القادة هذه الأوامر والدموع في عيونهم .

وشارك في معارك ١٩٤٨م الإخوان المسلمون في سوريا بقيادة الأخ المجاهد الشيخ مصطفى السباعي المراقب العام للإخوان في سوريا والإخوان المسلمون في الأردن بقيادة الشيخ عبد اللطيف أبو قورة ولقد كان الإخوان المسلمون بشهادة قادة الجيش المصـري بمثابة الملاذ الأخير أو الورقة الأخيرة التي يضربون بها وجوه اليهود ، واستطاع الإخوان المسلمون التفاهم مع الفلسطينيين والتعاون معهم تعاوناً تاماً في الوقت الذي عجزت فيه الجيوش العربية من ذلك ، ونتج عن ذلك علاقة حميمة بين الإخوان والفلسطينيين الذين عايشوهم عن قرب واحتكوا بهم ولقد حدثني الكثير من كبار السن من الفلسطينيين عن إعجابهم باخلاص الإخوان وحماستهم ، ويروي لي أحد الفلسطينيين كيف أنه لم يتمالك عينيه من الدموع حين سمع شاباً من شباب الإخوان الصغار وهو يقول له «ياعم أنا أدعو الله أن تأتي الرصاصة هنا ويشير إلى صدره» حتى يستشهد مقبلاً غير مدبر ولا يزال الكثير من الفلسطينيين يذكرون نشيد الإخوان عند ذهابهم إلى المعارك «هبي ريح الجنة هبي» ولمزيد من التفاصيل عن دور الإخوان المسلمون في حرب فلسطين لا يستغني القارىء المسلم عن قراءة كتاب «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين» من تأليف كامل الشريف ، ليتعرف على جهود الإخوان وعلى غدر وخيانة الأنظمة العربية للقضية الفلسطينية . وتنتهي المأساة ليرجع المجاهدون إلى المعتقلات في بلادهم بدلاً من أن يرحب بهم شعبهم .

وهنا يثار سؤال هل كان إظهار قوة الإخوان في فلسطين هو المبرر لضربهم خشية من استفحال أمرهم ، وإذا كان حسن البنا يخطط للإستيلاء على السلطة في مصر فلماذا يدخل الحرب ويعرض تنظيمه للخطر في ذلك الوقت قبل إكتمال عدته . وإذا كان إتجاهه العام هو النهوض بالأمة نهوضاً شاملاً فلماذا دخل المعركة قبل أن يتمكن من ذلك ؟

ولتوضيح هذه الأمور نذكر قصة عن الإمام الشهيد أنه قال للإخوان إن معركتهم هنا في القاهرة لأن النظام في القاهرة وغيرها من العواصم العربية هو المسؤول عن إقامة إسرائيل . وقال إن إسرائيل ستقوم لأن الدول الإستعمارية مهدت لذلك بتغييب الإسلام عن دول المنطقة وجاءت بحكومات عميلة . ولكن الإسلام سيعود ويحرر فلسطين كما حررها أول مرة . ولكن رغم ذلك لم يكن بامكان الإخوان أن يقفوا موقف المتفرج فأجمعت الهيئة التأسيسية للإخوان على خوض الحرب لمنع الكارثة بقدر الإمكان ولم يدر بخلد الإخوان أن تصل الحكومة إلى هذه الدرجة من العمالة فطعنتهم في الظهر وهم يجاهدون في فلسطين بينما كانت تنسحب وتوقع الهدنة تلو الأخرى مع اليهود .

وعن هذا الأمر يقول الأستاذ عمر التلمساني :

١- نزل اليهود في فلسطين ومكنهم الإنجليز من رقاب المسلمين هناك وارتكب الصهاينة أبشع صور الجرائم مع الفلسطينيين العزل ووقف جميع المسلمين حكاماً ومحكومين موقف المتفرج ، اللهم إلا احتجاجات هزيلة جوفاء ، يعرفها اليهود قبل أن تعلن على الملأ وزادت هذه الاحتجاجات الواهنة من طمع اليهود فأفحشوا في المذابح فكان ولابد شرعاً وخلقاً وعرفاً أن يخف الإخوان إلى إنقاذ فلسطين الشهيدة ، لما قعد المسلمون جميعاً عن القيام بهذا الواجب الكفائي وإلا أثم الجميع فالإخوان رفعوا الإثم عن المسلمين رغم موقف وزارة المرحوم النقراشي منهم وإنزاله إياهم من ميادين الجهاد إلى زنازين الإعتقال !! أي وصف يمكن إسباغه على تصرف النقراشي ؟ أهو ينتصر لليهود ؟ أم يكيد للمسلمين وينتقم منهم لمحاربتهم اليهود تخليصاً لفلسطين ؟

٢- كان من الضروريات التي لا فكاك منها أن يعرف العالم كله أن الإسلام لم يعد جثة هامدة كما يشيعون وأن من بين أبنائه رجالاً لا يرضون الذلة والمهانة لدينهم وأنهم فداء له بالروح والمال والأهل والولد .

٣- كان لابد من درس ، ودرس قاسٍ يتعلمه اليهود حتى لا يظنوا أن فلسطين لقمة تبتلع بسهولة وتهضم على مهل .

٤- أن الإسلام سواء كان أبناؤه ضعافاً أو أقوياء لم ينج فترة من تحالف خصومه عليه وكانت المؤامرات تفشل والكيد يرد إلى النحر وأن المسلمين في إمكانهم أن يثبتوا فاعلية العقيدة التي في قلوبهم حتى ولو كانوا ضعافاً كما حدث في الحروب الصليبية والطوفان التتاري ولن ييئسنا ما عليه المسلمون اليوم .

٥- في عمرة الحديبية حض رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين على أن يظهروا بمظهر القوة رغم مرضهم الذي كانوا يعانونه ، وقال لهم مارواه لنا رواة الحديث «رحم الله امرأً أراهم اليوم القوة من نفسه» .

٦- في مثل هذه المواقف المصيرية لابد من إقدام وبسالة تعطي الحكومة سنداً تقوى به موقفها ضد اليهود ، وبدلاً من أن يستغل النقراشي هذه الفرصة التي أتاحها الله عن طريق الإخوان أنكر فضل الله عليه وتنكر للإخوان ودخل في مفاوضات مع اليهود ، كانت مفتاح المصائب التي توالت بعد ذلك ، ولو أن النقراشي ترك الإخوان في جهادهم المقدس لكان الحال غير الحال(١) .

ويقول الأستاذ سعيد حوى في كتابه «المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين» وكنا سنكون مجرمين لو لم ندخل حرب فلسطين ، إذن كان لابد من الالتفاف إلى الواقع والتطورات الطارئة أثناء البناء الكبير ولابد من التوازن الصعب بالجمع بين العملين البناء والتصدي لمتطلبات الواقع وهذا معيار النجاح .

عاد الإخوان المسلمون من ميادين القتال ليدخلوا في سلسلة من المحن المتلاحقة فكان قرار الحل الذي وضعه النقراشي وقام باعتقال قادة الإخوان والمجاهدين منهم

---

(١) ذكريات لا مذكرات . عمر التلمساني ص ١٦١-١٦٢

ووضعهم في معتقلات الطور في سيناء ثم قامت حكومة ابراهيم عبد الهادي بنفس الدور بعد أن اغتال أحد شباب الإخوان النقراشي باشا . وقام الملك فاروق بالتآمر مع مخابراته لإغتيال الإمام الشهيد في ١٢ فبراير ١٩٤٩م ثم قام عبد الناصر بتوجيه حملة قمع شديدة للإخوان المسلمين سنة ١٩٥٤م تعرضوا فيها لشتى الأهوال وأعدم ستة من خيرة قادتهم وحكم على الآلاف بمدد طويلة غير التشريد الذي حل بالبعض والإعتداء على الممتلكات بالمصادرة والتجويع للأهل والتعذيب الذي يفوق كل وصف وتصور ، عدا عن تسليط حملات دعاية ليل نهار تشوه جهاد الإخوان ونضالهم مما أبعدهم من التأثير في الساحة إلى حد كبير فلجأت حركة الإخوان إلى العمل سراً رغم كل وسائل قمع المخابرات المصرية وقام عبد الناصر بضربته الثانية سنة ١٩٦٥م وكانت نتيجتها أعنف من السابقة وقام باعدام الشهيد سيد قطب وعبد الفتاح اسماعيل ويوسف هواش عدا العشرات الذين ماتوا في التحقيق والألوف التي حكم عليها بمدد مختلفة وقامت حربان مع إسرائيل في هذه الفترة ١٩٥٦م بعد مذبحة ٥٤ بسنتين وحرب ٦٧ بعد مذبحة ٦٥ بسنتين وكأنما كانت إسرائيل على موعد مع ما يفعل عبد الناصر بالحركة الإسلامية وكانت نتيجة الحربين ساحقة بالنسبة لعبد الناصر استطاع بالتهريج وبوسائل إعلامه أن يحول هزيمته ١٩٥٦م إلى نصر سياسي وهي عادة جرى عليها الكثير من زعماء العرب في هذا الجيل المهزوم وهي تزييف الحقائق على الجماهير فتصبح الهزيمة نصراً في عرفهم ولكن هزيمة ٦٧ كانت أكبر من أن تتحول إلى نصر فسميت «النكسة» ، نكسة على سبيل التخفيف . وكذلك سمى السادات استسلامه في كامب ديفيد بمعركة السلام وسمى تلبية طلبات موشي ديان بتعمير مدن قناة السويس بمعركة التعمير وهكذا .

لم يكن الإخوان في قطاع غزة منفصلين عما يحدث لهم في مصر فقد تأثر الفلسطينيون في قطاع غزة برؤية الإخوان وجهادهم في فلسطين وبدأوا في التشكيل بعد حرب ٤٨ وكان عبد المنعم عبد الرؤوف وهو من قادة الإخوان العسكريين ومن قادة ثورة يوليو يدرب مجموعات من شباب الإخوان في قطاع غزة على السلاح ويعدهم للجهاد ضد اليهود قبل أن تعتقله حكومة عبد الناصر ثم استطاع الهرب من السجن

حيث انتهى به المطاف إلى شرق الأردن وتعرض الإخوان الفلسطينيون لنفس حملات القمع التي تعرض لها إخوانهم في مصر سنة ٥٤ وسنة ٦٥ حتى جاءت حرب ٦٧ وليس في قطاع غزة من الإخوان ما يكمل عدد أصابع اليد الواحدة .

أما في الأردن فقد كانت حركة الإخوان ناشئة حين بدأ عبد الناصر حملاته الإعلامية واستطاع أن يسيطر بتهريجه على مشاعر الناس في شتى البلاد العربية فأثر هذا على نمو الحركة في تلك الفترة حتى أن حال الإخوان في الضفة الغربية عشية حرب ٦٧ لم يكن بأحسن حالاً من إخوانهم في قطاع غزة وكذلك في الضفة الشرقية .

نتيجة للحمة التي شنها عبد الناصر ضد الإخوان طوال عقدين من الزمان صار الدين غريباً في أوساطنا وصار المنادي بالعودة إلى الإسلام يواجه بالاستهجان ويتهم بالرجعية والتآمر والعمالة ، ولكن هزيمة ٦٧ كان لها من التأثير على شباب فلسطين والأمة الإسلامية بشكل عام ما كان لهزيمة ٤٨ إن لم يكن أكثر . بدأ الشباب يعيدون حساباتهم وينظرون بتمعن إلى الشعارات التي عاشوا عليها طوال عقدين من الزمان فتبخرت بين عشية وضحاها أدراج الرياح .

كان لابد من مراجعة ووقفة مع الذات ، وبدأت مجموعة من الشباب يعتبرون طلائع هذا الجيل بالتفكير في الوضع القائم فرأوا أن هزيمة ٤٨ جاءت نتيجة للبعد عن الإسلام ولخيانة الأنظمة العربية العميلة للاستعمار في ذلك الوقت ورأوا أن الأنظمة التي تدعي الثورية والتي خلفت تلك الأنظمة لم تكن أحسن حالاً ، ورأوا أنهم ضلوا الطريق حين كانوا يصفقون لهؤلاء الحكام الثوار الكذبة ، وأن هؤلاء الحكام ما هم إلا نموذج للتبعية والعمالة ولكن بوجه جديد وطني ثوري وإذا بهزيمة سنة ٦٧ جاءت لتكشف ثوريتهم ووطنيتهم الكاذبة وتعريها ، وكشفت كم عصفت هذه الثورية المدعاة بمقدرات الأمة وأبعدتها عن هويتها الأصلية وأوغلت بها إبعاداً عن مصدرقوتها ألا وهو الإسلام . كانت هذه القلة من الشباب أمام مفترق طريقين إما أن تبدأ بعملية قتال عصابات ضد اليهود كما فعلت المنظمات الفلسطينية ، والواقع هو الواقع وتستعمل نفس الشباب الذين تربوا في ظل هذه الأنظمة والأفكار البعيدة عن الإسلام وبهذا تكون إمتداداً لكل ما حدث في الماضي وتعيد تكرار أخطائه أو أن تبدأ

عملية بعث حضاري شامل للأمة في سبيل إحياء الإسلام في نفوسها ومن ثم بعد عملية البعث هذه تكون الانطلاقة نحو التحرير .

كانت الطريقة الأولى مغرية للشباب لامتلائها بالحماس من جانب ولكونها سهلة من جانب آخر . إذا لا يتعدى الأمر أن تتصل ببعض الشباب المتحمسين أو تحمس بعض الشاب وتسلحهم وينطلقوا في قتال اليهود كيفما اتفق .

والسلاح له إغراء ويوحي بقصر الطريق أمام سالكيه إذا ما قيس بصعوبة الطريق الثاني طريق البعث والتربية والجهد المتواصل وترميم نفوس الشعب إن لم يكن إيقاظه من جديد .

أما الطريقة الثانية فقد كانت تبدو طويلة جداً خصوصاً حين كنت تتلفت حولك فلا تجد أحداً من الجيل الجديد يهتم بالإسلام فالمسجد العامر تجد به شاباً أو شابين يحافظون على الصلاة ويعرفون بعض الأشياء البسيطة عن الدين ، وبعض المساجد لم يكن بها أحد من الشباب بل إن بعض المساجد والمناطق لم تعرف هذه النوعية إلا بعد عشر سنوات أو أكثر . لقد كانت المهمة تبدو مستحيلة ، إنها سباحة ضد التيار ، لقد كان أمام هذه القلة من الشباب التي اتجهت للإسلام أن تتخطى عقبات ليست بالبسيطة ، أولها قلة العلم وصغر السن وقلة التجربة وإن لم يكن ينقصهم الحماس والغيرة والإخلاص فانسلخت أعوام ليست بالبسيطة في عملية تكوين الذات حيث كان القليل من الشباب قد تجاوز سن السابعة عشرة في ذلك الوقت وكان المتوسط بين ١٥-١٧ سنة وكانت الكتب التي تتحدث عن الإسلام بصورته النقية بعيدة المنال نتيجة الوضع الذي فرضه نظام عبد الناصر فأي كتاب من كتب الإخوان المسلمين كان امتلاكه يعادل امتلاك رشاش كلاشينكوف .

كذلك كان على هذه المجموعة من الشباب أن تواجه ذلك الركام الهائل من التشويه الذي صحبه عبد الناصر وزبانيته على الإخوان المسلمين فبغّض الإسلام في نفوس الناس . وصار حتمياً على من يريد الدعوة إلى الإسلام أن يزيل هذا الركام الهائل من النفوس قبل أن يقنع الإنسان بالإسلام ثم لابد من مواجهة الخوف والرعب الذي بثه عبد الناصر في النفوس فقتل فيها كل ناحية إيجابية .

كان إذا اقتنع أي فرد بالإسلام بعد طول عناء يحتاج إقناعه بالعمل للإسلام والانتماء له انتماءاً حركياً والوقوف في وجه تيار الإنهيار الحضاري إلى زمن ليس بالبسيط ، كانت المسألة أشبه بالمستحيل ولكن الشباب لم ييأسوا .

وكذلك كان على هؤلاء الشباب إذا سلكوا هذه الطريق أن يثبتوا في وجه المزيدات أو إن شئت في وجه إغراء السلاح بالذات للشباب الصغار الممتلئين حماساً وليس عندهم الوعي الكافي لدراسة التاريخ دراسة موضوعية لينطلقوا على أسس سليمة بل كان شعار تلك المرحلة المهم العمل . ولقد كانت هذه المسألة تشكل إحراجاً ليس ببسيط أمام شباب الإسلام ولا تزال تشكل إلى اليوم . كان كبار السن نتيجة لعصور الذل التي عاشوها أبعد ما يكونون عن التفكير بالانتماء للحركة الإسلامية أو غيرها وكان شعارهم ذلك المثل الخبيث «حط راسك بين ها الروس وقول ياقطاع الروس» أو «احفظ راسك عند مخالفة الدول» وصغار السن الممتلئين حيوية واستعداداً لم يكن عندهم التعقل الكافي للتصبر أمام كل هذه الصعوبات كان في صالح الشباب المسلم ميزة موضوعية هي هزيمة الأنظمة والتيارات فكانت تساعد على حد ما في إقناع الشباب بفشل هذه الأنظمة رغم كل محاولات الترميم والتلفيق وأصبح تأثير دعاية هذه الأنظمة أقل إن لم ينته نهائياً .

وهناك ميزة ذاتية لعلها هي سر النجاح في عملية البعث والصحوة الإسلامية وهذه الميزة هي قوة الإسلام وحده كفكرة وكمنهج وارتباطه بفطرة الإنسان فليست هناك فكرة على الأرض تستطيع أن تواجه الفكرة الإسلامية «فطرة الله التي فطر الناس عليها» فما أن تزول الغشاوة التي شكلتها كل الأوضاع السابقة عن عيون الشباب حتى ينجذبوا نحو الإسلام بسهولة . وكان لصدق هؤلاء النفر وإخلاصهم في حمل رسالة الإسلام الدور المهم في إستمرار هذا العمل ونموه وكانت هناك الصعوبات الطبيعية في وجه البعث الإسلامي والتربية الإسلامية وهي بعد المجتمع عن الإسلام مما يصعب عملية التربية ويجعلها أكثر مشقة وتتطلب وقتاً أكبر فنتيجة لعوامل التعرية التي يتعرض لها الشباب في مجتمع لم يبق له من الإسلام إلا الإسم فكان لابد أن يواجه مشكلة الجنس والفساد الأخلاقي وأن يواجه كل تخريب الإحتلال الذي

يعصف بالنفوس من إفساد للأخلاق وإلهاء عن طريق الكفاح المستمر للحصول على لقمة العيش بشق الأنفس .

كانت الطريق صعبة وطويلة ولكن عملية دراسة مستمرة للتاريخ الإسلامي بشكل عام وتاريخ الحركة الإسلامية الحديث يحتم سلوك الطريق الثاني على طوله وصعوبته ، لقد كان الطريق الوحيد الموّصل .

أما الأول فعلى الرغم من إغراءاته وسهولته فقد جُرب منذ بداية القضية الفلسطينية في مطلع هذا القرن ولم ينجح ولعل في استعراضنا للقضية في بداية هذا الكتاب ما يؤكد ذلك أيضاً وكانت الكتب الإسلامية نادرة كما أسلفت وكان لكتاب «معالم في الطريق» للشهيد سيد قطب تأثير بالغ في إختيار هذا الطريق وبالذات في فصول «طبيعة المنهج القرآني» و «نشأة المجتمع المسلم وخصائصه» و «الجهاد في سبيل الله» و «لا إله إلا الله منهج حياة» والتي يبين فيها الشهيد سيد قطب أن إلتزام منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في إقامة المجتمع المسلم واجب شرعاً ويؤكد ضرورة إيجاد جيل مسلم طليعي يحمل فكرة الدعوة إلى الإسلام ويؤكد على المرحلية والتدرج . وبعد إرساء القاعدة في المجتمع لذلك يقوم الصراع بين الحق والباطل فيكون النصر بجانب أهل الحق طالما أنهم قد أحسنوا صلتهم بالله سبحانه وتعالى ودفع هذا الرأي إلى قراءة متعمقة في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في محاولة لتحديد معالم الطريق ثم جاء التعرف على رسائل الإمام الشهيد حسن البنا وتحديده لبرنامج حركة الإخوان المسلمين وخطواتها لتؤكد على نفس المنهج الذي ركز عليه سيد قطب . حيث يقول في رسالة التعاليم : «ومراتب العمل المطلوبة من الأخ الصادق هي» :

١- إصلاح نفسه حتى يكون قوي الجسم متين الخلق مثقف الفكر قادراً على الكسب وسليم العقيدة ، صحيح العبادة ، مجاهداً لنفسه ، حريصاً على وقته ، منظماً في شئونه ، نافعاً للغير ، وذلك واجب كل أخ على حدة .

٢- وتكوين بيت مسلم بأن يحمل أهله على إحترام فكرته والمحافظة على آداب الإسلام في كل مظاهر الحياة المنزلية وحسن إختيار الزوجة وتوقيفها على حق زوجها

وحسن تربية الأولاد والخدم وتنشئتهم على مبادىء الإسلام وذلك واجب كل أخ على حدة كذلك .

٣- وإرشاد المجتمع بنشر دعوة الخير فيه ومحاربة الرذائل والمنكرات وتشجيع الفضائل والأمر بالمعروف والمبادرة إلى فعل الخير وكسب الرأي العام إلى جانب الفكرة الإسلامية وصبغ مظاهر الحياة العامة بها دائماً وذلك واجب كل أخ على حدة وواجب الجماعة كهيئة عاملة .

٤- تحرير الوطن بتخليصه من كل سلطان أجنبي - غير إسلامي - سياسي أو إقتصادي أو روحي .

٥- وإصلاح الحكومة حتى تكون إسلامية بحق وبذلك تؤدي مهمتها كخادم للأمة واجير عندها وعامل على مصلحتها والحكومة إسلامية ما كان أعضاؤها مسلمين مؤدين لفرائض الإسلام غير متجاهرين بعصيان ولا بأس بأن نستعين بغير المسلمين عند الضرورة في غير مناصب الولاية العامة ولا عبرة بالشكل التي تتخذه ولا بالنوع ما دام موافقاً للقواعد العامة في نظام الحكم الإسلامي .

ومن صفاتها الشعور بالتبعية والشفقة على الرعية والعدالة بين الناس والعفة عن المال العام والإقتصاد فيه . ومن واجباتها صيانة الأمن وإنفاذ القانون ونشر التعليم وإعداد القوة وحفظ الصحة ورعاية المنافع العامة وتنمية الثروات وحراسة المال وتقوية الأخلاق ونشر الدعوة ومن حقها - متى أدت واجبها - الولاء والطاعة والمساعدة بالنفس والأموال فاذا قصرت فالنصح والإرشاد ثم الخلع والإبعاد ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

٦- وإعادة الكيان الدولي للأمة الإسلامية بتحرير أوطانها وإحياء مجدها وتقريب ثقافاتها وجمع كلمتها حتى يؤدي ذلك إلى الخلافة المفقودة والوحدة المنشودة .

٧- وأستاذية العالم بنشر دعوة الإسلام في ربوعه «حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله» «ويأبى الله إلا أن يتم نوره» وهذه المراتب الأربعة الأخيرة تجب على الجماعة متحدة وعلى كل أخ باعتباره عضواً في الجماعة وما أثقلها تبعات وما أعظمها مهمات يراها الناس خيالاً ويراها الأخ المسلم حقيقة ولن نيأس أبداً ولنا في الله عظيم

الأمل «والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون» .

يقول الإمام الشهيد في رسالة دعوتنا في طور جديد : «إننا نتحدى بدعوتنا منهج الدعوة الأولى ونحاول أن تكون هذه الدعوة الحديثة صدى حقيقياً لتلك الدعوة التي هتف بها الرسول صلى الله عليه وسلم في بطحاء مكة قبل مئات السنين فما أولانا بالرجوع بأذهاننا وتصوراتنا إلى ذلك العصر المشرق لنور النبوة الزاهي بجلال الوحي لنقف بين يدي الأستاذ الأول وهو سيد المربين وفخر المرسلين الهادين لنتلقى عنه دروس الإصلاح من جديد وخطوات الدعوة من جديد» في رسالة المؤتمر الخامس يحدد الإمام الشهيد خصائص دعوة الإخوان المسلمين فيقول تحت عنوان التدرج في الخطوات !!

وأما التدرج والإعتماد على التربية ووضوح الخطوات في طريق الإخوان المسلمين فذلك أنهم اعتقدوا أن كل دعوة لابد لها من مراحل ثلاث : مرحلة الدعاية والتعريف والتبشير بالفكرة وإيصالها إلى الجماهير من طبقات الشعب ثم مرحلة التكوين وتخير الأنصار وإعداد الجنود وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعوين ثم بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والإنتاج وكثيراً ما تسير هذه المراحل الثلاث جنباً إلى جنب نظراً لوحدة الدعوة وقوة الارتباط بينهما جميعاً .

فالداعي يدعو وهو في الوقت نفسه يتخير ويربي وهو في الوقت عينه يعمل وينفذ ولكن لاشك في أن القضية الأخيرة أو النتيجة الكاملة لا تظهر إلا بعد عموم الدعاية وكثرة الأنصار ومتانة التكوين .

وبعد أن يذكر كيف سارت الدعوة في المرحلتين الأولى والثانية يقول : «بعد أن نطمئن على موقفنا من هذه الخطوة الثانية نخطو إن شاء الله الخطوة الثالثة وهي العملية التي تظهر بعدها الثمار الكاملة لدعوة الإخوان المسلمين .

ثم يقول تحت عنوان مصارحة : «أيها الإخوان المسلمون وبخاصة المتحمسون والمستعجلون منكم اسمعوها مني كلمة عالية داويةمن فوق هذا المنبر في مؤتمركم هذا الجامع ، إن طريقكم هذا مرسومة خطواته موضوعة حدوده ولست مخالفاً هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول ، أجل قد تكون طريقاً

طويلة ولكن ليس هناك غيرها ، إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقطف زهرة قبل أوانها فلست معه في ذلك بحال ، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات . ومن صبر معي حتى تنمو البذرة وتنبت الشجرة وتصلح الثمرة ويحين القطاف فأجره في ذلك على الله ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين : إما النصر والسيادة وإما الشهادة والسعادة .

أيها الإخوان المسلمون : ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع واكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال الزاهية البراقة ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ولا تصادموا نواميس الكون فانها غلابة ولكن غالبوها واستخدموها وحوّلوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض وترقبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد .

أيها الإخوان المسلمون : إنكم تبتغون وجه الله وتحصيل مثوبته ورضوانه وذلك مكفول لكم مادمتم مخلصين ولم يكلفكم الله نتائج الأعمال ولكن كلفكم صدق التوجه وحسن الاستعداد ونحن بعد ذلك إما مخطئون فلنا أجر العاملين المجتهدين وإما مصيبون فلنا أجر الفائزين المصيبين على أن التجارب في الماضي والحاضر قد أثبتت أنه لا خير إلا في طريقكم ولا انتاج إلا مع خطتكم ولا صواب إلا فيما تعملون فلا تغامروا بجهودكم ولا تقامروا بشعار نجاحكم واعملوا والله معكم ولن يتركم أعمالكم والفوز للعاملين «وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم» .

على ضوء هذا التصور لدى الإمام الشهيد وعلى تحديد سيد قطب تمت دراسة عميقة لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وللتاريخ الإسلامي والتجارب الإنسانية فكان لابد من التدرج في الخطوات إلى أن كانت الصحوة الإسلامية الحالية التي هي نتيجة طبيعية للعمل المثابر المتواصل المخلص من الجيل الأول للحركة الإسلامية في فلسطين بعد ١٩٦٧م والذي لم يكن بمعزل عن التأثر بتجربة الإخوان المسلمين الضخمة في مصر وغيرها من بلدان الإسلام وكذلك كان امتداداً للصحوة الإسلامية في انحاء العالم الإسلامي .

كان طبيعياً أن تؤثر الدعوة في البداية العمل بصمت تلاحظ التيارات الجارية ولا تصطدم معها ريثما يشتد عودها وقد كان شعار الدعوة الآية الكريمة «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» حتى إذا بدأت بعض الثمار تنضج كان لابد من أن تحاول الحركة الإسلامية الخروج من الإطار الضيق إلى إطار أفسح نتيجة للعمل السياسي والتأثير الجماهيري فدخلت المؤسسات والنقابات وشاركت في التظاهرات السياسية والاضرابات وكان أبرز أدوارها المبكرة هو مشاركتها الفاعلة والرئيسية في إضراب الجمعية الطبية في ٨١/١١/٢٦ الذي اجتاح قطاع غزة لمدة ٢١ يوماً أضربت فيها كل فئات الشعب ولم تشهد له الأرض المحتلة مثيلاً منذ سنة ١٩٤٨م. تلا ذلك المظاهرات التي خرجت في الضفة والقطاع على أثر اقتحام أحد اليهود «جودمان» للمسجد الأقصى والإعتداء على المصلين بالرصاص وقتل بعضهم وأصابة البعض الآخر مع إصابة الصخرة المشرفة في ٨٢/٤/١١ . كان هذا الحادث كفيلاً لإشعال الأرض المحتلة عن بكرة أبيها بالتظاهر وقذف الجنود اليهود بالحجارة وسقوط العديد من الشهداء والجرحى ولم تستطع السلطات المحتلة السيطرة على الوضع إلا بعد فرض منع التجول على كل قطاع غزة لعدة أيام وكذلك بعض المناطق في الضفة الغربية وكان للحركة الإسلامية الدور الرئيسي فيها . وكذلك أحداث جامعة بيرزيت في سنة ١٩٨٦م التي استشهد فيها شابان من شباب الحركة الإسلامية .

وأخيراً الانتفاضة العارمة التي شهدتها الأرض المحتلة في ١٩٨٧/١٢/٩م والتي اشعلتها الحركة الإسلامية والتي أحدثت تغييراً نوعياً في المجتمع الفلسطيني وسيكون لها أبعادها المستقبلية باذن الله .

وأهم ما يميز العمل الجماهيري الإسلامي أنه في تصاعدٍ مستمر ففي كل مرة تكون أعنف من السابق وهذا يتسق مع التدرج الذي سلكته الحركة الإسلامية عبر مسيرتها الطويلة .

والآن ما هي آفاق المستقبل للحركة الإسلامية وكيف سيكون دورها في تحرير فلسطين بعد وصولها إلى هذه الدرجة والمستوى من طريقها الطويل ؟؟

ليس للحركة الإسلامية الخيار في أن تجاهد أو لا تجاهد من أجل فلسطين بمعنى آخر طالما أنها حركة إسلامية فتخليص فلسطين يعتبر من أهم واجباتها . وبعد دراسة موضوعية للقضية الفلسطينية وللواقع الراهن للأمة الإسلامية سنبحث واجبات الحركة الإسلامية في مجالين للجغرافيا دور كبير في تحديدهما :

المجال الأول - دور الحركة الإسلامية في الأرض المحتلة - «فلسطين» .

المجال الثاني - دور الحركة الإسلامية خارج الأرض المحتلة - «العالم الإسلامي» .

إن تحرير فلسطين من الهجمة العالمية التي تقوم بها كل قوى الشر الصهيونية والصليبية والشيوعية يجب أن يواجه بتكاتف الجهد الإسلامي في كل مواقع العمل الإسلامي . ولدى المسلمين من الإمكانيات ما يكفي لتحرير فلسطين والانطلاق لتحرير الأرض كل الأرض من رجس الكفر إذا أخلصت النيات وأحسن التوجه إلى الله وأُخذ بالأسباب «ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوي عزيز» .

الفصل الثاني

واجبات الحركة الإسلامية في الأرض المحتلة

إن تحقيق الانتصار على العدو يتطلب السير في جبهتين في آنٍ واحد الأولى جبهتك الداخلية بأن تحقق غاية ماتستطيع من أسباب القوة الإيمانية الروحية والوحدوية ثم المادية «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» وكما يقول الإمام الشهيد حسن البنا : «إن أول درجة من درجات القوة قوة العقيدة والإيمان ويلي ذلك قوة الوحدة والارتباط ثم بعدها قوة الساعد والسلاح ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوافر لها هذه المعاني جميعاً وانها إذا استخدمت قوة الساعد وهي مفككة الأوصال مضطربة النظام أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان فسيكون مصيرها الفناء والهلاك» رسالة المؤتمر الخامس . والجبهة الثانية هي أن تُضعف عدوك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً وهذان المحوران يجب أن يكونا هدف الحركة الإسلامية في داخل فلسطين .

كما أسلفنا الجهاد في فلسطين مسألة مفروغ من وجوبها ونحن إذا أخذنا الجهاد بمفهومه الواسع وهو بذل الجهد في سبيل الله وفهمنا أن أعلاهُ هو الجهاد بالسيف لايمكن أن يقوم إلا بالاعداد المسبق فيجب أن يسير الجهاد في المسار التالي :

أولاً : بعث الروح الإسلامية في الشعب الفلسطيني داخل الأراضي المحتلة وقد سارت الحركة الإسلامية شوطاً جيداً في ذلك إلا أن هذا العمل يجب ألا يتوقف حتى يصبح الشعب الفلسطيني كله يسير في إتجاه الإسلام وهذا يتطلب المراحل الثلاث التي ذكرها الإمام الشهيد وهي التعريف والتكوين والتنفيذ ونبدأ عادة بالتعريف ولكن في بعض المراحل يكون التنفيذ «القيام بالعمل المسلح» أحد وسائل التعريف بالفكرة الإسلامية وهو ما يسمى «بالدعاية المسلحة» وعلى هذا يجب بذل الجهد في تعريف الناس بدينهم عبر المساجد وأماكن التجمع والصحافة والحوار والنقاش والتظاهر وإحياء المناسبات الإسلامية والأفراح الإسلامية ونشر الزي الإسلامي للنساء ونشر العادات الإسلامية في المدارس والمجتمعات ومحاربة الرذيلة بشتى أنواعها من الاختلاط في المدارس والجامعات وبيع الخمور والمخدرات والقضاء على أوكار الزنى والعمالة وتبني كل

وسيلة من الممكن أن تقرب الناس من دينهم .

ثانياً : تكوين الفرد المسلم تكويناً جيداً عبر التربية المستمرة والسليمة بحيث يقوى عقيدياً وأخلاقياً وجسدياً وتربيته تربية جماعية إسلامية . يقول الإمام الشهيد حسن البنا : «إن ميدان القول غير ميدان الخيال وميدان العمل غير ميدان القول ، وميدان الجهاد غير ميدان العمل وميدان الجهاد الحق غير ميدان الجهاد الخاطىء . يسهل كثيراً أن تتخيلوا ولكن ليس كل خيال يدور بالبال يستطاع تصويره أقوالاً باللسان وإن كثيرين يستطيعون أن يقولوا ولكن قليلين من هذا الكثير يثبتون عند العمل وكثير من هذا القليل يستطيعون أن يعملوا ولكن قليلاً منهم يقدرون على حمل أعباء الجهاد الشاق والعمل العنيف وهؤلاء المجاهدون وهم الصفوة القلائل من الأنصار قد يخطئون الطريق ولا يصيبون الهدف إن لم تتداركهم عناية الله عز وجل وفي قصة طالوت بيان لما أقول . فأعدوا أنفسكم وأقبلوا عليها بالتربية الصحيحة والاختبار الدقيق وامتحنوها بالعمل ، العمل القوي البغيض لديها الشاق عليها وأفطموها عن شهواتها ومألوفاتها وعاداتها ، وفي الوقت الذي يكون فيه منكم - معشر الإخوان المسلمين - ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها روحياً بالإيمان والعقيدة وفكرياً بالعلم والثقافة وجسمياً بالتدريب والرياضة . في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجج البحار وأقتحم بكم عنان السماء وأغزو بكم كل عيد جبار ، فاني فاعل إن شاء الله وصدق رسول الله القائل «ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة» رسالة المؤتمر الخامس .

وبالطبع هذا الرقم الذي حدده الإمام وهو نابع من حديث رسول الله لا يلزم الحركة الإسلامية ألا تقاتل قبل بلوغه ولكنه الحد الذي حدده رسول الله الذي لا يهزم نتيجة قلة عدده وإنما تكون هزيمته نتيجة خلل في تكوينه وعقيدته وأخلاقه «كما حصل للجيوش العربية» فقد قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيشه ثلاثمائة رجل والمسألة مسألة اجتهاد .

والتكوين الفردي للشخصية الجهادية يتطلب التدريب على :-

١- تقوى الله ومحاسبة النفس وضبط الشهوة ٢- حماسة القلب ٣- الصبر والثبات

٤- التضحية بالنفس والمال ٥- الطاعة والتنظيم ٦- الحذر واليقظة

٧- التخلص من الأفكار السلبية المعطلة .

والتكوين الجماعي للشخصية الجهادية يتطلب التربية على :

١- الوحدة ٢- توثيق الرابطة ٣- إخلاص الولاء لله ولرسوله

٤- الاستقلال والتميز ٥- إعلاء القيم الجهادية ٦- التنظيم ٧- الإعداد المادي

يُراجع كتاب «أثر التربية الإسلامية في تكوين الشخصية الجهادية» للدكتور محمد نعيم ياسين .

عملية التكوين والتربية أيضاً عملية مستمرة يجب ألا يغفل عنها في أي لحظة فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على تربية أصحابه في كل وقت حتى في أثناء المعركة واشتداد القتال وبعد المعركة والقرآن الكريم زاخر بهذه المعاني وهو يعالج نفسيان المؤمنين بعد غزوة بدر كما في سورة الانفال وبعد غزوة أحد كما في سورة آل عمران وغزوة حنين وتبوك في سورة التوبة . وغيرها وتحت عنوان «ماذا نعني بالتربية الجهادية» يقول الاستاذ فتحي يكن «التربية الجهادية لا تعني بحال إسقاط جوانب التربية الأخرى من الحساب ... لا تعني التفرغ للتربية العسكرية وشؤون القتال .. لاتعني أهمال التربية الروحية والفكرية وإغفال التربية السياسية والحركية . وإنما تعني تأصيل الروح الجهادية لدى الفرد والجماعة وجعل هذه الروح وشيجة الربط بين سائر الاهتمامات بالجوانب الرئيسية لها .

تعني إيجاد الإنسان الذي يعيش من أجل الإسلام .. الإنسان الذي يدرك عظمة دوره وخطورته ودقته فهو لا يتوانى يهيىء نفسه ويستعد للقيام بهذا الدور على أكمل وجه الإنسان المعلق قلبه بالله وبالآخرة ، فهو لا يعيش لدنياه مقدماً فضول الوقت والجهد لآخرته ودعوته .. الإنسان المتلهف إلى الشهادة في سبيل الله والذي يعيش حقيقة الشعار الذي يردده «الموت في سبيل الله أسمى أمانينا» .

إن التربية الجهادية هي التربية الي تجعل الإنسان كائناً ما كان اختصاصه وعمله مجاهداً في سبيل الله مسخراً اختصاصه للجهاد في سبيل الله فهو عالم ومجاهد ، وهو طبيب ومجاهد ، وهو كاتب ومجاهد وهو مهندس ومجاهد وهو معلم ومجاهد وهكذا

يكون الجهاد السمة المميزة والقاسم المشترك بين هؤلاء جميعاً .

إن التربية الجهادية توجب إعطاء مساحة أكبر من الإهتمام بأمرين أساسيين :

أولاً : الاهتمام بالنفس بربطها بالله ، والشوق إلى لقائه والموت في سبيله وبالتالي صونها عن كل ما يركن بها إلى الأرض وشهواتها ولو كان حلالاً طيباً وبذلك تكون نفساً مجاهدة .

ثانياً : الإهتمام بالجسد فيكون معافى قوياً يمتلك كل إمكانات الدفاع والهجوم وخبرات الدفاع والهجوم وخاصة في عصر تعددت فيه هذه الخبرات والعلوم ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «من تعلم لغة قوم أمن مكرهم» - عن كتاب «أبجديات التصور الحركي الإسلامي» ص ٨٩-٩٠ .

وهكذا عن طريق البعث الإسلامي وتوسيع قاعدته وعن طريق التكوين والتربية المستمرة تضمن الحركة الإسلامية استمرار الجهاد وتصعيده مهما كانت التضحيات .

إن أخطر ما واجهته الحركة الوطنية في حربها مع العدو هو اختراقها من قبل أجهزة المخابرات المعادية والتربية الإسلامية الجهادية هي خير وسيلة لتجنب ذلك ، لايعني هذا أن من المستحيل إختراق العمل الإسلامي فهو ليس مجتمع ملائكي ولكن إمكانية إختراق العمل الإسلامي القائم على التربية الجيدة تكون أكثر صعوبة بكثير على مخابرات العدو .

إن أهم أسباب الإسقاط الأمني التي تستخدمها المخابرات الصهيونية هي الإسقاط الأخلاقي يوقعون الشباب في الزنى و المخدرات فيكون فريسة سهلة لهم ، والتربية الإسلامية هي الرد الصحيح لقفل هذا الباب في وجه الإسقاط الأمني .

ثالثاً : ممارسة العمل المسلح :

أهميته : إن أهمية ممارسة العمل المسلح تكمن في :

١- انها قيام بفريضة الله عز وجل «الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة لا يبطله عدل عادل ولا جور جائر . إن كل المسلمين اليوم آثمون في قعودهم عن الجهاد في فلسطين إلا من هو سائر في هذا الطريق «من مات ولم يغزُ ولم تحدثه به نفسه مات على شعبة من النفاق» رواه مسلم وأبو داود .

وهكذا فالجهاد واجب لارضاء الله عز وجل ولرفع غضبه عن الأمة الإسلامية المقصّرة .

٢- إبقاء القضية الفلسطينية حيّة في قلوب المسلمين فان أهم أهداف اليهود الآن هي فرض تقبّل الأمر الواقع على المسلمين وقد قبلت بذلك الدول العربية والكثير من أبناء الشعب المسلم نتيجة للتجهيل واليأس .

الجهاد في فلسطين يذكر القلوب الغافلة من أبناء المسلمين ويشعرهم بما يدبر لهم اليهود من الإذلال . إنه ليس كالصراع محركاً للمشاعر المخدّرة وقديماً قيل : «إن وجود الظلم لا يولد الثورة ولكن الشعور بالظلم هو الذي يولد الثورة» وعن طريق الجهاد المسلح نوقظ الشعور المخدر في نفوس المسلمين التي استكانت إلى الذل ورضيت بالحياة الدنيا واطمأنت بها .

٣- إن الجهاد المسلح في حرب فلسطين يبقي الأمل في نفوس المسلمين بامكانية التحرير . ويوحي بأن المسلمين لن يستكينوا مهما قوي عدوهم ومهما ساندته كل قوى الشر والباطل ، إنه دليل على أن هناك حياة في هذا الجسد الممدد. إن وجود فئة مجاهدة في فلسطين على الرغم من كل وسائل القمع الصهيوني هو دليل على أن الأمة لن تستكين لهذا العدوان وهذا الظلم طويلاً وكثيراً مايبدأ السيل القوي بقطرات المطر.

٤- إنه من لوازم التربية الإسلامية والتكوين الإسلامي ، فبدون ممارسة القتال تظل هذه التربية نظرية إن إنتماء الإنسان إلى جماعة تمارس الجهاد المسلح حقيقة وليس إعلاماً يجعله دائماً متحفزاً مستعداً للقاء الموت ويعرف أن دوره آت ليقدم روحه في سبيل الله وهي بذلك تخدم في تنقية الصف من الوصوليين والانتهازيين والضعفاء .

٥- إن وجود فئة إسلامية متميزة باسلامها تمارس الجهاد بصدق ومثابرة سيكون له أبلغ الأثر في إيقاظ روح الإسلام في أبناء الأمة سواء على مستوى الأرض المحتلة أو في أنحاء العالم الإسلامي ، فهذا نور الدين زنكي حين بدأ بأعماله الجهادية في الشام ضد الصليبيين رأينا أهل بغداد يقفون بباب الخليفة يطالبونه بتجنيد الجيوش لدعم نور الدين وهتفوا به صائحين «وإسلاماه ودين محمداه» .

وشرط مهم لحصول الصحوة الإسلامية أن تكون هذه الفئة متميزة باسلامها ولا

تعتمد في تمويلها إلا على ذاتها حتى يكون قرارها مستقلاً ولا تتحكم فيها الأنظمة .
لا بأس أن تبدأ هذه الفئة بدايات بسيطة بامكانياتها الذاتية وتطور قدراتها مع الزمن .
المهم أن تحافظ على استقلالها باستمرار وتستمد عونها من الله .

٦- إن للحركة الإسلامية في الأرض المحتلة دور مهم في عملية التحرير الكبرى حين قدوم الجيش الإسلامي بعد تكوين الدولة الإسلامية وهذا الدور هو في ضرب القوات الصهيونية من الخلف وما لم تكن الخبرة القتالية الكافية والممارسة الجهادية العملية متوفرة عبر سنين طويلة سيكون من الصعب مساندة هذا الجيش . وحين نذكر هذه الأهمية نذكر أن تركيا صمدت في وجه محاولات الانجليز احتلال الشام طويلاً ولكن حين قام فيصل بن الحسين وأثار السكان في الشام وقام بجيشه بحرب العصابات في مؤخرة الجيش التركي فانهار الجيش التركي . وكذلك كان من أهم أسباب سقوط ألمانيا في الحرب العالمية الثانية الثورات المسلحة وهو حرب العاصابات التي كان يقوم بها سكان المناطق المحتلة .

وعند قراءة هذه الفقرة قد يستغرب البعض هذا الطرح ويعتبرون أن هذا مبكر جداً فان الجيش الإسلامي لا يلوح في الأفق . أقول : إن الأرض الإسلامية تموج بالحركة وميلاد الجيش الإسلامي لن يكون بعيداً باذن الله «ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً» .

٧- إن دول المنطقة الهزيلة متهالكة على عقد أي صفقة مع إسرائيل من أجل الحفاظ على ذاتها وهي في سبيل عقد هذه الصفقة لا تتورع عن بيع فلسطين بمصالح إقليمية من أجل الحفاظ على الحكم كما فعل السادات في كامب ديفيد وكما ينوي أن يفعل غيره ووجود حركة إسلامية مسلحة في الأرض المحتلة سوف يحبط هذه المخططات ويكشف القناع عن الذين يطرحونها وتعريهم أمام شعوبهم .

إن عقد أي صفقة بين هذه الأنظمة وإسرائيل سيؤخر عملية البعث الإسلامي إذ ستتفرغ هذه الأنظمة لسحق الحركة الإسلامية بناء على طلب من إسرائيل كما فعل السادات حين اعتقل كل القيادات الإسلامية قبل اغتياله بشهر بعد أن احتج مناحم بيغين على دور الحركة الإسلامية في مصر المعادي لإسرائيل وحينها بدلاً من أن

يُجاهد المسلمون في فلسطين سوف يكون جهادهم لأثبات حقهم في فلسطين الذي ضيعته هذه الأنظمة .

يجب أن تمنع الحركة الإسلامية بكل الوسائل الاعتراف بأن أرض فلسطين أو أي جزء منها لليهود وما لم تكن الحركة الإسلامية مقاتلة فانها لن تستطيع ذلك .

٨- إن إسرائيل منذ بداية الفكرة الصهيونية وحتى قيام دولة إسرائيل وبعد قيام الدولة قائمة أساساً على فكرة الهجرة اليهودية إلى فلسطين وكلما كانت دولة إسرائيل قوية ومستقرة تزداد نسبة هذه الهجرة وتزداد نسبة توظيف الأموال العالمية فيها وبالذات الأموال اليهودية ولذلك يجب على الحركة الإسلامية ألا تشعر اليهود بالاستقرار لان ذلك سيؤدي إلى تقليل معدلات الهجرة هذا إن لم يؤد إلى الهجرة المعاكسة . إن اليهود هم كما وصفهم الله سبحانه «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة» ولذلك فان إيقاع الخسائر والأرواح عندهم يشرد من خلفهم وهذا من شأنه أن يحد من نمو المجتمع الصهيوني ويوقف شهيته التوسعية ولقد قال بن جوريون بعد حرب ٦٧ : «أخبر الغرب أن يُرسل لي أربع ملايين من اليهود» طبعاً ليعمر المناطق التي احتلتها .

لقد كانت أعلى معدلات الهجرة بعد انتصار اليهود في حرب ٤٨ وكذلك بعد انتصارهم في حرب ٦٧ وكان أدنى معدلات هو بعد حرب اكتوبر .

إن إيقاف الهجرة أمر حيوي فبدلاً من أن يُواجه الجيش الإسلامي دولة مكونة من عشرة ملايين يُواجه دولة ذات ٤ ملايين أو أقل . وقد يُقال : أن التكنولوجيا الحديثة عوضت في ساحة القتال عن الطاقة البشرية ولكن هذه المقولة ليست صحيحة على إطلاقها فلا زال للعامل البشري الدور الأساسي لكل الحروب .

٩- التدمير الإقتصادي للكيان الصهيوني : على الحركة الإسلامية في الأرض المحتلة أن تقوم بتدمير البنية الإقتصادية للكيان وهي التي تمد آلة الحرب الصهيونية بالمال والطاقة اللازمة ورغم كل ما يُقال من الدعم الأمريكي والغربي لليهود فان لديهم قاعدة إقتصادية قوية وهم يحلمون بالاكتفاء الذاتي والذي يجعلهم في حاجة للغرب وهو كثرة النفقات العسكرية . فعن طريق التدمير المؤثر للمؤسسات الصناعية

والمحاصيل الزراعية نستطيع أن نُصيب الدولة اليهودية في مقتل فمال اليهودية أهم عليه من روحه وصدق فيهم الشاعر :

عبيد المال ما عبدوا سواه - - - له تسبيحهم وله الركوع

إذا رنت دراهم من بعيد - - - أصابهم لرنتها خشوع

إن اليهود سيضطرون لإجراءات حماية إضافية وهذا سيزيد في كُلفة الصناعة عندهم ويؤثر على النمو الإقتصادي للشعور بعدم الاستقرار فتقل نسبة الاستثمار وكما يقولون : «إن رأس المال جبان» بمعنى أن أصحاب رؤوس الأموال يبحثون دائماً عن الاستقرار ليضمنوا سلامة أموالهم ولنضرب مثالاً واحداً على ذلك : انتشرت ظاهرة سرقة السيارات وبيعها كقطع غيار من داخل الأراضي المحتلة دون شك لم يكن الدافع وطنياً أو سياسياً كما حصل ؟ لقد أفلست شركات تأمين السيارات في إسرائيل نتيجة لذلك فماذا لو امتدت يد التدمير إلى مصادر أُخرى ؟ إنه سيكون لها أثر بالغ ولاشك على الإقتصاد الإسرائيلي مهما جاءه من الدعم على شرط أن يكون العمل مؤثراً .

١٠- وهناك نوع من الجهاد يسمى الجهاد السلبي وهو داخل الأرض المحتلة لايقل أهمية عن الجهاد المسلح . ونعني بالجهاد السلبي مقاطعة العمل الإسرائيلي والبضائع الإسرائيلية ورفض دفع الضرائب للدولة اليهودية . نعلم أن ذلك الأمر ليس بالسهل ، لقد حاولت إسرائيل بكل الوسائل منذ سنة ٦٧ ربط الإقتصاد في الأرض المحتلة بعجلة الإقتصاد الإسرائيلي واستغلت المناطق المحتلة كسوق استهلاكي للبضائع الصناعية والزراعية والإسرائيلية وكمصدر لليد العاملة الرخيصة وبالذات في المجالات التي يترفع عنها العامل الإسرائيلي كمجالات البناء والنظافة والزراعة اليدوية . فشكلت تبعية إقتصادية كاملة بالإضافة إلى العامل النفسي وهو الشعور بالدونية وعملت على منع أي تطوير للصناعة في الأرض المحتلة إلا في مجالات هامشية وعملت على تضيق الخناق على منتوجات الأرض المحتلة وبطبيعة الحال تم ذلك بتخطيط محكم وبقدرة الدولة وسيطرتها لتنفيذ ما تريد وبعجز المواطن المسلم حين يفقد الروح الجهادية والجماعية عن التحدي .

إن القيام بهذا الدور ليس سهلاً ويتطلب وقتاً وجهداً كبيرين والأهم من كل ذلك إنه يتطلب وعياً كاملاً من الجماهير وإرادة جهادية عالية . وهذا لايتم إلا عن طريق الإسلام حين نعلم الجماهير أن تُقلل من استخدام الكماليات التي تستورد كلها من إسرائيل ونبعدهم عن عادات المباهاة والإسراف والقناعة بالقليل فانهم لن يضطروا للعمل في إسرائيل إلا نادراً . إن هذا الأمر لايأتي بالقوة كما حاولت بعض القوى فرض ذلك ولكن بالوعي الجماهيري الإسلامي الذي يشعر أن كل تعاون مع اليهود فانه رجس . ونجد مثلاً أن العامل سيقتنع بالعمل في أرضه بنصف الأجر ولا يذهب للعمل في إسرائيل وفي وكذلك توعية أصحاب رؤوس الأموال والأراضي بضرورة عدم إستغلال اليد العاملة لمصالح أنانية وهؤلاء إن لم يجدِ معهم الإحسان والكلمة الطيبة فاستخدام القوة والتخويف أمر ضروري ولا حرج في ذلك . المهم أن نبدأ خطوة خطوة على طريق الوعي والتربية الإسلامية وسنصل باذن الله .

١١- ككل بلد محتل في الدنيا تعمل السلطات المحتلة إلى تجنيد عملاء لها في كل قطاع من قطاعات الشعب المستعمر وقد قام اليهود في هذا المجال بما لم يقم به غيرهم فهم ملوك هذا العمل في العالم وبدأت المخابرات الصهيونية في تجنيد العملاء في كل المستويات للقيام بأدوار لا تقل خطورة عن أدوار الجيش الإسرائيلي إن لم تزد عليه ولنضرب مثلاً لا تتوانى التصريحات من زعماء الكيان الصهيون عن ترداد أن خير وسيلة للقضاء على الأرهاب «بزعمهم» هي الاستخبارات الجيدة . بمعنى زرع العملاء في وسط الشعب الفلسطيني واختراق العمل المسلح الفلسطيني واخذت العمالة أشكالاً وصوراً متعددة منها :

أ- المخبرون الذين يبلغون عن تحركات المقاتلين أو النشطاء السياسيين وهم منتشرون في جميع الأوساط .

ب- المجندون الذين يخترقون العمل الفدائي ويعملون داخله يتعرفون أسراره ويبلغونها للمخابرات فتحبط العمل المسلح وتعتقل العشرات وتضيع جهود ثمينة وهذا أخطر نوع وتعتمد عليه المخابرات الصهيونية إعتمادا وثيقاً .

ج- العميل الأخلاقي الذي يقوم بنشر الرذيلة والفساد كالاخلاقيات وتجار المخدرات والخمور والفرق الموسيقية وقد أثبتت التحقيقات أنهم مصدر رئيسي لتزويد المخابرات بالعملاء بعد اسقاطهم .

د- العميل الفكري : وتتمثل هذا الظاهرة في مجموعة من الكتاب والصحفيين هذفهم نشر روح اليأس تحت اسم تفهم الأمر الواقع وقتل روح الجهاد في الناس تحت اسم التعايش بين الشعبين العربي والإسرائيلي فضلاً عن نشر المواد اللاخلاقية والدعوات الهدّامة في المجتمع كما تفعل بعض المجلات النسائية وتقليعات ملكات الجمال والاباحية النسائية وكذلك الترويج للافكار الماركسية في وسط الشعب المسلم وكذلك نشر الفكر الغربي بكل انحلاله وبرغم نشر بعض المقالات الوطنية في بعض هذه المجلات حتى تأخذ حماية لها من المنظمات إلا أن غالبية ما تنشره له آثاره المدمرة على الفكر الإسلامي للشعب الفلسطيني .

هـ- العميل السياسي : وهو العميل الذي ينفذ المخططات الصهيونية وليس بالضرورة أن يكون مخبراً يدلي بمعلومات عن ثائر . هؤلاء يكمنون في مدراء الدوائر المختلفة كالتجارة والصناعة والتموين والبلديات والعمل والصحة والتعليم والشئون الإجتماعية وغيرها . إن هذه الدوائر محشوة حشواً بأمثال هؤلاء العملاء . واليهود لا يستطيعون تنفيذ سياستهم إلا عن طريق هؤلاء لانهم المنفذون الحقيقيون واليهود فقط للتخطيط . ولنضرب مثلاً باشاعة التعليم المختلط في الأرض المحتلة والذي لم يكن موجوداً في السابق وبالذات في المدارس الإعدادية والثانوية حيث تدمير أجيال المراهقين .

و- العميل الإقتصادي : وهو الذي يُسوّق المنتجات الإسرائيلية ويشجعها ويشكل أصحاب الوكالات في الغالب نموذجاً لذلك وإن يكن الكثير منهم يعملون دون وعي طمعاً في الربح المادي فقط ولكن عدم وعيهم لدورهم في تخريب الإقتصاد المحلي يصب في النهاية لمصلحة الكيان الصهيوني .

إن الجهاد ضد هذه الفئات أمر متحتم على الحركة الإسلامية حتى تحد من التأثيرات الهدامة لهؤلاء العملاء .

والجهاد يتخذ اشكالاً متعددة منها التوعية حتى لا يقع البسطاء في هذه الشباك ومنها التخويف لمن لا يردعه ضميره ومنها القتل لمن تورط في الاضرار المباشر باخوانه المسلمين .

إن مما ساعد على انتشار هذه الظاهره بهذه الكثافة الى درجة أن المخابرات صار عندها فائض من العملاء وصارت تسقط لمجرد الاسقاط والتخريب وإن مما ساعد على ذلك عدم وجود الرادع الموضوعي بالاضافة الى غياب التربية الذاتية . وإن تصفية مجموعة من هؤلاء العملاء وتعرية البعض الآخر كفيل أن يضيق الباب أمام ولوج غيرهم إن لم يكن اقفاله نهائياً .

الفصل الثالث

الحركة الاسلامية خارج الأرض المحتلة ودورها في قضية فلسطين

لقد تبين لنا من خلال استعراض القضية الفلسطينية من بدايتها ضخامة المسئولية الملقاة على عاتق المسلمين وحجم المواجهة المفروضة على الأمة الاسلامية من أعداء الله وأن المسألة ليست ثلاثة أو أربعة ملايين يهودي موجودين في فلسطين بل إن كل قوى الشر اليهودية والصليبية الشيوعية ترمينا عن قوس واحدة وأن المقصود من هذا الصراع ليست فلسطين وحدها وإن كان هذا الصراع يأخذ شكله الحاد في فلسطين باعتبار اسرائيل هي رأس الحربة الموجهة الى قلب الأمة الاسلامية وباعتبار وجود اسرائيل يظل عامل تعطيل وتخريب ضد أي نهضة اسلامية في المنطقة سواء على صعيد التحرر والبعث الاسلامي أو على صعيد التنمية الاقتصادية والتكنولوجية في العالم الاسلامي . ولنضرب بعض الأمثلة على دور اسرائيل التخريبي :

١- التخريب السياسي : إن زرع الكيان الصهيوني في قلب العالم الاسلامي يعتبر حاجزاً جغرافياً ضد توحيد العالم الاسلامي في آسيا وأفريقيا . ووجود اسرائيل كقاعدة للاستعمار يهدد كل محاولات الوحدة التي من الممكن أن تقوم بين الأجزاء الاسلامية التي فرض الاستعمار تقسيمها . كما أن لاسرائيل دور مدمر من خلال التجسس الذي تقوم به مخابراتها في كل الدول الاسلامية فتحبط من خلاله كل محاولات الاصلاح التي تقوم بها الحركات الاسلامية وقد سبق أن نبهت المخابرات الاسرائيلية دولاً عميلة لامريكا في المنطقة لمحاولات انقلابية ضد أنظمة الحكم فيها وليس أدل على ذلك من استعداد الجيش الاسرائيلي لدعم الملك حسين ضد الفدائيين في الأردن في أيلول الأسود سنة ١٩٧٠م حين بدأت بعض التحركات الاسرائيلية بالاضافة الى حاملات الطائرات الأمريكية في شرق المتوسط مما منع سوريا من التدخل لنجدة الفدائيين .

وكذلك لاسرائيل دور مهم في المحافظة على المصالح الأمريكية في المنطقة

الاسلامية فهي تستخدم كالسوط في تأديب من يخرج على طاعة أمريكا . ولهذا فان اسرائيل تبتز الولايات المتحدة الامريكية . وصرح أكثر من واحد من القادة الصهاينة عند توقيع الاتفاق الاستراتيجي بين أمريكا واسرائيل أن الاتفاق هو في صالح الولايات المتحدة أكثر مما هو في صالح اسرائيل وكذلك مشاركة اسرائيل في حرب النجوم . وكذلك يتم الدور الاسرائيلي في تحطيم البنية السياسية للمنطقة الاسلامية عن طريق تشجيع الطوائف غير الاسلامية في المنطقة وتشجيع اسرائيل للمسيحيين في لبنان أكثر من واضح في هذا المضمار بل إن الكثير من المسيحيين في لبنان ينظرون الى اسرائيل كنموذج يحتذى به للأقليات وكيف تقوم بحماية نفسها وبناء ذاتها كما صرح شارل مالك مندوب لبنان السابق في الأمم المتحدة . وكذلك فان اسرائيل تسعى لاقامة دولة درزية في جنوب سوريا حتى تكون حاجزاً بين سوريا والكيان الصهيوني وقيام اسرائيل باحتواء الدروز في فلسطين خير دليل على ذلك .

٢- **التخريب الإقتصادي** : إن وجود اسرائيل يمنع التكامل الاقتصادي بين الدول الاسلامية بقطعها لخطوط المواصلات . وكذلك فان ما تهدف اليه اسرائيل على المدى البعيد هو أن تكون قاعد متقدمة للتكنولوجيا الغربية بحيث تجعل المنطقة سوقاً استهلاكية لبضائعها وهذا ما تتطلبه من إجراءات التطبيع مع مصر بعد محادثات كامب ديفيد .

وكذلك أن تكون محور التكامل الإقتصادي في المنطقة بعد القبول السياسي من قبل العرب بوجود الدولة اليهودية ويدل على ذلك المنافسة الإقتصادية التي تقوم بها إسرائيل للمنتوجات العربية في أفريقيا خير دليل على الدور الإقتصادي الخطير الذي تلعبه إسرائيل في المنطقة .

٣- **التخريب العسكري** : إن قيام إسرائيل في حد ذاته يعتبر عملاً عدوانياً على الأرض الإسلامية فكيف وقد قامت منذ نشأتها بشن الحروب على الدول المجاورة في ٥٦ ، ٦٧ ، إن قراءة مذكرات قادة الصهاينة أمثال بن جوريون وموشى ديان وغيرهم تؤكد ذلك فهم يعتبرون أن امتلاك الدولة العربية للسلاح مجرد إمتلاك يعتبر عملاً عدوانياً ضد إسرائيل ولذلك تحركت إسرائيل في ٥٦ حين وصلت كميات من الأسلحة

للجيش المصري ثم تحركت فضربت الجيش المصري قبل أن يستوعب هذه الأسلحة وتحت اسم الحرب الوقائية ، فان وجود إسرائيل يحتم ضرب أي بلد في المنطقة يستطيع أن يطور جيشاً حديثاً . فمثلاً ضرب المفاعل النووي العراقي يعتبر دليلاً على ذلك وكذلك محاولة إسرائيل التعاون مع الهند لضرب المفاعل النووي الباكستاني الذي يبعد عن إسرائيل آلاف الأميال . وكذلك معارضة إسرائيل المستمرة لتزويد أي دولة من دول المنطقة بالسلاح يؤكد على هذه الحقيقة .

٤- التخريب الفكري والعقائدي : أسلفنا فيما سبق عن دور الإستعمار الغربي في هذا المجال وإسرائيل تعتبر القاعدة المتقدمة لذلك فهذه بروتوكولات حكماء صهيون تؤكد على هذا الدور التخريبي . وكذلك تشجيع الحركة الماسونية للإفساد العقائدي والفكري وما تفرع عن الحركة الماسونية من أندية الروتاري والليونز وكذلك تشجيع إسرائيل للحركات الهدامة للاسلام كالبهائية والقاديانية التي تعتبر إسرائيل قاعدتها الرئيسية وكذلك رعاية الصهيونية العالمية لدور السينما والصحافة والمسرح والأغاني الخليعة عن طريق عملائها يؤكد الدور التدميري للكيان الصهيوني .

٥- التخريب الأخلاقي : أن ما تقوم به إسرائيل من تخريب الأخلاق في المناطق المحتلة يعتبر مقدمة لما سيحصل للمسلمين إذا قبلوا بوجود إسرائيل بينهم . فستصبح محطة غربية للجنس والخمور والمخدرات في المنطقة توفر على المنحلين الذهاب إلى أوروبا .

٦- إعاقة التنمية في المنطقة الإسلامية : إن إنشغال الدول الإسلامية للدفاع عن نفسها ضد إسرائيل يزيد كلفة هذه الدول الحربية على حساب الموارد الإقتصادية مما يشكل عائقاً أمام إستخدام رؤوس الأموال هذه في مجالات التنمية خصوصاً إذا رأينا بلداً كمصر مثلاً خاضت عدة حروب خرجت فيها خاسرة مع إسرائيل فضاعت نفقاتها العسكرية هباءً مما جعل مصر تغرق في الديون وهذا ما حدا بالسادات أن يركع على ركبتيه أمام الضغط الصهيوني ونتيجة لهذه الديون فان أي محاولة للتصنيع أوالتنمية الزراعية فانها ستحبط بالاضافة إلى أن إسرائيل تعتبر أن أي عمل تكنولوجي للدول العربية عملاً عدوانياً ضدها يستعمل للعدوان عليها فستضربه من البداية .

٧- **تكريس التبعية :** إن الدول العربية وهي محتاجة إلى السلاح في صراعها مع إسرائيل تضطر إلى اللجوء إلى هذا الطرف أو ذاك للحصول على السلاح وفي غياب الإدارة الإسلامية الصحيحة فان الدول العربية أصبحت تابعة بشكل مباشر للدول التي تمولها بالسلاح فتجد هذه الدولة تابعة لروسيا وتلك لأمريكا وتلك لبريطانيا وهلم جرا ومن المعروف أن وجود الشيوعية في المنطقة الإسلامية مرهون بوجود إسرائيل فالشيوعية لم تستطع أن تتغلغل في المنطقة إلا بعد صفقات السلاح التي جاءت بها إلى المنطقة وعن طريق هذا الحلف الإستراتيجي المزعوم تقوم الأحزاب الشيوعية في المنطقة بنشر هذه الفكرة الآثمة .

ولذلك فعلى الحركة الإسلامية وهي تتصدى لتحرير فلسطين أن تأخذ في إعتبارها كل هذه الإعتبارات إن تحرير فلسطين ليس واجباً فقط على الحركة الإسلامية بل هو ضرورة أساسية لعملية النهضة الإسلامية في المنطقة . فان أي نهضة إسلامية في المنطقة ستحارب محاربة شرسة من قبل الصهيونية فهناك علاقة متبادلة بين عملية التحرير والنهضة والحركة الإسلامية مطالبة بالقيام بهما معاً لأنهما لن يتما إلا معاً فلا نهضة حقيقية مع وجود إسرائيل ولا تحرير حقيقي بدون نهضة إسلامية .

وكذلك فان الحركة الإسلامية في فلسطين وحدها لا تستطيع القيام بتحرير فلسطين أمام الدعم العالمي الذي تتلقاه إسرائيل من قوى الباطل . فلابد أن تقوم إستراتيجية إسلامية عالمية في وجه العدوان العالمي على فلسطين ولابد أن يأتي الجيش الإسلامي العظيم ليحرر فلسطين فيجد أمامه أبناء فلسطين يقومون بواجبهم وبدورهم في عملية التحرير وأمام هذا المد الإسلامي لن تستطيع كل قوى البغي أن تصمد « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز » إذن لابد من قيام دولة إسلامية قوية تحمل الإسلام حملاً حقيقياً تعتبر تحرير فلسطين واجباً شرعياً وليس مسألة مواساة ببعض الخيام والدواء والدقيق .

يقول الزعيم التركي المسلم نجم الدين أربكان بعد الإنتصار الذي حققه في قبرص وسأله أحد الصحفيين كيف ستحرر فلسطين فقال : لابد من الإعتماد على

الذات في صناعة السلاح أولاً - لأن أمريكا منعت إمداد السلاح عن تركيا بعد غزوها لقبرص رغم أنها عضو في حلف الأطلسي ، ثم تحرير الدول المحيطة بفلسطين من الأنظمة العميلة وبعد ذلك نتوجه لتحرير القدس .

إستراتيجية الحركة في التحرير :

لقد سبق أن عرضنا إستراتيجية صلاح الدين في تحرير فلسطين وهذه تصلح مع مراعاة الواقع الجديد لأن تكون اساساً للتحرير الجديد فلا يصلح هذا الأمر إلا بما صلح به أوله ولذلك فلابد للحركة الإسلامية من الخطوات التالية :

١- لابد من عملية تعبئة إسلامية شاملة في جميع مجالات الحياة وفي جميع أنحاء العالم الإسلامي ، أي لابد من حركة إسلامية عالمية وليس هنا مجال التفصيل في ذلك وقد كتبت عشرات الكتب في هذا المجال . وقد قامت الحركة الإسلامية عبر مسيرتها الطويلة بشوط طويل في هذا المجال وقامت جهود مباركة نسأل الله سبحانه أن يكللها بالنجاح . فالصحوة الإسلامية اليوم هي حديث المنطقة وهي التي تسبب قلقاً متزايداً في العواصم الغربية فتنفق المبالغ والجهود الطائلة في متابعتها ومحاولة إيجاد الطرق لمقاومتها ومساندة الأنظمة العميلة لها في وجه المد الإسلامي ولكن الله غالب على أمره .

٢- لابد من إقامة الدولة الإسلامية على الأقل في دول المواجهة مع إسرائيل كضرورة حتمية لانطلاق الجيش الإسلامي الذي ينازل إسرائيل وينتصر عليها باذن الله . وهذه الدولة يجب أن تقوم على أسس من العقيدة الصحيحة والنظام الإسلامي الكامل مع الأخذ بكل الوسائل المادية من إعداد إقتصادي وتكنولوجي وسياسي وعسكري « وأعدوا لهم ما إستطعتم من قوة ومن رباط الخيل » إن الأخذ بالأسباب المادية فريضة شرعية وهذا الإعداد المادي يجب أن تبدأ به الحركة الإسلامية وهي في طور الحركة في الإعداد لذلك بتركيز وسائل الإختصاص وتنميتها في أبنائها في كل مجالات البناء . هذا الإعداد ضروري للوصول إلى مرحلة الدولة وضروري أيضاً للدولة في مواجهة أعدائها أيضاً .

٣- لابد من الوحدة الإسلامية كضرورة لمواجهة التحدي العالمي وهذا يتطلب القضاء على كل أسباب الفرقة من الخلافات المذهبية والنزعات الإقليمية وصهر الجميع في بوتقة الإسلام وهذا ماقام به صلاح الدين .

٤- لابد من إستغلال طاقات العالم الإسلامي الهائلة سواء البشرية (هناك مليار مسلم في العالم اليوم) وهذاالتفوق البشري يستطيع ان نعوض به الفارق التكنولوجي والطاقات الإقتصادية الهائلة التي يمتلكها العالم الإسلامي من بترول ومعادن وتكامل إقتصادي يلغي كل أسباب التبعية .

وكذلك الخبرات التكنولوجية الموجودة الآن في العالم الإسلامي لو توحدت الجهود وأخلصت النيات فان بامكانها أن تكون أساساً لبناء صناعة عسكرية متطورة كذلك قدرة الضغط السياسي العالمي للكتلة الإسلامية العالمية تستطيع أن توظف جهوداً كبيرةً في صالح القضية وأن تحيد قوى كثيرة تقف الآن بجانب الكيان الصهيوني .

إن هذا الإستغلال للطاقات ليس أمراً مستحيلاً ولكنه يحتاج إلى إخلاص في التوجه إلى الأمة الإسلامية . إن نداء تقوم به دول إسلامية حقيقية من دول المواجهة إلى العالم الإسلامي للتطوع للقضية الفلسطينة سيجمع حولها الملايين من أبناء الإسلام ولقد رأيت بعيني في موسم الحج مدى ارتباط المسلمين الروحي بفلسطين رغم ضعف هؤلاء المسلمين وجهل الكثير منهم فكيف إذا نبهتهم الحركة الإسلامية إلى ذلك وبثت فيهم روح الوعي والجهاد . إن المانع الذي يمنعهم في السابق ويمنعهم الآن هي الحكومات العميلة سواء في دول الواجهة التي تمنعهم من أداء دورهم وكذلك حكوماتهم المحلية .

٥- لابد من بعث روح الجهاد في الأمة ليصبح شغلها الشاغل ومقاومة كل أسباب الوهن والضعف ، فالمجتمع الإسلامي الحقيقي مجتمع مجاهد بطبيعته وهذا يتطلب تربية عميقة للجيل المسلم وربطه ربطاً كاملاً بالله وتبدأ الحركة من البداية ولا تنتظر لذلك حتى إقامة الدولة فانه لاقيام للدولة الإسلامية بدون هذه التربية الجهادية .

٦- لابد من توعية المسلمين في شتى أنحاءالعالم الإسلامي وربطهم بالقضية الفلسطينية وجعلهم يحسون أن هذه القضية هي قضيتهم رغم كل محاولات الدول المجرمة التي تحكمهم في إبعادهم عن ذلك والإكتفاء بسياسة الشجب والإستنكار ولقد قامت الحركة الإسلامية في السابق بجهود مباركة في هذا المجال ولكن هذه عملية كعملية مستمرة ويجب أن تطور بحيث تصل إلى كل بيت مسلم وإلى كل عقل وقلب مسلم . أنها قضية التحدي العالمي المفروض اليوم على المسلمين .

٧- يجب أن لا يغيب عن ذهن المسلمين في كل لحظة أن التفريط بشبر واحد من أرض فلسطين هو خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين . وأن الإعتراف بالدولة اليهودية هو جريمة لا تغتفر ولذلك يجب العمل للتحرير الكامل ولأرض فلسطين ومهما ضعف حالنا اليوم فان هذا الضعف لن يدوم وإن رحى الإسلام دائرة فلندر مع الإسلام حيث دار .

٨- قبل كل هذا وبعده يجب أن يكون عملنا خالصاً لله سبحانه وتعالى حتى نستحق نصر الله سبحانه «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» فانطلاقنا يجب أن يكون لله منذ البداية وحتى النهاية إن وظيفتنا هي تحرير الأرض كل الأرض من حكم الطاغوت اليهودي وغير اليهودي وإقامة حكم الله في الأرض « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » نعم ليكون الدين لله أي ليحكم دين الله الأرض كل الأرض .

لقد طرحت فتح أطروحة العمق العربي ، وأطروحة الدول الإشتراكية والتقدمية قدمتها التنظيمات الماركسية كالجبهة الشعبية والديمقراطية . كذلك طرحت القيادة الفلسطينية قبل ٤٨ نفس الطرح العمق العربية وحتى الإسلامي وفشلت في ذلك والسبب في فشل القيادة الفلسطينية قبل ٤٨ هو عدم قيامها بتجذير العمق الإسلامي للقضية سواء داخل فلسطين أو خارجها تجذيراً يصل إلى أعماق الجماهير واكتفت بدعم الحكومات الذي لم يكن يجاوز الشفاه فوقعت في الكارثة .

وأما فتح ففشلت لأنها تخلت عن العمق الإسلامي مبدأيا ثم حين تصدت للعمق العربي واجهت واقع الأنظمة العربية وحاولت الالتفاف حوله وأعلنت

إستراتيجية عدم التدخل في شئون الدول العربية فظلت لذلك مسألة العمق العربي اسما بلى مسمى كذلك فان المناورات التي قامت بها فتح مع الأنظمة العربية والتي يعتبرها بعض قادتها قمة العبقرية أفقدتها ثقة الجماهير العربية واستطاعت الأنظمة العربية بما لديهامن إمكانيات السيطرة على فتح والحد من فاعليتها عندما تشاء .

أما المنظمات الماركسية فمقولتها تتناقض مع واقع المنطقة الإسلامي ولذلك فلم تجد لها الشعبية الكافية وحتى أغلب أعضائها دخلوها لا عن قناعة فكرية بالماركسية ولكن بسبب الشعارات الوطنية وتمت تعبئتهم في السجون في داخل الأراضي المحتلة . وفي المعسكرات خارج الأرض المحتلة وكذلك أثبتت الدول المتقدمة والشيوعية أنها حامية لإسرائيل بدرجة ليست أقل من الإمبريالية الأمريكية وأثبتت معارك بيروت ١٩٨٢م بما لا يدع مجالاً للشك طبيعة علاقة الإتحاد السوفيتي بهذه المنظمات . فقد عبر صلاح خلف وهو محسوب على يسار فتح في حديث لإذاعة مونت كارلو أثناء الحصار على بيروت حين سأله المذيع عن دور الإتحاد السوفيتي فقال : " بصراحة أنا لا أفهمه " . لقد خذل الإتحاد السوفيتي القضية الفلسطينية وها هو يشارك أمريكا في البحث عن سلام لإسرائيل في المنطقة وبقيت مقولة أنه الحليف الإستراتيجي جوفاء لاحقيقة فيها .

إن مقولة العمق الإسلامي تملك من عناصر النجاح الكثير :

أولاً : إن الرابطة الإسلامية حين تستطيع الحركة الإسلامية إيقاظها في نفوس المسلمين هي أقوى رابطة على هذه الأرض والمهم أن تتولى رعاية هذا الأمر الحركة الإسلامية التي تؤمن بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهاج حياة وليس مجرد إسم في شهادة الميلاد ومادة توضع في أوائل الدساتير - نشر الرماد في العيون - بأن الدين الرسمي للدولة هو الإسلام وتنسأ العائلة التالية وما يليها في تخلي هذه الدولة وشعبها فالانظمة الحالية لن تكون في الوحدة وإن تكون في الحق الإسلامي وعلى هذا فالرابطة بين المسلمين على أساس الإسلام هي الرابطة الشرعية كالصلاة « إنما المؤمنون أخوة » ويعتبر إيقاظ هذه الرابطة والتعامل على أساسها هو جوهر النجاح للحركة الإسلامية .

ورحم الله الشاعر الفلسطيني المسلم حين قال يوم أن سمع أصواتاً تنادي بنقل شهداء الحركة الإسلامية المصريين إلى مصر :

قال الشهيد دعوا حطامي - - - فما في الدين مصري وشامي

هزمنا يوم ضاع الدين منا - - - أليس الكفر مصدر الانهزام

وهمنا بالزعامة وهي زيف - - - وأسلمنا الأمانة للحرامي

إذا حكم المدائن مجرموها - - - فما للحر فيها من مقام

أليس صلاح الدين محرر القدس كردياً مسلماً وكذلك سيف الدين قطز قاهر التتار لم يكن إلا مملوكاً ليس بعربي ولكن كان مسلماً .

ثانياً : إن الإسلام هو فطرة هذه الأمة وتاريخها وحضارتها وملهمها الأصيل وملاذها في الأزمات وقد أثبتت التجارب السابقة أن البعث الإسلامي هو أساس التحرير وأن الجماهير المسلمة لا تستجيبُ لشيء استجابتها لنداء واسلاماه ينطلق من حناجر مخلصة وأيد نظيفة والدليل على ذلك تجاوب المسلمين في كل بقاع الأرض مع أي إنتصار ولو بسيط يحققه بعض الفصائل الإسلامية في أي موقع من الساحة الإسلامية .

ثالثاً : فشل كل التجارب السابقة يؤكد على أن الحل الإسلامي هو الحل الوحيد الصحيح والمنتظر وعلى الحركة الإسلامية أن تبرهن عملياً رغم كل المحن التي تلاقيها على أنها أمل الجماهير الحقيقي في النهضة والتحرير فلا خيار أمامها أن تعمل أو لا تعمل فاما العمل وإما الفناء .

خاتمة

... وبعد ،

فهذه معالم أضعها بين أيدي الشباب المسلم في فلسطين وخارج فلسطين . وتوجهت بها إلى الشباب المسلم بالذات لان عليه يرتكز الأمل في تفهم أبعاد هذه القضية والإنطلاق بها في الطريق الصحيح .

هذه المعالم يجب الا تغيب عن ذهن المسلمين في طريقهم إلى تحرير فلسطين ولا يلهيهم عنها تقلبات الواقع وغدر الأنظمة وتكالب الأعداء .

إن واقعنا تعيس إذا ما قيس بقوة أعدائنا وما يدبرونه لنا من مؤامرات ،

المسلمون جدارة مسفوحةٌ - - - وعدوهم متكاتف غشام

غير أن لي في الله أملاً أن يتولى دينه وينصر جنده ويخذل الباطل وأهله ... وبشارات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تجعل هذا الأمل يقيناً راسخاً كأراه رأي العين .

ولي أمل في شباب الحركة الإسلامية أن يقوموا وينفضوا عن أنفسهم غبار النوم والكسل ويواصلوا العمل ليل نهار جهاداً في سبيل الله وتضحية بكل ما يملكون من جهد ونفس ، ومال ووقت ويخلصوا توجيه هذا الجهد لله سبحانه ويوطدوا العزم على السير على طريق الإسلام متحدين على طريق الإسلام لتحرير فلسطين وكل الأرض من رجس الطاغوت .

وأسأل الله سبحانه أن يبارك جهودهم وينميها ... إنه نعم المولى ونعم النصير . ولا أتصور أن تكون هذه المعالم خالية من الخطأ أو العيب فربما هناك بعض التقصير الذي فرضته الظروف من قلة المراجع أو عدم القدرة في الخوض في التفاصيل لدواعي أخرى .

وحسبي أنني حاولت مخلصاً أن أبذل ما أستطيع لتوصيل هذه المعالم إلى شباب الحركة الإسلامية ... فما فيها من صواب فمن الله وبتوفيقه وما فيها من خطأ فمن نفسي وأستغفر الله منه ... وأرجو من كل من إستفاد شيئاً أن يدعو لي بظهر الغيب دعوة تنفعني عند الله ... وكل من وجد خطأ أن يستغفر الله لي . ولا شك أن هناك معالم أخرى لابد من الحديث فيها باذن الله ولابد أن هناك قضايا ستبرز أثناء العمل سيوفق الله سبحانه إلى دراستها وتقديم الحلول المناسبة لها باذنه ...

« والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

« يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيائتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم » .

فالى العمل يا شباب الإسلام فان الأمر جد لاهزل فيه وإني لأرى تباشير النصر باذن الله في وجوهكم المضيئة وقلوبكم الطاهرة « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » .

« وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين »

« الفهرس »

تقديم وإهداء	١
مقدمة	٣
الباب الأول	٩
الفصل الأول - اليهود	١٠
الفصل الثاني - النصارى	٢٧
الفصل الثالث - الشيوعيون	٣٩
الفصل الرابع - المسلمون	٤٥
الباب الثاني	٦٨
- طبيعة الصراع	٦٨
الفصل الأول حقائق قرآنية	٧٠
الفصل الثاني حقائق تاريخية	٧٦
الباب الثالث	٩٨
- الفعل ورد الفعل	٩٩
الباب الرابع	١٢٢
القضية الفلسطينية والحلول الترويضية المطروحة	١٢٣
الباب الخامس تجارب جهادية	١٦١
الفصل الأول - تجربة الشيخ عز الدين القسام	١٦٢
الفصل الثاني - ثورة ١٩٣٦	١٦٩
الفصل الثالث - النكبة الأولى ١٩٤٨	١٨٦

الباب السادس ٢٠٥
الدول العربية والقضية الفلسطينية ٢٠٦
الباب السابع ٢١٩
المقاومة الفلسطينية ٢٢٠
الباب الثامن ٢٤٤
الحركة الإسلامية والقضية الفلسطينية ٢٤٤
الفصل الأول - نبذة تاريخية ٢٤٤
الفصل الثاني - واجبات الحركة الإسلامية في الأرض المحتلة ٢٦٣
الفصل الثالث - الحركة الإسلامية خارج الأرض المحتلة ودورها في قضية فلسطين ٢٧٤
خاتمة ٢٨٣